شواطئُ الرحيل

رشا عدلي

دار نهضة مصر للنشر

رواية

شواطئُ الرحيل

تأليف
رشا عدلي

دار نهضة مصر للنشر

العنوان:

شواطئ الرحيل

تأليف:

رشا عدلي

إشراف عام:

داليا محمد إبراهيم

جميع الحقوق محفوظة © لدار نهضة مصر للنشر

يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين
أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية أو ميكانيكية
أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر.

الترقيم الدولي: 978-977-14-5286-7
رقم الإيداع: 14131 / 2015
الطبعة الأولى: يونيو 2015

أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938
21 شارع أحمد عرابي -
المهندسين - الجيزة

تليفون: 33466434 - 33472864 02
فاكس: 33462576 02
خدمة العملاء: 16766
Website: www.nahdetmisr.com
E-mail: publishing@nahdetmisr.com

الإهـداء

إلى خالد

إلى كل الذين خرجوا من أرضهم قسْرًا

إلى كل اللاجئين والمشتتين والهائمين على وجوههم في بقاع الأرض.

إليكم أينما وجدتم

مقدمة

خبر في جريدة عن قتل القناص الأمريكي كريس كايل قرأته ذات صباح هو ما قادني لكتابة هذا العمل. نشر الخبر بتاريخ 2013/2/3، وأثار هذا الخبر فضولي وخاصة أن وراء عملية القتل الكثير من الغموض، فوجدت نفسي أبحث عما وراءه سعيًا إلى معرفة المزيد عن هذه الشخصية، خاصة أن المدعو كريس كايل هو أشهر قناص أمريكي في حرب العراق، بل ربما في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية.

خلال بحثي قرأت السيرة الذاتية لهذا القناص، لأكتشف أن الرجل، بالنظر إلى شنيع ما قام به خلال الحرب في العراق، لا يمت للبشرية بصلة، فهو قاسٍ إلى حد أنه كان يصوب سلاحه تجاه أي أحد دون أن يرف له جفن أو يحدد ما إذا كان الهدف بريئًا أو مذنبًا، كان القتل بالنسبة إليه نابعًا من روح انتقامية وليس من الاعتبارات التي يمليها أداؤه ل"واجب وطني"، كما ظل يزعم ويردد حتى كشفه لسانه أثناء حفل تكريمه حيث قال: "إنني لم أنظر للناس تاذين قتلتهم كبشر ولم أتساءل حتى أو يعنيني ما إذا كانت لديهم أسر أو أبناء، لقد كان كل همي هو القتل وإنجاز المهام الموكولة إلى".

لقد تم تكريم كريس كايل من قبل الجيش الأمريكي لما قدمه في حرب العراق من "جهود خارقة"؛ حيث وقف ذات يوم على المنصة ليتسلم الميداليات والنياشين وتم الاحتفاء به لبراعته في إزهاق أرواح الأبرياء، ولأن الجزاء من جنس العمل، انتهت حياة كريس بنفس الطريق التي كان يحصد بها الأرواح حيث تم إرداؤه بالرصاص.

وعودة إلى عملي هذا، فبعد أن انتهيت منه وقدمته لدار النشر، قرأت مرة أخرى، بالصدفة، خبرا عن عرض فيلم "القناص الأمريكي"، وكما في المرة الأولى، فقد اشتعلت فضولًا لمشاهدة الفيلم، وكما هي العادة في السينما الأمريكية، تم تقديم كريس كايل في شكل بطل قومي، إلى درجة أن الفيلم نفسه يثير لدة المشاهد تساؤلًا حول ما إذا كان أُنتج بدافع تبرئة مجرم أم للاحتفاء ببطل.

هذه الرواية مستوحاة من قصة حياة هذا الرجل الذي هو في الواقع نتاج العنصرية، هذه العنصرية لم تختف أو تنته يوما منذ الحروب الصليبية على العرب والإسلام وإلى يومنا هذا، وهو ما تعمل الرواية على تقديمه، من خلال اشتغالي فيها على خطين سرديين متوازيين بين ما حدث في الأندلس على يد الإسبان وما حدث في العراق ععلى يد الأمريكان، أو بعبارة أخرى... ما حدث في الأندلس منذ قرون لم يتوقف يومًا، بل استمر واتخذ أشكالًا وأبعادا أخرى، ربما هي أكثر "حداثة" لتتناسب مع العصر ولكن جوهر الأمر لم يتغير.

رشا عدلي

كان يقف أمام النافذة يطيل النظر للخارج، كان المشهد جميلا حقا، الثلج يكسو المكان وكأن الأرض فرشت ببساط أبيض. ولكن مع برودة الجو والمشهد الذي يقف أمامه فإنه لم يكن يقل ثلوجة عن أعماقه ذلك الصقيع الذي يزداد يوما بعد آخر، فعلى الأقل الطبيعة بإمكانها أن تبدل نفسها، فهناك دورة محكمة تسير وفقا لها، أما هو فموسم واحد يسكنه تماما كالعصر الجليدي حيث كل شيء قد اكتسى بالجليد وبعض من العشب النابت بين فواصل الروح، ولكنه عشب لا يكتمل النمو.

طرق كعبها العالي على خشب الأرضية، أخذ يقترب منه أكثر فأكثر حتى توقفت وراءه تماما، كانت على بعد لفتة منه، ربتت بيديها على ظهره صعودًا وهبوطًا ثم طوقته من الخلف وهي تسأله:

- **فيم تفكر؟**

بماذا عليه أن يجيبها ؟ هل يخبرها مثلًا أن بداخله ركامًا من الجليد غير قابل للذوبان وأنه لا شمس تسطع لتذيبه؟

أمام المدفأة على أريكة من الطراز الأمريكي تَمدَّدَا هناك وسط العتمة وخلف الستائر المسدلة وعلى ضوء الشمعة كانا يتحدثان بصوت خفيض حتى لا يتناهى صوتهما إلى الخارج، لم تكن تعلم الكثير عنه ولم يكن يعلم الكثير عنها، ولكنهما كانا ينتميان للعالم ذاته، وليس هناك من داعٍ لتحديد أي عالم هو. كعادته لا يتحدث سوى لغته الأخرى من الصمت، ومحدقًا هناك حيث لا شيء، وهي بشغب طفلة تحاول أن تستدرجه لعالمها تقص عليه حكاياتها، تخبره عمن ذهب ومن جاء. تحكي له عن الفيلم الذي شاهدته في السينما في عطلة الأسبوع وكيف أنها كعادتها دائما أمام المشاهد الدرامية لم تستطع أن توقف سيل دموعها التي أفسدت مساحيق تجميلها. تخبره عن قطتها الكسول والمملة. تواصل الحكي دون توقف، تضحك تارة وتزمجر تارة، ويعلو صوتها في أخرى، وهو كما هو في كل ما يسمعه لم يسعه سوى أن تنفرج شفتاه ببطء عن ابتسامة غير مكتملة أو يعقد حاجبيه فتضيق حدقة عينيه تأثرًا لما تقول، ثم فجأة أوقف سيل الكلمات بأن قبض على شفتيها في قبلة طويلة.

رنين المنبه بهاتفه المحمول لا يتوقف، كانت عقارب الساعة تشير للسادسة صباحًا، وكعادته عند سماع أي صوت يستيقظ فزعًا، ترتفع نبضات قلبه وتجحظ عيناه. كانت كالقطة عندما تراقب صاحبها أثناء خروجه، وهي بعد في نعاسها وبنصف عين غافية لمحته يرتدي ملابسه فنظرت في المنبه الموجود بجوارها على الكومود.

- **أليس الوقت مبكرا؟ إنها السادسة!**

- **على أن أستقل طائرة الثامنة.**

وقتها فقط كان عليها أن تكون في كامل وعيها فجلست في الفراش وهي تلاحقه بالأسئلة:

- **طائرة!ولكن أي طائرة؟ وأي سفر؟ لم تخبرني أنك مسافر؟**

منذ متى كان يخبرها عن خططه ومشاريعه، كان يغيب كما يحلو له الغياب ثم يأتي فجأة. اعتادت هي على ذلك، لم تعد تملك قدرة على السؤال أو العتاب، نظر إليها نظرة ذات مغزى فهمتها مباشرة، حيث أخذتها هناك لبداية تعارفهما عندما أخبرها ذات مرة:

- **دعي لي خيار إخبارك ما أريد.**

في البدء اعتقدت أن ما يحدث بينهما عارض طارئ وسيرجع هذا الرجل مرة أخرى لرشده، ولكن مع الوقت تأكدت أنه في تمام رشده. عندما حاولت أن تتمرد على أسلوبه معها وتعاتبه على تلك الطريقة الغريبة في التعامل غادر وهجرها، وقتها أيقنت كم كانت مغفلة، فهي لم تعرف له مكانًا أو عنوانًا عدا أرقام لهواتف نقالة كانت تتغير باستمرار، لا تستطيع أن تنكر أنه بالرغم من كل شيء فقد كانت تلك الفترة أصعب ما مر بها من أيام عمرها، طال غيابه عن المعتاد وغلبها حنينها إليه. تتذكر كيف جلست يومها تحاول أن تتصل بالأرقام التي كان يتصل منها، أربعة أرقام لهواتف نقالة في أقل من ستة أشهر عمر علاقتهما. كانت في كل مرة ترى رقمًا غير مسجل في ذاكرة هاتفها ويأتيها صوته تصيح فيه قائلة:

- **يا ألله! ما أمرك؟ كل يوم برقم جديد؟**
- **هكذا تقتضي مهنتي.**
- **وما هي مهنتك؟**
- **الصيد.**
- **الصيد! ولكن لا تبدو كصياد.**
- **وكيف يبدو الصياد في نظرك؟**
- **أعتقد أنه أقل أناقة مما أنت عليه، فمظهرك يوحي برجل أعمال شديد الثراء. انظر.. ساعة معصمك وحدها يتعدى ثمنها الآلاف من الدولارات!**
- **هذا لأنني صياد ماهر ليس أكثر.**

غاب عنها ثلاثة أشهر كاملة لم تحيَ فيها إلا على قيد انتظاره، متأكدة أنه سيعود مرة أخرى، وعندما عاد منعتها فرحتها به من أن تلومه أو تعاتبه، اكتفت بوجبة الحب الدسمة التي اعتذر بها والتي عوضتها عن ليال طويلة من الحرمان والهجر.. وصمتت.

وها هو يخبرها فجأة وهو يرتدي ملابسه أنه مسافر بالرغم من قضائها الليل بطوله بين يديه، ولكنه اختار فقط اللحظات الأخيرة ليخبرها فيها. أحكم رابطة عنقه، وضع أصابعه بين خصلات شعره الرمادي يرتبها لتبدو كما لو أنها متشابكة معا ثم طبع قبلة على جبهتها، وكأن كل ما حصل بينهما أمس لا يمت له بصلة. تجرأت وقتها لتسأله:

- **متى ستعود؟**

- **إنها رحلة صيد أعتقد أنها ليست طويلة.**
- **ولكن رحلة صيد، وستقطعها بالطائرة.. كيف يعقل ذلك؟!**
- **سنستقل المركب من شواطئ ميلانو.**

كانت ستبدأ في ملاحقته بالأسئلة عندما وضع إصبعه على فمها بما يفيد:

- **كفى ذلك.**

ثم غادر ولم يترك وراءه سوى بقايا من عطره.

جلس يتابع المارة من خلف نافذة سيارة الأجرة التي يستقلها لتذهب به للمطار. باريس كانت في تلك الصباحات الشتوية تبدو دوما كأنثى حزينة ممتلئة بالهموم. سماؤها تمتلئ بالغيوم. الكل يذهب في طريقه مسرعا، تتقاطع خطواتهم، تتشابك نظراتهم، تتخبط أكتافهم، آلاف من البشر تتصادم وتتضارب بعضها بالأخرى ككرات البلياردو، وفي النهاية تذهب كل منها لجحرهاوبمرور الزمن تلك الطرقات التي لم يتوقف عليها المسير يومًا لا يعبرها أحد؛ إذ إن كل من عبروها ذهبوا، طرقات بدون ذاكرة؛ لتدون خطى العابرين فوقها. الآن ها هم يركضون بعزم باتجاه مصائرهم، يود أن يفتح نافذة السيارة ويصيح فيهم قائلا:

- **مهما عجلنا ومهما اختلفت الطرق.. في النهاية سنذهب جميعا في طريق واحد، فلم العجلة إذن؟**

تلقى اتصالا هاتفيا. أجاب بصوته الهادئ ذي البحة المميزة:

- **نعم.**

أنصت للطرف الآخر الذي لم يطل الحديث كان بعضًا من كلمات أغلق بعدها هاتفه دون أن ينبس إلا ب"نعم"التي فتح بها الخط.

يسافر دومًا بمصاحبة حقيبة جرارة ومعطف صوفي لا أكثر، فكل ما يحتاجه بعد ذلك لا داعي لحمله؛ لأنه سيحمله بداخله. جلس في المقهى يحتسي قهوته ويطالع جريدة الصباح عندما بدأت المضيفة بالإذاعة الداخلية تنادي على إقلاع رحلة "براغ". لم يزر براغ مسبقًا ولكنه زار أكثر مدن العالم، بين مطار وآخر وطائرة وأخرى كان قدره. جلس في طبقة الفرست كلاس فلم يكن يجلس يومًا إلا بها ليتمتع بما يتمتعون به من رفاهية فهو لا يقل عنهم في شيء. حتى إنه يشبههم في أناقتهم الفائقة وتلك الأنفة والكبرياء. بالرغم من ذلك فأن وجوده بين هؤلاء القوم لم يمنعه من استعادة المشهد المتربع في واجهة الذاكرة عند ركوبه الطائرة للمرة الأولى من مصر إلى العراق عندما تسلم أبوه منصبه الجديد هناك.

كان مهندسا كيميائيا بارعا في عمله، حصل على الدكتوراه في هندسة المفاعلات، انتدب مع لجنة عمل في البرنامج النووي العراقي، فقد شهد التسلح العراقي في ثمانينيات القرن الماضي تطورًا واسعًا في عهد الرئيس صدام حسين الذي أمر بإنجاز برنامج نووي بعدما ضربت إسرائيل المفاعل في تموز 1981 واستعان بخبرة العلماء العراقيين وبعض علماء الوطن العربي الذين يشهد لهم بالكفاءة حتى يقوموا بتخصيب اليورانيوم دون أي تدخل أو مساعدة أجنبية. حدث ذلك عام 1985 وكان وقتها لا يزال صبيا صغيرا يغادر للمرة الأولى وطنه وأصدقاءه وجدته لأمه تلك العجوز التي كان يحبها كثيرا. لذا كانت المطارات تخلف عنده دوما ذلك الشعور بالغربة والخوف من الذهاب إلى المجهول. يتذكر جيدا أن أمه لم تكن سعيدة لمغادرة مصر ولا ترى سببًا جديًا لذلك؛ فمستواهم المادي كان مرتفعا ولا ينقصهم شيء، ولكن والده كان يرى أن مساعدة العراق في تصنيع مفاعلها النووي واجب تحتمه عليه عروبته.

اقتربت منه المضيفة برائحة عطر صاخبة وبملامح روسية حادة الجمال لتسأله بالإنجليزية:

- ماذا تفضل، لحمًا أم دجاجًا؟

اكتفى بابتسامة وهو الذي يقتات بوجبات من الذكريات لم يكن يملك شهية للأكل فاعتذر لها.

لم يلتفت لذلك الكتيب الصغير عن مدينة براغ الموجودة بالطائرة. فقد ترك لنفسه متعة استكشاف تلك المدينة التاريخية فهو يعلم تماما أن كل مدينة لها الطابع والمذاق الخاص بها مهما برع هذا الكتيب في وصف المدينة وجمالها وتاريخها، فهناك شفرة خاصة بكل مدينة إما أن يستطيع فكها والتمتع بها وإما أن يعجز عن ذلك ويصبح هناك حائل بينه وبينها.

لم يحب المدن فائقة الأناقة، فائقة الترتيب، الخالية من الدفء، لذلك فإن هناك الكثير من المدن التي بمجرد أن يصل إليها وينجز مهمته يغادرها مسرعًا، وأخرى يود لو أن يبقى فيها للأبد.

عوضًا عن الكتيب الصغير تناول بحرص من حقيبة يده التي يضع فيها أوراقه الخاصة ذلك الكتاب الذي كان غاية في القدم لحد أن أوراقه الصفراء تكاد تتفتت بين يديه فاشترى له غلافًا جلديًا ليحفظه فيه وعند تقليب الصفحات كان يحرص على أن يقلبها برفق شديد. عثر على الكتاب في صندوق كرتوني ظل موجودًا فيه لوقت طويل، عندما فكر أن يتخلص من محتويات الصندوق وقع نظره عليه وشيء ما أغراه بقراءته، فقام بوضعه في حقيبة أوراقه التي يحملها معه، وقرر قراءته أثناء رحلته القادمة. وجد أن هذا الكتاب سيكون فرصة للقضاء على الوقت ما دام أنه يقضي أكثر وقته محلقًا ما بين بلد وآخر.

بخط عربي جميل نقش عنوانه على صفحته الأولى "شواطئ الرحيل"، أخذ يبحث تفاصيل أكثر فوجد أنه قد طبعا عام 1600 بمطبعة تسمى "دار الحكمة" إذن كم قرنا مر على نشر هذا الكتاب؟ أربعة قرون بالتمام والكمال. ترى ما الذي دون فيه وما الذي كان برأس صاحبه في سالف الأزمان ليكتبه؟!!

الفصل الأول

لكل شيء إذا ما تم نقصان

فلا يغر بطيب العيش إنسان

هي الأمور كما شاهدتها دول

من سره زمن ساءته أزمان

(نون والقلم ما يسطرون)

تساءلت كثيرًا قبل أن أقوم بسطر تلك الكلمات: ما الجدوى منها؟ هل هي إفراغ للذاكرة التي ثقل حملها بذكريات صعب أن تنسى أو تمحى؟ أم توثيق لذلك الجرم الذي حدث في حق أهلي وحقي؟ أم عبرة لمن سيأتون بعدي من ملوك عرب بألا تغرهم سلطة العرش وسطوة الكرسي؟! ما زلت أومن بأن كل ما حدث من سقوط غرناطة هو عقاب من الله سبحانه وتعالى لأناس لم يشعروا بنعمة ما يملكونه؛ فبعد أن أنعم الله على المسلمين بفتح الأندلس وبصناعة حضارة وتاريخ تعاقب الحكام الواحد بعد الآخر وهجروا شرع الله وكتابه وحكموا بما تمليه عليهم رغباتهم، وتنازعوا وتباغضوا وتنافروا بينهم وزادت الخيانات والمكائد وأصبح من السهل أن ترى ابنًا يدبر مكيدة لأبيه لنزع الحكم منه، وأبًا يأمر بقتل ابنه ليهنأ بالحكم، حتى قسمت الأندلس إلى دويلات ينفرد بحكم كل دويلة فيها حاكم بأمره يضع القوانين وفق هواه وتبعا لمزاجه، ثم أخذت تسقط الدويلة بعد الأخرى حتى انتهت بسقوط غرناطة، وبسقوطها سقطت الأندلس كلها وأصبح الحكم الإسلامي مجرد ماض لأناس لم يستطيعوا الحفاظ على ما أنعم الله عليهم به.

لطالما كان نهج المسلمين في فتح الأندلس تختصره مقولة "ربعي ابن عامر" قبل موقعة القادسية: **"الله بعثنا لنخرج من شاء من عباده من عبادة العبادإلى عبادة الله ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام"**... فلماذا لم يتبع من خلفوه في الحكم هذا النهج وذلك الإيمان الذي كان ينير طريقهم حتى إن قائد مدينة (حامية)تساءل عند دخولهم للأندلس مستغربًا: **"هل هم حقا من أهل الأرض أم من أهل السماء؟!"**..

لقد عشت عمرا عتيًا ولكن في تلك الأسطر لن أذكر سوى ما صادفته من عجائب الزمان، إنها تلك الفترة منذ ولدت في غرناطة حتى ركبت سفينة الرحيل ذاهبًا إلى بلاد المغرب. سأذكر فقط لأحداث التي إذا قرأها أحد فلن يصدق أنها مرت فعلا وعبرت الزمن حقًا!

أما كل ما مر بي بعدها فليس من الأهمية ذكره، إنها دورة الحياة التي علينا أن نحياها كما هي ولن يسعنا حتى لنتساءل لماذا جئنا؟ وإلى أين سنذهب؟

اسمي خالد، وعيت لأجد نفسي أعيش في مكان جميل، إنه جنة الله على الأرض **"غرناطة ما لها من نظير، ما مصر؟ ما الشام؟ ما العراق؟ ما هي إلا عروس تجلى وتلك من جملة الصداق"**.

غرناطة تعني ثمرة الرمان فتكوينها الجغرافي يشبه هذه الثمرة؛ لذلك أطلق عليها ذلك الاسم. كان بيتنا وسط بساتين تنتج أجمل أنواع الفواكه والزهور، على مقربة من قصر الحمراء[1] الذي يستطيع أن يضم أربعين ألف رجل في وقت واحد. إنه المكان الذي يقف المرء فاغرًا فاه من دهشة وروعة بنائه والذي اختلف الكثيرون في سبب تسميته، فمن يقول إنه نسبة لبني الأحمر وهم بني نصر الذين كانوا يحكمون غرناطة سنة 1232 إلى 1492 ميلادية، وآخرون يرجعون سبب التسمية للتربة الحمراء التي شيد عليها القصر. نقشت في زوايا جدرانه بخط عربي مزخرف جميل **"النصر والتمكين والفتح المبين لمولانا أبي عبد الله أمير المؤمنين"** – (وما

[1] قصر الحمراء: قصر أثري وحصن شيده الملك محمد بن يوسف بن نصر بن الأحمر في مملكة غرناطة خلال النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي ويعتبر أهم المعالم السياحية بإسبانيا.

النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) فهل كانت تلك الآيات البينات التي تخص ذكر النصر ترمي لأمر ما؟!

هل هي إشارة لما سوف يجلبه المستقبل أم حكمة لنعلم بها أن النصر من عند الله يمنحه لمن يشاء؟ ولكن لماذا ضن به على هؤلاء الحكام حتى قاموا بتسليم مدينتهم لعدوهم؟ أهو غضب من الله أم قدر تلك الأرض؟

أول من سكن الأندس وكما أخبرنا به أجدادنا قوم يطلق عليهم "بالأندلش" وحرفت تلك الكلمة فيما بعد للأندلس بعدما استبدل بحرف الشين حرف السين لغرض لا يعلمه إلا الله تعإلى.

عاشوا فيها وتناسلوا وحكموها طويلا وكان يقال إنهم قوم في غاية الفسق والفساد فأخذهم الله بذنوبهم فامتنع المطر عن النزول وذبل النبات وجفت الأنهار وحصلت مجاعة كبيرة، فرَّ أكثر سكانها وهلك الباقي وتركت خالية لأكثر من مائة عام.

أمام قصر الحمراء كان هناك حصن القصبة والأزقة الضيقة التي تتلوى في شوارع غرناطة وتتخللها ساحات بنوافير للمياه، وبنيت البيوت بها على الطراز الأندلسي الجميل ولكل بيت حديقة خاصة به يمر بها جدول رقراق وتزرع في حدائقه الحوامض والرمان والرياحين، والمدينة محاطة بسور عال واثنتي عشرة بوابة وألف وثلاثين برجًا وكان لارتفاع المدينة ومحاذاتها لمرتفعات "سير نيفادا" المكللة بالثلوج أثر في جعل هوائها عذبا و رطبًا صيفاً.

بينما أجمل ما في المدينة هو سهل "الفيغا" الذي يمتد في أنحاء المكان وتحيطه الجبال من كل جانب ويتراقص فيها نهر "الشنيل" الذي قسمه العرب بشكل هندسي بديع، أما الجبال فكانت مليئة بالزهور والأعناب وتطل من بينها فواكه الرمان والليمون والبرتقال وينتشر شجر التوت في كل مكان وكرمات الكروم تتدلى من أعلى المنازل وأصوات البلابل والطيور تصدح ليلا.

غرناطة لم تكن تشبه فقط ثمرة الرمان في تكوينها ولكن أيضا في لذة مذاقها وحلاوة طعمها. شوارعها وحاراتها بيوتها وهواؤها وكذلك نساؤها كل ما بها يفتنك ويحرضك على المتعة والعشق.

كثيرا ما سمعت عن أمجاد أجدادي في تلك البلاد وكيف قاموا بفتحها وتأسيسها وقرأت عن الثقافات ومختلف العلوم التي نشرت بين أهلها حتى صارت تفوق بلاد العالم علما وثقافة وفنونا.

كل مدينة بالأندلس لها عبقها الخاص فجدي مثلا كان من واد يسمى وادي إش وهي مدينة جميلة محاطة بالبساتين والأشجار وكان للطبيعة الجميلة للمدينة ذلك الأثر على سكانها فأبدعوا ف كتابة الشعر والأدب وامتازوا بفصاحة اللسان وفي التندر بجمال مدينتهم التي قيل فيها:

وادي الإشات يهيج وجدي كلما..... ذكِّرتُ ما قصدت به النعماء

لله ظلك والهجير مسلط..... قد بردت لفحاته الأنداء

والشمس ترغب أن تفوز بلحظة..... منه، فتطرف طرفها الأفياء

والنهر يبسم بالحباب كأنه..... سلخ نضته حية رقشاء

فلذاك تحذره الغصون فميلها..... أبدا على جنباته إيماء

وقرطبة.. إنها للأندلس بمنزلة الرأس للجسد، قرطبة التي قيل عنها أنها بأربعة قد فاقت الأمصار "منهن قنطرة الوادي وجامعها، هاتان اثنتان والزهراء ثالثة والعلم أعظم شيء وهو رابعها.." هي قبة الإسلام وموطن العلماء والمفكرين و تتوسط شرق الأندلس، بها شوارع متسعة ومنازل ضخمة وهواء معتدل وكانت أكثر بلاد الله كتبا.

أما إشبيلية فهي مدينة اللهو الترف والطرب وتقع على ضفة النهر الكبير، إنها عروس بلاد الأندلس يجري بها نهر يضاهي دجلة والفرات والنيل، تسير فيه القوارب تحت الأشجار وتغريد الطيور. وكأن جمال الأندلس وأناقتها قد سرِّب لسكانها فكانوا ملاح الوجه جميلي الملامح حلوي اللسان وطيبي المعشر. يمشي الرجل بأنفة وعظمة مرتديا عباءته البيضاء النظيفة وفوق رأسه عمامته فتظن أنه عظيم أو تاجر كبير وفي حقيقة الأمر هو لا يمتلك قوت يومه ولكن هكذا كان حال فقراء هذه المدينة.

أتمنى لو كنت عشت خلال تلك الفترة التي هي من أزهى فترات التاريخ أو حتى وقت الحرب والتي استمرات 10 سنوات ما بين ملك إسبانيا وملوك الأندلس، تلك الحرب التي شبهها البعض بحروب طروادة لشدة قتالها؛ لأنعم بشرف مشاركتي فيها ولكن للأسف ولدت بعد سقوط الأندلس وإذا بي أعيش ضعف هذا الزمن وهذله في هذه الفترة البائسة من التاريخ بعد أن أصبح شموخ الأندلس مجرد ذكرى تتناقلها الألسن!

الفصل الثاني

كان أبي رجل دين يكن له الجميع الحب والاحترام يستشيره البعض في أمورهم الدينية والعائلية لما يتمتع به من سمعة طيبة وحكمة، وظل على ولائه لدينه وعلمه وكتبه التي تحفل بها مكتبته الكبيرة في المنزل وفي مسجد "الجامع الكبير". وهو من أشهر مساجد غرناطة، يقع وسط المدينة وتتحول ساحته الخلفية لندوات للعلم أيام الجمعة وقاعات لدراسة الفقه بعد أذان العشاء من كل يوم، وكان أبي خطيب وإمام المسجد، يجلس بعباءته البيضاء تفوح منه روائح الطيب والمسك وتقبض يده على حبات مسبحته الخشبية المعطرة بالصندل، تتدلى ذقنه البيضاء الطويلة على صدره وعيناه تشعان تقوى وإيمانا. لم يورثني أبي سوى وسامة الوجه وحسنه.

فيما عدا ذلك كنت عكسه تماما؛ عصبي المزاج، لا خلق لي ولا صبر. ربما هي السنوات التي تفصله عني، تلك السنوات التي جاء فيها للعالم وعاش أزهى عصور بلده واستقراره، بينما أنا جئت في وقت كان علينا - نحن أهل غرناطة - أن نحمل أغراضنا ونرحل والبعض منا يقدم لمحاكم التفتيش ليعذب، ويزج بنا في السجن في حال إذا فكرنا أن نذبح خروفا أو عنزا، هذا كان الفرق!

تراكمت السنوات وهنا على وهن حتى ذلك اليوم المشئوم الذي سلم فيه "الملك عبد الله الصغير أو بيبدول" مفتاح غرناطة بعد عشر سنوات من القتال الدامي..

حدثني جدي قائلا:

كان بدء الأمر في أحد أيام 1478 دخل الفارس الإسباني "خوان ديفيرا" من أبواب غرناطة وهو مسلح بالحديد من رأسه حتى إخمص قدميه. جاء وسط موكب مهيب ليطالب بالجزية وخرج الجميع ليشاهدوا هذا الفارس المعتد بنفسه. استقبله مولاي "أبو الحسن" في قصره بقاعة السفراء وعندما حدثه بأمر الجزية أجابه "أبو الحسن" وهو يبتسم بسخرية:

"بلغ ملكك أن ملك غرناطة الذي كان يهب الجزية لملك قشتالة[1] قد مات واليوم ليس لنا ما نمنحه سوى حد الأسنة ورءوس الرماح". وخرج الفارس بعدما أهدى له أبو الحسن سيفا دمشقيا ذا نصل قلّ نظيره بالعالم وخاصة أنه مرصع بالأحجار الكريمة، سحب دون خوان السيف قائلا وهو ينظر إلى نصله، "لقد أهداني الملك سيفا سوف أعرف كيف أستخدمه بحضرته". وكان جوابه كافيا ليعلم الجميع ما يضمره هذا الرجل فيي قلبه وعقله.

غادر دون خوان مع موكبه المحاط به من الفرسان بعدما مروا في شوارع وأسواق المدينة وشاهد بشغف وطمع قصورها وعمرانها وأسواقها المليئة بالحرير والفضة والذهب وهو يمني نفسه بأن تصبح كل تلك الأملاك ملكا لهم وفي طريقهم للخروج من أبواب المدينة شاهد الأبراج العالية التي تسطع على قمتها وداخلها الأسلحة والحراب، بينما كانت ترمقه العيون السوداء تحت العمائم الكبيرة بنظرات من الكراهية والاحتقار.

خرج هؤلاء الفرسان وفي قلوبهم وعقولهم فكرة واحدة وهي القتال العنيف لاسترداد عرش أجدادهم الإسبان.

---

[1] مملكة قشتالة: هي واحدة من ممالك القرون الوسطى من شبه جزيرة أيبريا.

وقف دون خوان بين يدي الملك فرناندو[1] يحكي له كل ما حدث خلال رحلته لغرناطة وكانت تلك الشرارة الأولى في إشعال فتيل الحرب في نفس الملك لتحقيق طموحاته بطرد العرب من إسبانيا فقرر أن يهاجم تلك الأرض ويحتلها قطعة بعد أخرى بحذر وصبر وقال في ذلك: "سوف ألتقط حب الرمانة واحدة بعد الأخرى"....

علم أبو الحسن ما يضمره في نفسه ملك قشتالة وبدأ في عد العدة وحصن خطوط دفاع مملكته واستعان بالإمدادات من جيوش شمال إفريقيا وقبائل البربر. كان جيشه ممتلئا بفرسان من الخيالة يقفون بدروعهم؟ الثقيلة مستعدين لتلبية النداء بكل شجاعة وثقة، فقرر مداهمتهم بالضربة الأولى من برج الزهراء، هذا الحصن المنيع المشهور في بلاد الأندلس حتى إن المرأة المنيعة صعبة المنال يطلق عليها "الزهرانية" وفي ليلة من عام 1481 قام مولاي بهجومه على الزهراء واقتحامها سرًا بوقت كان السكان فيه نيامًا ودخل قلعتها بينما العدو الذي أخذ على بغتة كان ينشر الفوضي في كل مكان، الجنود النائمون قتلوا حتى قبل أن يستيقظوا، ومن استيقظ كان يقتل قبل أن يتأهب ليمسك سيفه. ارتجف السكان خوفًا من مصيرهم تحت صرخات الجنود الباحثين عن الفارين ومعى النفير الذي ضرب في الطرقات اجتمع السكان في الساحة العامة والتف حولهم الجنود المنتصرون، وأخذوا يتوسلون ويصلون بأن يرحموهم.

أخذهم " أبو الحسن" لغرناطة كأسرى حرب بعدما نكس خلفه راية المدينة، دخلوا غرناطة في طوابير طويلة وكان مظهرهم مثيرًا للشفقة وعلم أهل غرناطة وشيوخها وحكماؤها أنهم في طريقهم لحرب ماحقة لا محالة بهذا لفعل الجريء.

وفي ليلة كالحة بلا قمر وبينما كان أبو الحسن يجلس في قصر الحمراء يحتفل بانتصاره وسط أرباب البلد وتجارها وحكمائها سمع من بين الحشد صوتًا لمجذوب من الدراويش بشعر يتدلى في جديلة طويلة وراء ظهره وعباءة تملؤها البقع والرقع وتتدلى من صدره تمائم كثيرة معلقة في سلاسل خشبية بينما لحيته الطويلة كانت تصل لخصره. يسير ببطء ويتكئ على عكازه الخشبي وهو يصيح قائلا "يا هووو.. يا غرناطة... وقت زوالكم قد حان. ستقع خرائب ما حدث في الزهراء على رأسك...الأرواح تخبرنا أن نهاية إمبراطوريتنا قد أذنت" يلف ويدور في أنحاء المدينة صائحا بأعلى صوته بهذا الكلام؛ مما أثار الرعب في قلوب أهالي غرناطة الذين كانوا يثقون في تنبؤاته لحد أنهم أخذوا في لوم ملكهم على ما فعله في أهالي الزهراء.

كان مولاي أبو الحسن يريد أن يظهر بمظهر الثقة ولكن في قر ارة نفسه مدرك تماما لما فعله وعقوبته؛لذلك بعث فقهاء من مملكته كسفراء لبلاد المغرب يدعونهم لمساعدة الإسلام بمساعدة مملكة غرناطة من الظلم الآتي لها وعليها.

وكأن الدرويش كان على حق فمنذ سمع الملك فرناندو بأمر سقوط الزهراء تمكن منه الجنون فأمر جنوده بنقل السيف والبارود للمدن العربية، وأرسل الرهبان الفرير بمختلف تنظيماتهم رسائل لأنصارهم في جميع أنحاء العالم ليستعدوا لتلك الحملة الصليبية وكان يكفي أن يطلقوا عليها "صليبية" وهدفها هو تأديب المسلمين حتى يهرع الجميع لتلبية نداء الدين المقدس، فلبى دعوة الملك أمهر فرسان العالم منهم "رون روديجو" الذي أصبح بطل تلك الحرب. كان مربوع

[1] الملك فرناندو الملكة إيزابيلا: هو فرناندو الثاني ملك أرجوان وصقلية ونابولي، وهي إيزابيلا الأولى ملكة قشتالة، تزوجا وضم المملكتين معا وخاضا حربا مشتركة ضد غرناطة ومسلمي الأندلس.

القامة بوجه أحمر وشعر ناري على وجهه آثار لجدري قديم، طيبا وحنونا مع جنوده وخصما عنيدا مع عدوه، كرّس نفسه للحرب منذ صغره وكان مركز هذا المركيز في أكثر أراضي الأندلس خصوبة ويمتلك القصور والقلاع فأقسم بأنه سينتقم لتلك الضربة الموجعة والمهينة فأمر جواسيسه بتفقد أحوال غرناطة وكشف نقطة ضعف لدكها منها فأخبروه أن أضعف مكان هي مدينة "الحمى" فهي مهملة ودون حراسة وتقع في منتصف غرناطة وبالاستيلاء عليها سيستولون على غرناطة كلها، فبعث للتأكد من هذا الكلام فارسًا يسمى "أورتيغا دي بردوا" قائد فرقة السلالم المخصوصة لمهاجمة القلاع وهو كفء بتسلق الجدران، وصل "الحمى" في ليلة بلا قمر وأخذ في تسلق جدران القلعة وهو يضع أذنيه على الجدران يسترق السمع للحراس ليتأكد من قربهم أو بعدهم ويعلم عددهم من خطواتهم وسجل كل ذلك ورحل وبعدها بعدة أيام تحركت الحملة بثلاثة آلاف خيال وثلاثة آلاف من المشاة عبر طرقات "ظريفة" الوعرة.

أخذوا يسيرون ليلًا ويختبئون نهارًا حتى لا يشعر بهم أحد وصلوا المدينة وتسلقوا حصنها وقتلوا حراسها وهم نيام ودون أي مقاومة تذكر واستيقظ العرب على صوت الجلبة ليجدوا أنفسهم في وجه عدو لا يقهر، وهكذا سقطت القلعة.

ولكن العرب لم يستسلموا بسهولة، بالرغم من أن جميع سكان المدينة من التجار والباعة فإنهم كانوا يتقنون فنون السلاح؛ لذلك وجهوا أسلحتهم على الجنود بالقلعة، حتى النساء والأطفال أخذوا في رشق المكان بالطوب والحجارة وإلقائهم بالزيت المغلي.

قاتل العرب بشجاعة في الشوارع والأسطح والبيوت وظل القتال متواصلًا طيلة اليوم حتى تقهقر العرب وتحصنوا بأحد مساجد المدينة فأشعل الأعداء النيران فيه وسرعان ما وجدت طريقها لكل مكان وشوت أجساد ووجوه العرب فتيقنوا أنهم ميتون لا محالة، أقدم البعض منهم على ميتة انتحارية والباقي استسلم لمصيره، وهكذا بسهولة وقع المدينة بأيديهم فحملوا من خيرها ما حملوا معهم وقاموا بتدمير ما لا يستطيعون حمله.

أشعلوا النيران بحوانيتها وخلطوا العسل بالزيت ومزقوا فرش البيوت ودمروا الكتب، وصل الأمر لغرناطة وخرج أهلها في عويل لأن نبوءة العراف قد تحققت وعلموا المستقبل المظلم الذي ينتظرهم، بينما لم يلتفت الملك كثيرا لهذا الأمر وظن أنهم مجرد عصابة يسهل خروجها من البلاد والقضاء عليها، وقد خاب ظنه؛ فمن وقتها والصراع الدموي بين القوتين لم ينته.

بعدها التقى الجيشان في الحمى وقد خرج الملك فرناندو بنفسه لمواجهة عدوه وللأسف تكبد المسلمون خسائر كبيرة في موت الجنود والذخيرة، وضعت راية الصليب فوق المدينة ورجع أبو الحسن أدراجه خائبا، فاستقبله أهل غرناطة بالهمز واللمز واللوم عليه واتهامه بأنه لا يجيد سوى فنون عشق النساء فكان لديه الكثير من الحريم يزور كلا منهن حسب دورها، لكن قلبه يميل لاثنتين: عائشة الملقبة بعائشة الحرة والتي أنجب منها ابنه الملك "عبد الله" الذي تنبأ له الفلكيون بسوء طالعه وأثناء حكمه سيفنى عرش غرناطه لذا كان مولاي الحسن لا يتفاءل به. وأطلق عليه البعض شيكو بمعنى الصغير الحقير والزغيب أي قليل الشعر.

أما المحظية الأخرى فكان اسمها فاطمة وأطلق العرب عليها لقب الزوراء أي شعاع الفجر لشدة جمالها، أنجب منها ولدين وكان كلما كبر في العمر ازداد تعلقه بها. وعلمت هي ذلك فباتت تدبر

ليصبح أحد ابنيها وريثا للعرش فأخذت بحنكة النساء تدبر المكائد وتزرع الكراهية في قلب الملك تجاه زوجته الأخرى وابنها عبد الله ولي العهد وشؤم الطالع وبالفعل نجحت في ذلك حتى وصل كرهه لهما بأن أمر بحبسهما في برج التجار بالحمرا إلى أن يحين الوقت ويأذن للسياف بقطع رقبته، تأكدت "أم عبد الله" بأن زوجها قد تملك منه الخرف. فدبرت خطة لتهريب ابنها من البرج، ووقف خادم تحت أسوار الحمرا في عتمة الليل وجدّلت هي الثياب وأغطية الفراش وتدلى ابنها حيث كان الفرس بانتظاره وبذلك نجحت الخطة.

كره الشعب الملك الذي عاد خائبا من حصار الحمى وعزلوه ونصّبوا ابنه بعده في الحكم. في البدء سلم مولاي أبو الحسن بالأمر الواقع لكن فيما بعد تملك منه الغيظ وخطط للرجوع مرة أخرى لقصر الحمرا فدخلها ليلا مع عدد من رجاله، تسلق سوره وقفز داخله، وبوحشية الانتقام أخذ في قطع رأس كل من يصادفه فجرت برك الدماء في كل مكان، خرج بعدها الملك ورجاله للمدينة ودارت حرب بين أنصار الأب والابن كان النصر فيها للابن الذي أحبه الشعب وحارب معه، طرد عبد الله أباه ورجاله فتراجع الملك الكهل إلى ملقا ويعد هذا اليوم هو السقوط الحقيقي لغرناطة، فقد وقعت الفتنة بين أهل المدينة وانقسموا لطائفتين مؤيدة ومعارضة وانشغلوا بقتال بعضهما عن قتال عدوهم مما عجّل بسقوطها وهكذا قدموا غرناطة لأعدائهم على طبق من ذهب بعدما تملك منهم طمع السلطة وأعمى أبصارهم.

حتى وقعت معركة "لوسيانا" وهي أشد المعارك وأقساها، ذهب فيها خيرة فرسان وجنود غرناطة لحد أنه لم يكن هناك بيت إلا كان فيه قتيل أو اثنان وقد وصل عدد القتلى والأسرى لأكثر من خمسة آلاف وشاعت الأقاويل وقتها أن الملك عبد الله قتل. كست العتمة المدينة واختفت لياليها السامرة المقمرة وأسدلت الستائر في قصر الحمراء ولم يسمع من الأكواخ والبيوت سوى الصراخ والعويل.

الشعب الذي حزن لموت الملك عبد الله في ساحة المعركة وسرعان ما تملك منه الكره والخذلان له وخاصة عندما علموا أنه لم يمت بل سلم نفسه ليصبح أسيرا للفرنجة ويحبس في حراسة مشددة بقلعة "فاينا".

الفصل الثالث

بعد وقوع عبد الله في الأسر عاد الملك أبو الحسن مرة أخرى ليحكم البلاد وتركته أمه للجنوب وكونت حزبًا من عدد لا بأس به من الشعب متضامن مع ابنها.

وفي سبيل الملك لم يخجل عبد الله أن يطلب من الملك فرناندو والملكة إيزابيلا أن يطلقا سراحه في مقابل تنازله عن غرناطة ومن جانب آخر طلب مولاي أبو الحسن منهما أن يدفع الفدية لهما ويخلص ابنه من الأسر ثم يحبسه ويحكم قبضته عليه. أصبح الملك فرناندو محتارا في أمر نفسه وفي أمرهما الغريب وغير المشرف بالمرة، فقد أصبح من السهل عليهما عقد الصفقات مع العدو في سبيل حكم البلاد. نعم هانت عليهما أرضهما وأرض أجدادهما في سبيل شهوة الحكم وسطوته؛ لذلك فكل ما حدث بعد ذلك كان متوقعا.

تأكد فرناندو من ذلك الخزي الذي يتمتع به كلا منهما وأن مصلحتهما الشخصية أهم بكثير من أمور البلاد فعقد اجتماعا مع الملكة إليزابيث في قرطبة وحضر فرسان من أقوى فرسان مملكته ليقرروا مصير هذا الملك التعيس الذي تحت قبضتهم، وفي ذلك الاجتماع اجتمعوا على شيء واحد، هذا الشيء هو طريقهم لملك البلاد وفي نخب أن "المملكة المنقسمة على نفسها لا يمكنها البقاء" طرقعوا كئوسهم. كان الملك عبد الله بمثابة ورقة رابحة لهم فقرروا أن يطلقوا سراحه على شرط أن يصبح عبدا لهما وأضاف الملك المزيد من الشروط القاسية عليه كزيادة الجزية وضرورة الخدمة العسكرية للعرب بجيشه فما كان من هذا الأخير سوى الخضوع لهذه الشروط بدون تفكير مقابل أن يساعدوه في استعادة كل المكانة وقبل ذلك كل الأماكن التي فقدها خلال أسره.

هيأوا له فرسًا أصيلا وفي صحبة مجموعة من الفرسان المخلصين غادر. وقفوا في وداعه حتى دخل قرطبة وانتشر خبر خضوعه وولائه لأنصاره من الصليبيين في البلاد فزاد ذلك من كراهية شعبه له.

دخل المدينة ليلًا متسلقًا أسوارها كلص وليس كملك إلى أن وصل إلى بوابة "البائسين" وهم الجماعة الموالية له وما زالت تناصره، ومن قصر القصبة وزعت عليهم الأموال والوعود بعودة الملك عبد الله، فما إن حل الصباح حتى حمل الرعاع البائسين السلاح لمناصرة الملك عبد الله وبذلك تحقق ما كان يرنو إليه الملك فرناندو فلم تشهد غرناطة يوما مؤلمًا مثل ذلك اليوم الأسود عندما احتشد المسلحون في شوارعها من أتباع الملك عبد الله في مواجهة أتباع أبيه وكلا منهما كان يدق نواقيس الحرب من جهته. أغلقت المحال التجارية وأقفلت أبواب الأزقة وراحت جماعات الذعر تتجول في الشوارع بأسلحتها المشهرة في وجه الجميع من المواطنين الأبرياء، تضرب من تضرب وتقتل ممن تقتل فتحولت الشوارع مسرحا للقتال.

كانت الفئة التي تناصر الملك عبد الله غير مدربة على فنون القتال فاستطاع أبو الحسن من خلال فرسانه أن يطردهم للحواري والأزقة الضيقة ولم تحصد المدينة من تلك المعارك سوى مزيد من مآسي الحروب دون انتصار أو مجد، تماما كما خطط الملك الصليبي، واستمر الحال هكذا.. قوتان تتناحران حتى ضعف مولاي أبو الحسن وذهب بصره وأصبح لا يغادر البلاد وأخذ أخوه الملقب ب"الزغل" يعد نفسه لتتويجه ملكا على البلاد، ورحل له أهالي غرناطة وكبار رجالها

وخاصة بعدما شهدته البلاد من أحداث داخلية مؤسفة مؤخرا وسرعان ما أعد "الزغل" قوة كبيرة ليواجه بها ابن أخيه عبد الله وكانت حجته في ذلك إجماع الفقهاء عليه بأنه خائن ومرتد عن دينه. ذهب إلى قصره وسأل أمه "أين الخائن؟" أجابته: "أنا لا أعرف خائنا سواك".. فأخذها أسيرة له، فالجميع كان يعرف أنها وراء كل ما يحدث وأن ابنها لا يخطو خطوة إلى بمباركتها بينما رجع الملك عبد الله أدراجه لقرطبة وبطرد الزغل للملك عبد الله توّج ملكا بعدما استمرت البلاد لوقت طويل بين ملكين، أحدهما طاعن بالسن والقسوة والآخر خائن وفار.

كان في اعتقاد أهل غرناطة أنه آن الأوان أن يصبح للبلاد ملك قوي وشجاع ولم يكن هناك أصلح من الزغل لذلك، هو الذي نال في وقت قصير محبة الناس لشجاعته في دفاعه عن المملكة وشاعت الأخبار عن إنجازاته في وضع جيشه فوق الجيوش الصليبية على مرتفعات "بن تميز" وإيقافه زحف النصارى المدمر على المدينة وكان لهذه الأخبار أثر كبير في طمأنينة أهل غرناطة وعودة الثقة لهم مرة أخرى إلا أن دوام الحال من الحال. تنفس جدي بحسرة من هو شاهد على الوجع:

لا أعرف ما أمر تلك المدينة؟ هل هي جغرافيتها التي تشبه ثمرة الرمان، غدت مدنها سهلة الفرط كحبوب تلك الثمرة؟ أم هو سوء طالع من حكموها يوما؟ فهي من جبال الانتصارات الشاهقة لكرات اليأس المتدحرجة! أصبح من العادي أن ترى ملكها اليوم متوجًا وغدا هاربًا كاللص في الجبال! تراه يوما على رأس جيش قوي ثم تكسره الهزيمة فيغدو كأرنب هارب. وهم أنفسهم لم يعرفوا يوما أين ذهب ملكهم! والأغرب أن أهل تلك المدينة كما لو أنهم قد اعتادوا على الطبيعة المتقلبة فيهتفون اليوم لملك وفي الغد يهتفون ضده بل ويجيئون بملك كانوا قد عزلوه ونفوه وينصبونه ملكا مرة أخرى. غريب أمر تلك المدينة وغريب أمر أهلها!

رشف جدي عدة رشفات من كوب الأعشاب الدافئ، كانت جدتي أعدته له ليهدئ من سعاله الذي يلازمه دوما ثم أكمل:

- وبينما كان أهل غرناطة ينتظرون أخبار انتصار الجيش من قرطبة كتلك التي حققها الزغل في مالقة فإذا بها تتبدل لأخبار من اليأس عندما وجدوا الفرسان يعودون عبر الوادي منكسي الرءوس، تأكدوا أن الهزيمة قد وقعت. أخذ الفرسان الفارون يحكون عن مهازل الحرب وكيف أن كرات النار كانت تحاصرهم من كل مكان وكيف أن المعارك كانت تدور أمام الصخور الصلبة في عتمة الليل بالإضافة لكثرة عدد عدوهم الذي كان يتربص بهم في كل مكان، كل ذلك أدى لذعر الجنود ففروا خائفين، وهكذا بين ليلة وضحاها تحول الزغل وفرسانه من شجعان ومخلصين لخائنين وفارين من المعركة ووقتها تعالت هتافات أهل غرناطة باسم ملكهم المعزول مرة أخرى باعتباره هو الملك الشرعي للبلاد "يحيا الملك الشرعي والموت لكل خائن" وذهبوا إليه في مكان مخبئه يلقون له مفتاح المدينة وكل القلاع الملحقة بها، بل وحملوه ليضعوه على كرسي العرش في قصر الحمراء بكل ما يرافق هذا الجلوس من طقوس احتفالية!

ومن وسط نوبة سعال طويلة وجافة أخرج جدي كلماته:

- ويا ليتهم ما فعلوا ذلك. لم يتوقع أحد وقتها أنه لن يمر الكثير من الزمن، وهذا المفتاح سيسلمه هذا الرجل لأعدائه الذين سيحكمون إغلاق متاريس باب غرناطة في وجه أهلها. ولكن كيف لنا أن نأتمن ملكا خائنا قدم لأعدائه الولاء وسلم لهم ملك أجداده وتاريخهم الطويل؟! هل كنا بهذه السذاجة أم كنا كغريق يتشبث بقشة؟!

كان يكفي ذلك الجزء من قصة جدي لأنه بعد ذلك كان متوقعا ما سوف يحدث؛ حروب خاضها فرسان العرب ضد الصليبيين بجد ومثابرة وبروح جهادية عالية ولكن قضى الله أمرا كان مفعولا. سقطت البلاد الواحدة تلو الأخرى حتى جاء اليوم الذي سلمت فيه مفاتيح غرناطة.

حدثني عنه أبي قائلا: "في 25 ديسمبر 1491 قام الملك عبد الله بتوقيع وثيقة استسلام غرناطة والتي بمقتضاها نقف الأعمال الحربية التي استمرت لسنوات طويلة. وبدأت الاستعدادات للتسليم والتسلّم في هذا اليوم المشهود والذي كان بمثابة خاتمة لحكم الإسلام للأندلس. شهدت البلاد أصواتا يتعالى صداها في المدى ليرج أنحاء المدينة. أصوات نحيب وصراخ النسوة وهمهمات الرجال، أصواتا بدأت تعلو وتعلو بخروج موكب الملك من القصر وهو منكس الرأس وتغرق الدموع عينيه. خرج الملك المشؤوم من البوابة تاركا لوزيره "ابن الكماشة" أمر تسليم القصر.

همس ابن كماشة للقائد العسكري للإسبان "اذهب لأخذ موقعك في الحمرا عقابًا على خطايا العرب". وفي تلك اللحظة المعتمة من التاريخ تدفقت جحافل من الجيش الصليبي، يتقدمهم الموكب الملكي لاستلام البلاد، وقد أصبحت ملكًا لهم ليرفع الملك العلم الصليبي، ويهتف الجيش "قشتالة – قشتالة – للملك فرناندو والملكة إيزابيلا، فما كان منهما إلا أن ركعا شكرا للرب غنى الجميع نشيد النصر على الإسلام على عزف الموسيقى الملكية ليرج الصوت أنحاء المكان وفي هذه الأثناء قدم الملك عبد الله مفاتيح للملك فرناندو قائلا له "هذه المفاتيح هي الأخيرة من إمبراطورية العرب في إسبانيا فيها مجدنا وتاريخنا وشخصنا وتلك إرادة الله فخذها برأفتك المعهودة". سلم الملك المفاتيح للملكة إليزابيث التي سلمتها بدورها لحاكم المدينة الفارس المخلص "دي تنديلا" وهكذا خرج الملك الذي كتب عليه الله أن يكون شقيا والذي تنبأ له العرافون بشؤم عهده وأن ملك الأندلس سيذهب على يده. سلم لهم مفاتيح غرناطة كأنه يسلم لهم مفاتيح بيته، نسي وقتها أنه بذلك يقضي على ماضي ومستقبل مملكة بحالها! كم من روح أزهقت بسببه! كم من بيوت خربت بسببه!! وكم من المدن باتت خالية على عروشها أيضا بسببه!!

وقد وقف بعدها يبكي، فنهرته أمه "ابك كالنساء على ملك لم تصنه كالرجال". توشحت النساء بالسواد ولم تعد تسمع الموشحات الأندلسية في البيوت الخربة يعد أن كانت عامرة، حتى الزيتون لم يطرح على شجره هذا الموسم.

انتبه على صوت الإذاعة الداخلية بالطائرة وهي تعلن أن الوقت الآن هو الحادية عشرة صباحا، درجة الحرارة بالخارج 15 تحت الصفر. أغلق الكتاب كمن يغلق باب الزمن، وبحرص وضع كنزه الثمين في حقيبته. أنهى إجراءات الوصول بمطار "روزيني" الدولي وعندما هم بمغادرة المكان استقبلته رياح شديدة بنتف من الثلج فأحكم لف الشال الصوفي على رقبته وارتدى قفازاته من الفرو.

اهتز الهاتف في جيبه، فتح الخط، تحدث الطرف الآخر:

- المدينة القديمة شارع 9 بناية 24 الطابق الثاني، المفتاح أسفل مطفأة الحريق بالطابق الذي تقطن به.

انغلق الخط. أخبر سائق التاكسي بوجهته.

على مرمى البصر كانت الثلوج تغطي قمم البروج في المدينة المحتشدة بالكنائس والأبراج حتى إنه صاح من جمال المشهد:

- يا الله، ما أجمل المشهد! وما كل تلك الأبراج؟

أجابه السائق الذي كان يفتح جهاز التدفئة في السيارة على درجة عالية، شعر بأنه لا يطيقها فخلع معطفه وقفازاته وقلنسوة رأسه:

- إنها مدينة المائة برج سيدي.

المباني كانت قديمة وبنيت على الطراز القوطي في العمارة. وللمدينة سحر خاص مطابق لمزاجه في المدن القديمة والتاريخية فشعر أنها متواطئة معه ، والأهم من ذلك أنها غير فائقة الترتيب وهذه المزايا هزمت ضيقه من الثلج الذي ينهمر دون توقف.

كان المنظر بديعًا حقًا تخترق الجسور نهر "فلتافا" ويربط بين ضفتيه خمسة عشر جسرا بالتمام والكمال على مسافات متقاربة ومن تحتها كانت المياه متجمدة والثلج يكسو كل شيء، الأشجار على جانبي الطريق، أسوار الجسور، و المقاعد الخشبية.

عرج به السائق في طريق آخر ليذهب به للمدينة القديمة وفي هذا الحي القديم كانت الشوارع منحدرة و البيوت متدرجة. أشار السائق لطريق يقوده للمكان الذي يريده. معتذرا بأنه لا يسمح للسيارات بدخول "أولد سيتي" فشوارعها ضيقة لحد أنها لا تسمح بمرور السيارات ومبانيها القديمة معرضة للهدم في حال مرور سيارة مسرعة فالبلدة مدرجة تحت منطقة اليونسكو للأعمال الأثرية وقد شددت المنظمة على بعض التعليمات أهمها هو عدم مرور السيارات داخل المدينة القديمة.

لم يتذمر إياد لاضطراره إلى النزول في منتصف الطريق بالرغم من الجليد الذي يحيط به من كل جانب وثقل حقيبته. شوارع المدينة القديمة الضيقة والبيوت بتصميمها المعماري وأبوابها الخشبية المتشققة بفعل الزمن كل هذه الأشياء أغرته بالسير على قدميه ليكتشف المكان ويتمتع به.

كان الهدوء يعم الشوارع المبلطة بالبازلت وبلاطها كما لو أنه منذ وضع لم يحدث أن غير أو جدد. تبدو المدينة مهجورة والصمت كثيفًا كصمت الموتى لا يقطعه سوى صوت خطواته على الجليد، كان يسير مستمتعًا بتبغه الذي أشعله وغير عابئ إن كان يسير في الاتجاه الصحيح أم لا. التقى سيدة عجوزا ترتدي كل ما طالته يدها من خزانة ملابسها تقوم بكشط الثلج من أمام واجهة بيتها، تأملته بحذر ثم اقترب منها يسألها عن البناية التي دله عليها الرجل، في البدء لم تسمعه جيدًا فأزاحت قليلًا الشال الصوفي الذي يغطي أذنيها، و تحدثت بالروسية بما يعني أنها لا تفهم ما يقوله، شكرها وعندما هم بالمضي، سمع أزيز نافذة زجاجية بالدور العلوي وهي تفتح وتطل منها امرأة دلته على العنوان الذي يريده بلغة انجليزية وأشارت له باتجاه المكان، لوح لها شاكرا فابتسمت له.

التهم البيتزا على عجل كعادته في تناول الطعام، تذكر عندما كان طفلًا صغيرًا يجتمع حول المائدة مع أسرته فتطلب منه أمه أن يمضغ الطعام جيدا قبل بلعه. اليوم لم يعد هناك أحد لينبهه أن يتوقف عن هذه العادة السيئة.

أمه كان يضايقها مجرد بلعه الطعام دون أن يمضغه جيدا، ترى ماذا ستكون ردة فعلها فيما يفعله بحياته الآن؟

كعادته دائما عندما يسافر في مهمة ينتظر أمر العمل وغالبا ما يعرف تفاصيله قبل الموعد المحدد بيومين على الأكثر حتى يملك فرصة تدبر أمره وخاصة إذا كانت العملية في مدينة يزورها للمرة الأولى لا يعرف مداخلها ومخارجها، شوارعها وأزقتها ولذلك جاءت كراهيته للمدن الواسعة الأنيقة وفائقة النظام لأنه يشعر بأنه مكشوف، واضح للعيان، أما المدن القديمة المتعرجة متداخلة الأزقة ومتقاطعة الطرقات، يصبح من السهل عليه الاختفاء فيها.

كانت السابعة صباحًا في ساعة معصمه عندما ارتدى ملابسه ونزل إلى الشارع وترك الإشارات المعلقة لمخارج المدينة القديمة هي التي تقوده وتدله على الطريق، فأخذ يتبعها حتى وجد نفسه في الشارع الرئيسي.

ودخل لكابينة هاتف عمومية دخل ليقوم بالاتصال ، أحكم غلق بابها وراءه و وضع العملة النقدية وضغط الرقم جاءه صوت الرجل الذي أعطاه العنوان:

- غدا في الحادية عشرة ظهرا في المقهى المجاور لمحطة المترو.

أغلق السماعة ، رفع ياقة معطفه وأحكم لف الشال الصوفي حول عنقه وقرر أن يتريض ويكتشف المكان حوله، وضع سماعات مشغل الموسيقى بأذنيه واستمع لمقطوعته المحببة "الفصول الأربعة" لفالفيدي، هذه المقطوعة التي تصحبه أينما جاء أو ذهب، فقد كانت تخلق به حالة من الارتياح والاطمئنان كان في حاجة إليهما دوما. وصل إلى جسر "كارل" الذي يربط ما بين الساحة القديمة والأولد سيتي "بالمالاسترانا" تحت قلعة براغ، ويعد الجسر الأشهر من بين الخمسة عشر جسرا في التشيك وفي العالم كله ويزوره الملايين من السياح سنويًا حتى تتاح لهم رؤية هذا المشهد البانورامي، التماثيل التي تحيطه من الجهتين وتشكل ما يسمي بطريق القديسين جعلت منه متحف مفتوح، خاصة أنه يحظر على السيارات المرور من فوقه فأصبح كممشى رائع حتى وإن كان في مثل هذا الطقس الجليدي.

عندما انتهى من الجسر وجد نفسه يقف بمواجهة قلعة براغ، نظر لأعلى وشعر بمدى ضآلته امامها .

كانت القلعة بأبراجها العالية تمتلك مختلف أنواع الفنون المعمارية والزخارف المتنوعة مشهدها والثلوج تعتلي قممها كمشهد في فيلم مرعب. لم يسعفه حظه بدخولها فقد كان موعد زيارتها قد

انتهى، ظل يتريض حتى وصل "للوينسيسلاس سكوير"[1] دخل أحد المقاهي، كان مزدحما ودافئا اختار له طاولة بعيدة عن فضول الأعين وطلب مشروبا من اللاتيه الساخن حتى دون أن يرفع نظره لرؤية النادلة الحسناء وهي تدون طلبه، كان مشغولًا بمتابعة أحداث العالم من جهازه اللوحي، وعندما جاءته بالمشروب ابتسمت له قائلة بدلال مصطنع:

- ألست أنت من كنت تسأل عن البناية التاسعة أمس؟

لم يكن باستطاعته أن ينفي أنه هو، وفي نفس الوقت لم يكن من عاداته إقامة علاقات أثناء المهمات التى توكل إليه ، أيًا كانت هذه العلاقات حتى وإن كانت مجرد تحية الصباح. لذلك رد عليها باقتضاب لعلها تفهم أنه لا يريد الحديث:

- ربما!

- كيف ربما؟! هو "أنت" أنا متأكدة من ذلك، ملامحك ولكنتك مميزة.

-هل أنت إيطالي؟

كانت تتحدث بإنجليزي ركيكة ومن الواضح أنها حرصت على الإلمام ببعض مفرداتها لتفيدها بعملها كنادلة وفي هذا المكان الذي يزوره السياح من شتى بلدان الأرض، ومؤكد أن معظمهم لا يتقنون اللغة الروسية.

لكثرة ما شك البعض في أنه إيطالي؛ اعتاد ذلك. الكثيرون لم يشكوا في أنه عربي ليقينهم أن العربي هو هذا الرجل الذي ما زال لا يرتدي سوى الجلباب ويمتطي ناقته في الصحراء. ببشرته البرونزية وعينيه العسليتين وقوامه الفارع وكأنه فارس روماني قديم كانوا يخمنون أنه إيطالي.

- نعم.

بالرغم من كل جوازات السفر المزورة التي يمتلكها وتعلن انتماءه لبلدان متعددة فإنه كان دومًا يشعر بانتمائه لفرنسا ويعتبرها وطنًا له، ربما لأنها البلد التي يقيم فيها ودرس وعاش بها وأيضا أحبها كثيرا وإن كانت هناك مساقط للرءوس فهناك أيضا مساقط للقلوب وكانت فرنسا هي مسقط قلبه.

كانت أنثى جميلة ومثيرة لا يستطيع رجل أيا كان أن يغض الطرف عنها، وكانت على ثقة بذلك ولهذا تركته وذهبت يقينًا منها أنه سيغير من رأيه وسيلاحقها. كان يلاحظها وهي تركض بنشاط تلبي طلبات الزبائن الذين أغلبهم يعرفونها جيدًا بقوامها الممشوق وجونلتها القصيرة الضيقة التي تظهر ركبتيها وترسم مؤخرتها الممتلئة. أشار بيده لطلب الحساب فجاءت له به:

- ما زال الوقت مبكرًا.

- تعودت النوم باكرًا.

---

[1] منطقة سياحية.

- مؤكد وجودك هنا للعمل، فالثلوج لا تغري السياح بالمجيء في مثل هذا الوقت من العام.

انفرجت شفتاه عن ابتسامه ناب بها عن إجابة لم يكن ليجيبها. عندما عادت بباقي الحساب لم تجده ولم تصدق أنه ترك لها بقشيشاً يزيد على حساب ما احتساه مرتين. تعودت على ذلك من بعض الزبائن كمحاولة إغرائها بثرائهم الفاحش لإقامة علاقة معها ولكن هذا الرجل ما أمره حتى إنه لم يحاول أن يجيب عن سؤالها!

عندما خرج كان الطقس أشد برودة مما كان عليه فقرر الاكتفاء بهذا القدر من التجول ورجع أدراجه بمصاحبة موسيقاه. جلس يدير في محطات التليفزيون يبحث عن شيء يشاهده، أي شيء ليقضي به على بطء الوقت ورتابته، ولكنه تذكر فجاءة أمر الكتاب فقام وفتحه لعل أحداثه الساخنة تقضي على ملل الوقت وبرودة الطقس.

الفصل الرابع

حدثني جدي:

وهو يضحك بسخرية تتكئ على الحزن:

- ما زال قرع الطبول يدوي في أذني ونفخ البوق فوق برج الحراسة عند وضع الصليب الفضي ورفع راية القديس ياقب. حتى وقت تسليم المفتاح كان الكثير من أهلنا يملؤهم الأمل بوصول الإمدادات ومعها نصر الله من مصر والمغرب وتركيا لمساعدة الملك عبد الله، هذا الذي تناحرت الأطراف عليه ما بين من انتخبه للحكم ومن رفضه. من انتخبه كان يرى فيه أنه شاب عادل ويكفي ما أصاب البلاد من حكم أبيه هذا الرجل الهرم الغارق في ملذاته، ولكنه ها هو الآن يقف بخنوع ليسلم للقط مفتاح الكرار، هل كان يعي وقتها ما يفعله؟

وبإعلاء الصليب الفضي تغيرت معالم المدينة. رائحة جوها، سير نهرها، طرقاتها وشوارعها، كل ما بها تحول لمذاق آخر أكثر مرارة، حتى مياه ينابيعها العذبة باتت ماسخة لم تعد سمع صوت الناي في الليالي المقمرة، ولا تشاهد الفتيان وهم يرقصون رقصة "الزمبرا"[1] تحت عرائش العنب، لم يكن ألم التسليم فقط هو الذي نحر قلوبنا، فهناك أيضا جرح مرير عندما علمنا أن أبا عبد الله قد باعنا لملك إسبانيا، لقد باع ملكه وملك أجداده! باع تاريخا طويلا بثمن بخس ثلاثين ألف جنيه قشتالي وضمان لحقه في القصور والممتلكات بألا يمسها أحد، وقتها شعرنا بأننا قطيع من الغنم تم بيعه، سعد ونصر ولدا السلطان أبي الحسن تنصرا وغيرا اسميهما لأسماء إفرنجية الوزير أبو كماشة الذي سلم مفتاح المدينة وكان شاهدا على بيعها تنصر أيضا ودخل سلك الرهبنة وكل ذلك حدث في وقت قصير.

ثم كان حصار مالقة بعد ذلك وسقوطها بعد ليال طويلة من الضرب المروع الأكثر رعبًا من صوت المدافع الذي يصم الآذان مشهد الصلبان التي تم وضعها أعلى المساجد وفوق المنازل والقلاع.

كنت أنظر حولي فكأن ثمانية قرون بالتمام والكمال قد محيت تماما، وكأن شيئا لم يكن هنا يوما، وكأن طارق بن زياد ما غزا يوما، وكأن لم تقم حضارة هنا يوما والإسلام لم ترفع رايته هنا يوما، وكأن كل ذلك كان مجرد حلم. نعم كأننا لم نكن يوما.

وبالرغم من ذلك فهذه الأرض التي حمل ثراها رفات أجدادي الأول والثاني والثالث والعاشر هي بالضرورة أرضي التي أنسب إليها مهما حدث ومهما كان.

---

[1] هي رقصة أندلسية قديمة.

الفصل الخامس

كنت في سنواتي الأولى وكان أبي يعي تماما المصير الذي تسير إليه البلاد في سرعة مذهلة، لذلك أجهد نفسه بتعليمي اللغة العربية وحفظ القرآن الكريم. كان يعقد حلقات الدين والعلم كل يوم لعدة ساعات، الدرس تلو الآخر كمن يخشى أن ينسى الناس لغتهم ودينهم، وبالرغم من أن كل شيء كان يتبدل بسرعة فائقة فإنه على عكس المتوقع تمسك العرب أكثر بلغتهم ودينهم، فمن كان لا يقرأ القرآن أصبح يقرؤه ومن كان لا يقيم الصلاة أصبح حريصًا على صلاته، ومن لم يحضر يومًا مجالس الدين أخذ يحضرها. كانوا يحاولون الحفاظ على دينهم وحماية أصولهم العربية بشتى الطرق كمن قضى ليلته وهو يحلم حلمًا جميلًا ويخشى أن يستيقظ فلا يجده ويصطدم بمرارة الواقع، وكل ذلك يحدث سرًّا ضاربين بالقواعد القشتالية عرض الحائط.

وبرغم الاحتلال وقسوته وتقشف الحياة، فقد كانت الأمور بفضل الله ميسرة في بيتنا ظل دائما مفتوحًا وعامرًا بالأهل والأصدقاء وطلبة العلم وبما لذ وطاب من الطعام. بستان أبي الذي ورثه عن جدي من الكروم في عين الدمع يدر علينا كثيرا من الرزق والمال الوفير.

لليوم لم أنس بيتنا أو روائحه، كان يتكون من صالة تفتح على حديقة غناء، ملحق بها دار للضيوف ومطبخ واسع وحمام أندلسي، وفي الطابق العلوي كانت غرف النوم. وكان هناك سرداب بمساحة الدار تخزن أمي فيه كل ما زاد عن حاجة البيت.

تستقبل جدتي صباحها بإشعال البخور ثم تجلس لتخبز فيمتلئ المنزل برائحة الخبز الشهية. أجلس بجوارها في موسم حصاد التين والزيتون.

يجمع أبي حصاد بستانه ويبيع منه ما يبيع، ثم يجلب لجدتي ما تبقى منه لتصنع منه خزينًا لعام كامل، وفي الحديقة المبلطة بالرخام تجلس تتراص حولها أواني الزرع بينما النافورة من الفسيفساء المزركش تنثر ماءها في أنحاء المكان وبكل همة ونشاط تدق حبات الزيتون بالحجر ثم تنقله لوعاء كبير وتسكب الماء المغلي فوقه ثم تعجنه وتنقيه من البذور وتهرسه بيديها وعندما يصبح الزيت عائمًا على وجه الإناء تفصله وتخزنه في الجرار، كنت ألمحها وهي سعيدة لقيامها بهذا العمل الذي يعود بها لسنوات طويلة للوراء ، تستمتع وقتها بقص ذكرياتها على تلك الذكريات التي تجلب لها السعادة وتجعلها تجلس أيامًا طويلة دون كلل أو ملل، تهرس وتعجن في الزيتون حتى تستخلص زيته ثم تنتبه للتين فتقوم بسلقه وصنع المربى منه والباقي تقوم بتجفيفه ولم تنس أيضا أن تصنع منه الشراب المحلى المسكر وتحتفظ لنا بالقليل منه بينما توزع الباقي على الأهل والجيران.

في الصباحات الدافئة أطل من شرفة غرفتي لأجد أمي وقد وضعت طعام الفطور بالحديقة يؤمنا أبي للصلاة ثم نجلس لنفطر وبعدها ينطلق كل منا في طريقه،يعمل أخي الأكبر في محل أقمشة والآخر يساعد عمي في تجارته بالعطارة بدكاكين البيازين.حتى جاء اليوم الذي مر فيه جنود قشتالة في حواري غرناطة وأزقتها يعلنون أن الملكين الكاثوليكيين "الزوجان فرناندو الثاني، وإيزابيلا الأولى" أمرا بالتنصير الإجباري لكافة الأهالي وعلى من يرفض التنصير ترك البلاد والأهم من ذلك يمنع الحديث باللغة العربية منعا باتًا!

سألتني جدتي بصوت واهن: ما معنى هذا الكلام؟!

معناه أنه لم تعد هناك أية هوية عربية وأن مصيرها للجحيم. لا كلام بلغة القرآن، لا كتابة ولا قراءة بها، لا إقامة لشعائر إسلامية. الملابس العربية سوف تمحى من الوجود وتحل محلها الملابس الإفرنجية. المواليد الجدد سوف يحولون ديانتهم إلى المسيحية.

في بادئ الأمر لم يصدق أبي ولم يصدق أحد، فتلك القوانين لشدتها وغرابتها كانت أقرب لضرب من الخيال منه للحقيقة، وفي الليل اجتمع أصدقاء أبي، كان يظهر عليهم الحزن الشديد، بعضهم قرر بيع أملاكه والرحيل، والبعض الآخر ومنهم أبي قرروا البقاء فلن يتركوا بلدهم إلا جثثا هامدة. قال أبي بإصرار:

- لن نرحل أبدًا ومهما أرغمنا حكام البلاد على تغيير هويتنا فالدم الذي يجري بأجسادنا هو دم عربي فهل باستطاعتهم تغيير دمائنا!

جدتي بسنواتها السبعين جلست تحت الكرمة ترفع يدها بالدعاء على من وضع تلك القوانين الظالمة وعلى الملك الخائن الذي سلمهم لهذا المصير، وأمي أخذت تبكي وأبي لم يغادره ذهوله.

رحل جدي منذ زمن متحسرا على ضياع غرناطة وها هي تلك القرارات وصرامتها تقضي على قلب جدتي الضعيف فمن وقتها وهي راقدة طريحة الفراش، رفضت بشدة الذهاب للتعميد في الكنيسة وقالت: أموت ولا أذهب للتنصر. ولكن عندما طرق بابنا صباح ذلك اليوم جنود قشتاليون بملابسهم غريبة الشكل وبخوذات حديدية فوق رءوسهم وساقونا كالعبيد للكنيسة لنتعمد، وقتها لم تكن تملك خيارا بأن ترفض لأنه في حالة رفضها سيتحتم عليها أن تترك البلاد وتركب سفينة تأخذها لفاس أو وهران أو حتى بلاد الواق الواق، وجدتي التي لم تغادر دارها إلا في الأعياد لوضع سعف النخيل على قبور الراحلين لم تكن لتبرح مكانها أبدا، لذلك ذهبت هي وأمي ونساء الحارة للكنيسة، وقفن بين يدي القس ليعمدهن بسكب بعض من الماء المقروء عليه آيات من الإنجيل على رءوسهن وهو يتمتم بكلمات غريبة على آذانهن كن يقفن بين يديه لا حول لهن ولا قوة والصمت والذهول يجثمان عليهن. وعند عودتهن للبيت حللن ضفائرهن ووضعن رءوسهن تحت صنبور المياه لإزالة آثار الماء الذي تم تعميدهن به، كن يفركن في شعورهن لتطهيرها.

مساء ذلك اليوم رقدت جدتي على فراشها، تملكتها حمى شديدة فارقت بها الحياة بعد ثلاث ليال من تنصيرها ماتت وهي تتمتم بصوت واهن بآيات من القرآن وبالشهادتين قمنا بتغسيلها وتكفينها على الطريقة الإسلامية وأقمنا عليها صلاة الجنازة سرًّا ثم دفناها.

أتذكر أنه في ذلك اليوم البعيد الذي ذهبنا فيه للكنيسة للتنصر رجعنا بأسمائنا الجديدة الغريبة علينا وعلى آذاننا، فجدتي "غزالة" وهذا اسمها وهي ما زالت صبية وعندما أصبحت زوجة وأمًّا فقد تبدل ليطلقوا عليها "أم أحمد" نسبة لابنها البكر أحمد كما هي عادات العرب منذ الجاهلية. تبدل اسم جدتي من "أم أحمد" ل"دونا"! كيف بالله عليهم يطلقون على جدتي دونا؟! أتذكر يومها كيف من بين كل هذا الحزن أطلت علينا الابتسامة والضحكات عندما داعبت أمي جدتي وهي تقول لها: "هيا لتناول الطعام يا دونا" ونظرنا كلنا لنجد دونا امرأة في السبعين ربيعًا تتدثر بكل ما استطاعت يدها أن تتناوله من خزانة ملابسها وأحكمت ربط المنديل من قماش الدمور الأبيض فوق رأسها وتتكئ على عكازها. كل منا كان يحاول نطق اسمه الجديد وحفظه هذا الاسم الذي أصبح لك ويتحتم عليك ألا تنطق بغيره عند سؤالك عنه، وهو الذي سيدون في أوراقك الرسمية،

إنه هويتك الجديدة. أسماؤنا تطلق علينا منذ اليوم الأول لنا في هذه الحياة فنكبر وقد حفظناها عن ظهر قلب واليوم ها قد أصبحنا بأسماء جديدة لا تمت لنا بصلة، فما معنى "أنطونيو" الذي دون لي في خانة الاسم بالوثيقة الجديدة؟! وكيف وأنا خالد وفجأة وقد أصبحت أنطونيو؟! كان كل ما في "خالد" كل الحروف العربية ومعانيها التي أحبها؛ فيه خاء الخلود، واستقامة الألف ولكن هذا الأنطونيو ماذا يعني؟!

كل منا في ذلك اليوم كان يحاول نطق اسمه كطفل صغير تعلم الكلام للتو ويحاول نطق كلمة ما جديدة وقد سمعها. أختي فاطمة أطلقوا عليها "لويزة" فكيف تكون فاطمة وبين يوم وليلة تصبح لويزة؟! كان تبديل الديانة أمرًا أخف وقعًا علينا فجميعنا يعلم أنه أمر صوري مجرد كتابة على ورق إنما الاسم فهو الذي سيذهب ويأتي معنا، لذلك أصبح من المعتاد عندما تسأل أحدًا من المتنصرين الجدد عن اسمه فإنه في البدء يخبرك باسمه الحقيقي ثم بعد ذلك يعتذر ويخبرك باسمه النصراني هل هناك من أحد ينسى اسمه؟ نعم مسلمو الأندلس. إن لم يكن نسوه فقد تناسوه.

ثم مع الوقت تبدل كل شيء. إن كان الدم عربيًا كما يقول أبي فإن الحياة لم تعد كذلك، جميع السنن النبوية التي عاش عليها أجدادي أصبحت جرمًا يعاقب عليه ليست فقط إقامة الفروض الإسلامية ولكن الطقوس التي اعتاد المسلمون هنا في الأندلس ممارستها، استطلاع هلال رمضان وهلال العيد، احتفالات العرائس على أنغام الدف. ختان الذكور، حتى الكفوف المخضبة بالحناء كل ذلك أصبح جرمًا كبيرًا يؤدي إلى معاقبة فاعله والزج به في السجن، فكيف الحال بأبي الذي لم يتوانَ عن ممارسة دروس الدين والفقه بل زاده ذلك تصميمًا وإصرارًا. نعم لقد نجحوا في إغلاق المساجد ولكن لم يفلحوا في منع المسلمين من إقامة الصلاة. خشى أبي على الأجيال القادمة وكان على يقين بأن تلك القوانين الصارمة زمنًا وراء آخر ستطمس الدين الإسلامي وستندثر اللغة العربية؛ لذلك فكر في أن يؤدي رسالته لآخر يوم في حياته. جعل أبي من سرداب بمنزلنا قاعة لتعليم اللغة ودروس العلم والدين وإقامة صلاة الجمعة. كان لمنزلنا مخرجان أحدهما يفتح على الشارع الرئيسي والآخر جانبي يفتح على أحد الأزقة الضيقة ومن هذا الباب كانت الطلبة من الرجال والشباب بمختلف الأعمار يتوافدون لتحصيل العلم والدين والمكان يتكدس بهم ويضيق عليهم لحد أنه لا موضع لقدم.

ثم جاء رمضان على عجل، جاء ليثير بنا مزيدًا من الحزن والأسى. ها قد عاد دون استطلاع هلاله ودون تعليق زيناته، دون أن تمتلئ الدكاكين بما لذ وطاب ولكن لم يستطع أحد منعنا من صيامه وصلاته بل كنا أكثر حرصًا عليهما من أي وقت مضى. كان السرداب يعج بالمصلين يأتون الواحد تلو الآخر ويدخلون دون أن يلمحهم أحد حتى أمي كانت تستقبل النسوة من أهالي الحي تعلم معلومات دينية لا بأس بها، كافية لتجيب بها عن أسئلتهن النسائية المتعلقة بالطهارة والغسل، وأحيانًا كانت تسترسل في الحديث وتحكي لهن ما سمعته من أبي عن زوجات ونساء النبي "صلي الله عليه وسلم". في هذا العام أذكر أنني لم أخيط جلبابًا جديدًا للعيد، وما نفعه؟! فالعيد الذي كنت أحبه كثيرًا وأنتظره لأردد تكبيراته وأخطو بزهو في جلبابي الجديد وأسير جنبًا إلى جنب مع والدي يسبقنا أخواي بخطواتهما السريعة لم يكن من فائدة له؛ فالصلاة قد منعت وإمعانًا في الذل منعوا الملابس العربية أيضًا، حتى إنه كان يزج في السجن أي خياط يحيكها بعد أن يعذب بشدة.

لقد أطلق علينا اسم المورسكيين ويعني المتنصرين الجدد، وتحت هذا الاسم عدة شروط لا يمكن مخالفتها، منها أنه لا يحق لنا بيع ممتلكاتنا ولا يحق لنا امتلاك سلاح أو حمله كالخناجر والسيوف ولا يحق لنا الإرث على الطريقة الإسلامية ولا يحق لنا اقتناء كتب عربية، ويجب تسليم ما بحوزتنا منها لهم، ولا يحق لنا بعد ترك البلاد أن نعود لها مرة أخرى وإلا فسيكون مصيرنا البيع في الأسواق كعبيد. قائمة طويلة من المحظورات والممنوعات وكان علينا تنفيذها.

- إنها قوانين الملكة "خوانا لالوكا" إنها ملكتنا المعتوهة والتي شاع أمر جنونها في أنحاء البلاد وقد ورثت العته عن جدتها أم الملكة إيزابيلا.

هكذا كانوا يتحدثون.

انتفض كعادته على جرس الباب. لم يكن ينتظر أحدًا بل لم يكن هناك أحد يعلم بمكان وجوده سوى الشخص الذي يعطي له التعليمات ولم يتوقع زيارته قط. كان دائمًا على حذر لذلك فكر ألا يفتح الباب ولكن إلحاح الجرس والصوت الأنثوي الذي يصيح بالخارج قائلًا:

- افتح يارجل أعرف أنك هنا.

اضطر ليذهب ليرى ما يحدث بالخارج، نظر من خلف الشراعة الزجاجية ليجد خيال المرأة التي تجاوره في السكن والتي تعمل نادلة في المقهى، ربما لم تتضح ملامحها ولكنه صوتها كما يعرفه وشعرها الأحمر المموج والمنفوش في جميع الاتجاهات. استغرب من مرورها عليه في هذا التوقيت، إن كانت تملك جسدًا مثيرًا لاتستره ملابسها الكاشفة، إلا أنه في ملامحها بعض من الوقار، يفصلها عن فتيات الليل والنادلات الرخيصات. وأمام إلحاحها لم يكن عليه سوى الرضوخ لها.

- آسفة لإزعاجك.

قالتها وهي تتأمل جسده من تحت الروب المفتوح، كان يظهر صدره العريض الذي يكسوه الشعر وعضلاته المفتولة ولون بشرته المائل للسمرة. تمسك بيديها بعض الأموال وتشير له بها قائلة:

- لقد ذهبت قبل أن تأخذ باقي المال.

- لا داعي لكل ذلك. احتفظي بها لنفسك.

حدثها وهو يقف من خلف الباب الذي فتحه بموارية.

- ألن تدعوني للدخول؟

وفي الحقيقة هي لم تنتظر أن يدعوها للدخول، فقد أزاحت الباب ودخلت. كان يتابعها وهو ما بين الاستغراب والارتياب من تصرفها.

ذهبت مباشرة للمطبخ لتفتح الثلاجة وتكتشف محتوياتها. أخرجت علبة بيرة وفتحتها وأخذت في احتسائها وهي تتجول بنظرها في أنحاء المنزل ثم خلعت معطفها.

بينما كان هو يتأمل كل ما تفعله في صمت..

- هل ستقضي الليل بطوله وأنت تتأملني؟

- اعذريني أحاول أن أستوعب تصرفاتك.

- وما بها تصرفاتي ! هل تراها غريبة مثلًا؟

- بعض الشيء.
- وسامتك كانت أقوى من أن أتجاهلها.
- لدرجة أن تقتحمي منزلي في منتصف الليل؟!

صاحت قائلة:

- أقتحم منزلك؟! ما هذا الذي تقوله؟
- إذن ماذا تطلقين على تلك الطريقة التي طرقت بها الباب وصياحك بالخارج ودخولك دون أن أدعوك؟

خلعت حذاءها وفردت جسدها على الأريكة:

- يا أله، كم أنا متعبة! لا تزد من تعبي، أرجوك أخبرني ما هو اسمك؟
- وفيم يعنيك اسمي؟

وهي تقوم بنصف جسدها وبسخرية:

- تلك الخطوة الأولى في التعارف تبادل الأسماء، ألم تسمع بها مسبقًا.
- لا يعنيني أن أعرف اسمك أو أخبرك باسمي. هناك طرق أخرى للتعارف.

ثم قام من مقعده وذهب للأريكة التي تتمدد عليها ورفعها بيده وقبض على شفتيها في قبلة قصيرة وكأنما تذكر أن يخبرها شيئًا فترك شفتيها قائلًا:

- في الوافع عندما يتعلق الأمر بامرأة جميلة لا يعنيني أن أعرف اسمها بالقدر الذي يعنيني أن أختبر طعم وعمر شفتيها.

وفجأة اقترب منها وقد أطبق فمه على شفتيها ثم تركهما مثلما قربهما فجأة أيضًا. كانت لاتزال واقعة تحت سطوة قبلته مذهولة من أمرها فلم يحدث مسبقًا وفيما مر بها من رجال أن قبلها أحدهم مثلما قبلها وعندما أفاقت من وقع قبلته سألته بصوت متهدج:

- وعلى أي شيء دلتك شفتاي؟
- لقبلتك مذاق الفاكهة الجافة ما زال لشفتيك بعض الوقت حتى تعودا مجددًا ثمرة نضرة على الشجرة.

لم تكن أفاقت بعد من وقع قبلته حتى دخلا معًا في قبلة طويلة بعدما أخبرها أنها تحتاج المزيد من القبل حتى تعود نضرة من جديد. كانت قبلة طويلة وساخنة أفضت بها لتحاول أن تخلع له الروب الذي يرتديه ولكنه توقف:

- أرجوك أنا في حاجة للنوم.

وتماما كمن تنقطع به الكهرباء على إثر فولت عالٍ انقطعت بها فأجابته بيأس:

- هل أنت طبيعي حقًّا؟! ما زلنا في البداية نحن بعد نواصل القبلات!
- سيدتي القبلة لا دخل لها بقبل أو بعد فعل منفرد بنفسه.
- إنها إذن إحدى طرقك للتعارف.
- ربما.

أخذت تلملم ما تبق من الذي بعثره فيها وبها. ارتدت حذاءها ووضعت له الأوراق المالية على المنضدة وغادرت وهي سعيدة بما فعلته، فيها قبلته، ربما ستكتفي الآن بهذا القدر من الإثارة.

- سأنتظرك غدًا في المقهى.

هو الذي يعيش دومًا على وقع الموت غير متأكد مما إذا كان هناك شعاع لشمس غد جديدة سوف تسطع على عمره فأجابها وهو يتمتم بالعربية كما لوأنه يرشو القدر لمنحه يومًا إضافيًا في عمره:

- إن شاء الله وإن كان لنا عمر.
- ماذا قلت؟
- لا عليك. لا تهتمي.. إلى اللقاء.

توجه مباشرة إلى محطة المترو، وجد المقهى الذي وصفه له الرجل. جلس كعادته في طاولة منزوية وطلب لنفسه فنجانًا من القهوة. لم يمر الكثير من الوقت حتى ظهر رجل خمسيني بشعر رمادي يرتدي معطفًا طويلًا من الجلد، تعرف الرجل عليه وذهب ناحيته مباشرة ثم جلس بعدما تبادل معه تحية الصباح بلغة إنجليزية ولكن بلكنته الروسية.

أخرج صورة من معطفة للهدف وناولها له، تأملها لبرهة تمامًا كمن تعود على فعل شيء؛ فلم يكن يعنيه: هل الشخص الذي بالصورة وسيم أم قبيح؟ طويل أمقصير؟ كل ما يعنيه أنه ليس إمرأة أو طفلًا.

- العملية صباح الأحد في الحادية عشرة ظهرًا، المكان أسفل الساعة الفلكية.
- والمال؟
- كالعادة نصف المبلغ ستجده في حسابك، والنصف الآخر بعد الانتهاء من العملية.

ثم أخرج من جيبه تذكرة للسفر وضعها على الطاولة وهو يغادر.

- ستغادر للمطار بعد العملية مباشرة.

ثم مضى وهو يتمتم له:

- حظا سعيدًا.

ابتسم إياد بسخرية. أي حظ سعيد في اقتناص الأرواح؟ أخرج الصورة مرة أخرى من جيب معطفه الداخلي وأخذ يتأمل الهدف كان رجلًا على درجة عالية من الوسامة والأناقة.ملامحه بها بعض من القسوة. ترى ماذا جنى ليدفع أحدهم كل تلك الأموال ليتخلص منه؟!

منذ أن بدأ العمل بنية الانتقام لا أكثر لم يسأل أو يهتم: ما الدافع وراء التخلص من الضحية؟ فإذا كنا جميعا في النهاية سنلاقي المصير نفسه فما الإثم في ذلك؟ عاجلًا أم أجلًا سنصبح وجبة شهية للديدان فما المانع لو عجلنا قليلا بموت هؤلاء؟ مؤكد حياتهم قد أصبحت عبئًا عليهم وهو يأتي ليزيح عنهم هذا العبء!

من منا لم يتمنَّ يوما الموت ولم يفكر يوما بالانتحار ولم يكره هذه الحياة إلى حد العمى؟ كان يمشي وهو يدخن تبغه ويفكر.

- ربما لو لم أخلصه من حياته اليوم فسيتوكل بهذه المهمة ملك الموت غدًا أو بعد ساعة أو حتى دقيقة. أليس ملك الموت هو الذي يقبض روحه في كل الحالات؟! إذن أنا لم أتعد على عمل أحد. كل ما أفعله هو مكتوب ومقدر سلفًا.

ذهب مباشرة للساعة الفلكية ليعاين الموقع الذي سيحصد منه روح ذلك الرجل الذي جاء في رحلة سياحية، ولكن أمر الرحلة السياحية في ذلك التوقيت مشكوك فيه ربما هو تمويه عن عملية ما أو عن صفقة ما. تعود ألا يحاول أن يعرف الشخصية التي يقوم بصيدها كما يحلو له أن يطلق على عمله، ولكن في أحيان كثيرة تشاء الصدف ويكتشف حقيقة الشخصية التي تم قنصها عندما تفرد الجرائد صفحاتها لشخصية القتيل والطريقة التي قتل بها ليكتشف أن جميع ضحاياه كانوا من بين سياسيين وتجار سلاح ورجال أعمال على درجة عالية من الفساد.

لذلك كان ضميره دومًا لايزعجه ولا يئن عليه. ردد وقتها في نفسه وبصوت مرتفع:

- البعض منا يملكون الضمير الغائب إنه ليس في النحو فقط، البعض منا يستطيع أن يواري ضميره خلف الكثير من متاعب الحياة وقسوتها، وحدها الحياة بإمكانها أن تنزع عنك ضميرك وتتركك بدونه. وحده قدرك وما يرتبه لك من مصادفات ومفاجأت وفجائع، قادر على أن يحولك من ذلك الفتى الذكي الذي ينتظره مستقبل مبهر لقناص مأجور متخصص في أعتى عمليات القنص والقتل، تلك التي تجعل الشرطة تدور برأسها حول نفسها مرارًا وتكرارًا غير مصدقة الحرفية الشديدة التي يتبعها القناص الذي لا يخطئ هدفه مطلقًا، وفي الغالب يقضي على ضحيته من مسافات بعيدة، والأغرب أن الطلقة تكون مضبوطة تمامًا، تأتي لترشق في القلب أو الرأس لتفضي إلى الموت في الحال، ويتساءلون عن أي ثبات أملكه؟ هم لا يعرفون أن الأمر كان بالنسبة لي هذه المقولة التي سمعتها يومًا وظلت تتردد في أذني دومًا "هي طلقة واحدة لقتل رجل واحد في ثانية واحدة".

منذ كان طفل الثامنة وهو لا يثيره في اللعب سوى المسدسات والبنادق، وليس ذلك فقط، بل كان يحكم إغلاق باب غرفته عليه ثم يبدأ في تمثيل دور الشرطي الذي يطارد القاتل تارة والقاتل الذي يطارد ضحيته في أخرى، حتى إنه كان يأتي بأكياس بلاستيكية يملؤها بصلصة الطعام أو الميكروكروم الطبي أو أي شيء لونه أحمر ويضعها تحت ملابس الدمية التي تمثل دور الضحية، ثم يصوب الطلقة باتجاه موضع الكيس فتثقبه وينسكب السائل ويملأ اللون الأحمر المكان. أي طفولة مجرمة تلك التي كان يتمتع بها؟! ولكن بخلاف ذلك كان يملك ملامح طفولية بريئة تجعل كل من يراه يتعلق به.

عندما علمت أمه بميول طفلها ألحقته بنادي الصيد المصري ليتعلم الرماية، وكان من حظه وقتها أن من يقوم بتدريب الفريق ضابط سابق في سلاح الرماية بالجيش المصري، كان يمتلك خبرة الحروب وأرض المعركة، ومنذ أن وقعت عيناه على إياد كان على يقين أن الجيش المصري سيكسب قناصًا ممتازًا. لذلك فقد عامله معاملة خاصة دونًا عن رفاقه، كما لو أنه يؤهله لقيادة معركة. فكان يوما بعد آخر وتدريبًا بعد آخر يصنع منه بطلًا لا أكثر، كان يطلب منه أن يأتي للتمرين قبل باقي الأولاد بوقت طويل ليمنحه وقتًا أطول وتدريبات خاصة. كانت العملية كلها متوقفة على عملية سحب الزناد، لا يتذكر كم أخذ من وقت ليتدرب على ذلك ويتقنه، في البدء كان يستخدم مدربه معه "السبية" لتثبيت السلاح عليها وحتى لايهتز السلاح أثناء سحب الزناد ثم تدريجيا لم يعد يستخدمه فقد فاجأته دقة ومهارة إياد في سحب الزناد بدون "سبية" تلك الطريقة التي يلزم على طلبة كلية الحربية – ليتمرنوا عليها- الكثير من الوقت، وفي النهاية لم يكن الكثير

منهم يملك ذلك الثبات والتحكم. يومًا بعد آخر كان يصدق حدس المدرب في إياد، وخصوصًا في طريقة إصابة الهدف من أول مرة وإجادة التصويب وكل ما كان يؤخذ عليه من مدربه تلك الثقة الزائدة بنفسه إلى حد تعاليه على زملائه، لم يكن يؤمن بروح الفريق، ففي القنص ليس هناك من فريق فقط، هناك فريسة واحدة لصياد واحد وكانت تلك قناعته.

هكذا في ذلك الصباح كان يسير في طريقه واسع الخطى بمحاذاة ذكرياته التي لا تنضب أبدًا. استقل "تاكسي" لموقع العملية، ذهب به للساعة الفلكية، ذلك الأثر الاكثر شهرة وازدحاما في براغ كلها. كأن المكان ينبئ عن وقع جرم ماسيحدث به تلك الذبذبات التي كثيرا ما شعر بها عند الذهاب للموقع ليقوم بمعاينته وليقرر من أي جهة تحديدًا سوف يقتنص هدفه، ذلك الإحساس بوقع الموت ورائحته التي تلف المكان.

كان هناك مجموعة من السياح يستمعون إلى المرشدة، جميعهم معلق عينيه لأعلى وهي تخبرهم "هي ثالث أقدم ساعة فلكية في العالم تتألف من 350 جزءًا في الأقسام الرئيسية الثلاثة، القسم الفلكي والتقويم الفلكي الدائري المحاط بعدة تماثيل، ونافذتان صغيرتان تحيطهما تماثيل خشبية صغيرة تمثل رسل المسيح. وتعمل كل تلك الأجزاء بانتظام ودون توقف منذ القرن الخامس عشر وحتى يومنا هذا".

غالبًا سيحضر الهدف مع مجموعة سياحية ليشاهد الساعة الفلكية وهي تعلن بدء ساعة جديدة. عادة يكون المجئ للفوج السياحي قبل أن تلتحم عقارب الساعة وسيمنعه اندهاشه وقتها بالساعة الفلكية ملاحظة أن أحدهم يتربص به وينتظره وها هو يستعد لجذب الزناد ليرسله إلى العالم الآخر.

حدث نفسه قائلًا:

- جميل أن تموت بدهشتك ولكن ليس من الموت الذي سيباغتك به قناص محترف، إنما من ساعة فلكية.

وجد أن أكثر جهة ملائمة لضرب الهدف هو أحد تلك الأبراج بمحاذاة الساعة، سيقوم بالتصويب من أعلى، ثم يتخذ طريقة ركضًا لأسفل في تلك الأثناء التي يلتف الجميع فيها حول الضحية وهم مشلولو التفكير من الذهول، و في هذا التوقيت سيذهب في طريقه بعد إتمام مهمته. كان عليه إذن اعتلاء البرج بدرجاته الحلزونية الطويلة ليجد نفسه أخيرًا فوق السطح. المنظر من أعلى خلابًا بدون شك، يحيط به التاريخ من كل جانب. كما لو أنه داخل مشهد من فيلم سينمائي أتقن المخرج فيه اختيار المكان.

حدد نقطة التصويب، وبعدها ذهب للساحة، وفي مطعم (لافراندا) طلب غذائه وجلس يراقب من هناك المشهد عن كثب، في تمام الواحدة دقت الساعة وخرجت التماثيل من حجرة فيها.

انتهى من تناول طعامه وعليه أن يقوم بالمرحلة الثانية في الخطة وهي وجود طريق الهروب الذي سيسلكه بعد انتهاء العملية. أخذ يشق طريقه للخروج من بين تلك الأماكن الضيقة والمزدحمة وعيناه كعدسة كاميرا تلتقط كل شبر مر به وتسجله. وفي طريق عودته قابله متجر

كبير يعرض الكريستال السوارفسكي الفاخر، دخل إليه وأخذ الكثير من الوقت في تأمل منحوتاته الكريستالية ثم خرج وهو يحمل معه دمية نحتت على هيئة باليرينا صغيرة من الكريستال الصافي. كان عنده انجذاب ما باتجاه راقصات الباليه ورشاقة قوامهن، حركات أجسادهن، وأصابع أقدامهن التي كأنها تحلق وحدها وأيضا نحو أحذيتهن المدهشة.

كانت الواحدة والنصف ظهرًا عندما مر من البوابة الإلكترونية لمكتب البريد، ذهب مباشرة للكونتر وسأل عن طرد باسمه، طلب منه الموظف أن يطلع على جواز سفره، وعندما تأكد من البيانات سلمه الطرد الذي جاءه في علبة موسيقية كتلك التي تحفظ فيها آلة الكامنجة. ابتسم له الرجل وهو يسلمه العلبة متمنيًا له عزفا جميلًا.

- يا لسذاجتك يا رجل! ولكن ربما تقصد عزفي في حصد الأرواح.

عندما وصل للبيت فتح سريعًا العلبة التي كان قد شحنها لنفسه قبل السفر بيومين حتى يتسنى له أن يستلمها في الوقت المناسب. من يرى العلبة من الخارج لن يشك البته في أن ما تحتويه هي آلة للكامنجة سيعزف عليها صاحبها أشجى الألحان، وهي في الحقيقة لا تحتوي إلا على "البندقية" الخاصة به وملحقاتها والطلقات المختلفة. صمم بنفسه العلبة عند أحد المصانع الخاصة، من الخارج توحي لك أنها مستديرة من أعلى ومستقيمة من أسفل تمامًا كما يجب لآلة كامنجة أن تكون، ومن الداخل صممت على قياس وشكل السلاح الخاص به.

حاول أن ينعس ولو لقليل من الوقت، وكعادته في أية ليلة تسبق العملية يحاول أن يشحن نفسه بصورة المجزرة التي حدثت لأهله لتتملك منه القسوة والتبلد فيستدعي تلك الذكرى الموشحة بالدماء من الذاكرة ويسمع صرخات أمه وتوسلات أبيه، ويرى الدماء تغسل المكان، كل هذا يأتيه من خلف جدار زجاجي سميك، جدار غير قابل للكسر.

كان مستغرقا بذكرياته فجاءه جرس الباب، فأصابه الفزع، وعندما استعاد حاضره مرة أخرى تأكد من أنها هي. تردد في فتح الباب ولكنها لم تكن تذهب هكذا، تأكد من طريقة ضغطها على جرس الباب بملاحقة وإصرار. لذا على مضض قام ليفتحه لها.

في هذه الليلة كانت أجمل من أن يرفضها، وقرر أن يلقنها درسًا قاسيا في فنون الغرام. صوتها كان يملأ أركان المدينة الصامتة كصمت الموتى. فلم يكن بالنسبة له أقسى من فعل حب لا حب فيه؛ لذلك استعمل معها كل فنون القسوة والعذاب. عندما انتهى منها أشعل تبغه وأخذ يتأملها من بين غلالة دخانه ليرى وقع فعلته عليها. كانت شبه مصدومة، لم تكن تتوقع أن يمارس معها الحب كما لو أنه في أرض معركة ينازل عدوًا لدودًا بكل تلك القسوة والإهانة، لذلك لم تعاتبه، فقط رمقته بنظرة حقيرة وهي ترتدي قرطها ثم وهي في طريقها للذهاب أخبرته:

- عليك أن تذهب لطبيب نفسي.

- هذا ما أردت وحصلت عليه رغمًا عني؛ لذلك قررت أن ألقنك درسًا.

- ولكنك لم ترفض!
- ما حدث مني كان تعبيرًا عن الرفض ولكن بطريقة مختلفة.
- لذلك أصر على أنه يلزمك زيارة طبيب نفسي. ثم غادرت وتركته.

قبل الثامنة صباحًا بقليل جمع أشياءه في الحقيبة. ارتدى معطفه وعلق العلبة الخاصة بسلاحه على إحدى كتفيه واتخذ طريقًا مخالفًا لمنزل تلك المرأة حتى لا يتعثر بها مرة أخرى فكان يكفيه ما به. ذهب لمحطة المترو وهناك قام بتأجير خزينة وضع فيها حقيبة ملابسه الصغيرة ثم ذهب مباشرة للموقع كالمئات من السياح الذين يزورون مدينة براغ لم يشك أحد فيه أثناء صعوده وهو يحمل كاميرته بيد ويعلق على كتفه آلته الموسيقية. اندس وسط مجموعة سياحية ثم سرعان ما شق طريقه باتجاه الدرج، وهناك حيث لا يوجد أحد سوى صفير الريح كان يقف. أخرج النظارة المكبرة الخاصة به ودار بها في اتجاه المكان ليكتشفه، كان لديه بعض الوقت فجلس أرضًا فاردًا ساقيه ومتكئا على دخان تبغه يرسم به صورًا لأشخاص تظهر في وجوهم ملامح أسرته القتيلة، ثم حان الوقت واستعد، جاء الهدف وسط مجموعة سياحية في حدود عشرة أفراد. من العدسة المكبرة الملحقة بسلاحه تعرف عليه، كان يرتدي معطفًا جلديًا ونظارات شمسية بالرغم من الطقس الجليدي وعدم وجود شمس! مؤكد أنه يتخفى من شيء ما، فكل من أخذ بحياتهم كان وراءهم الكثير من المصائب.

وقف الفوج ينصت للمرشدة وهي تشرح لهم تركيب الساعة وطريقة عملها وإلى أي حقبة زمنية تعود. في ساعة يده الحادية عشرة إلا عشر دقائق. حسنًا كل ما تبقي لهذا الرجل عشر دقائق فقط ليندرج تحت قائمة الأموات.

اتخذ الوضع الملائم له حتى يكون في أفضل حالة من الثبات والاتزان، في وقت إطلاق السلاح يعلم جيدًا أن نجاح العملية يتوقف على عملية سحب الزناد وإطلاق الرصاص وساعده في ذلك ليونة المفاصل التي يتمتع بها. تمر الدقائق سريعة، يقبض على سلاحه باتزان وقوة، يحاول أن يتنفس بصورة منتظمة وتلقائية، وقبل أن تدق الساعة بعدة ثوان كتم أنفاسه بعد حصوله على كم وافر من الأكسجين ليمنحه كفايته منه فيحتم عليه منع التنفس من 4-8 ثوان تقريبًا لكي يكون أكثر ثباتًا في عملية إطلاق الرصاصة. جميع رءوس الفوج السياحي كانت معلقة لأعلى بينما رأس واحد فقط على مقربة منهم ينظر لأسفل لاصطياد هدفه.

انطلقت الرصاصة بالتزامن مع دقات الساعة لتصيب قلب الرجل مباشرة، لم يلاحظ أحد أن أحدهم قد خر صريعًا ووقع بينهم؛ فالجميع كان يتابع بذهول عرض الساعة الفلكية. وضع سلاحه سريعًا في علبته وهبط الدرج، وفي أثناء هبوطه كان الجميع ملتفين حول جثة رجل خمسيني تنزف بغزارة، رجل كان يقف منذ قليل يراقب عقارب الساعة وهي تلتحم، رجل بنظارات شمسية ورابطة عنق أنيقة. شاهده حارس البرج السمين وهو يركض، حاول أن يوقفه عندما شك فيه ولكن إياد لم يصغ له وواصل ركضه وعندما شعر بأن الرجل يلاحقه بدأ يركض بأقصى ما في وسعه ومن طريق لآخر وشارع لآخر وجد نفسه في شارع مشهور هناك بضيقه حتى إنه لا يسمح بمرور سوى شخص واحد فقط؛ لذلك وجد إياد نفسه وقد حشر فيه؛ فأخذ يسير بجانب

جسده وببطء شديد، وكانت هذه فرصته ليتخلص من ملاحقة الحارس السمين الذي لم يكن حجمه يسمح له بأن يمر في هذا الشارع الضيق.

ذهب بعدها مباشرة لمحطة المترو وأخذ حقيبته ثم سلم مفتاح الخزانة للموظف ومن محطة المترو اتجه للمطار. استعمل هناك كابينة هاتفية وطلب رقمًا ولم يتفوه للطرف الآخر إلا بكلمة "تم".

وأثناء وجوده بالطائرة أخذ يفكر في الذي "تم" كان الضحية ينظر لأعلى منتظرًا أن تدق الساعة لتعلن توقيت موته في تمام الحادية عشرة. عندما كان توقيت تصويب رصاصته في اتجاه قلبه لتخترقه مباشرة. أي مصير تعس كان ينتظر هذا الرجل؟ على أي حال لم يكن أتعس من المصير الذي لاقى أسرته "أبوه وأمه وثلاثة من إخوته" يتذكر جيدًا صراخهم أمام الرصاصات الطائشة التي اغتالت براءة طفولتهم. لطالما كانت قائمة اغتيالاته لرجال على قدر كبير من الفساد، ولكن ما الذي جنته أسرته الصغيرة لتغتال؟! على رائحة عطر مثير للمضيفة الجميلة أفاق من ذكرياته سألته:

- قهوة أم عصيرًا؟

لم يجبها إلا بيده يعني الرفض، فلم يكن يملك أية شهية. هكذا اعتاد بعد الانتهاء من مهامه. لا يريد إلا أن ينزوي في جانب من ذاكرته ليخفف وطء أفعاله وجرمها. وليبرر لنفسه أن الروح التي حصدها اليوم هي انتقام لأرواح أهله التي اغتالها "القناص الأمريكي" وجلس يستكمل ما بدأه من قراءة في ذلك الكتاب.

الفصل السادس

غرناطة وقتها كانت تعد هي الثانية بعد قرطبة من بين مدن العالم كلها التي يقتني أهلها الكتب، وكان أبي يقتني عددًا من الكتب في مختلف العلوم من فقه ودين وأدب ويخبئها في صناديق كبيرة في السرداب، وزاد عليها كتب أصدقائه ومعارفه، كانوا يتركونها عنده ليحفظها لهم في سردابه الذي كان في اعتقاد الجميع أنه لن تطأه قدم أو تطول مفتاحه يد، وهكذا أيضًا كنا نظن نحن حتى في هذه الليلة من العشر الأواخر للشهر بليلة القدر عندما اقتحم المنزل عدد من الجنود كانوا يضمرون أينما مروا حقدًا وكرهًا لا مثيل له. صرخت فيهم أمي فزعة وهي تجلس وسط مجموعة من النسوة:

- ماذا تريدون؟ ولماذا أنتم هنا؟

ولم يجبها أحد، انقسموا إلى فريقين: أحدهما توجه مباشرة للسرداب وكمن كان على يقين بوجوده، أزاحوا السجادة العجمية التي كانت تخفيه ورفعوا بابه لأعلى ثم هبطوا درجاته، تعالى صوت الهمهمات والصياح ثم صوت قوي للطلقات النارية. الفريق الآخر بقي ليغتصب النساء، ركضت منهن من أفلحت في ذلك والتي لم تفلح فقد استسلمت لمصيرها.

كنت بالأعلى راقدًا على الفراش متعبًا من صيام ذلك اليوم؛ فقد كان طقسه شديد الحرارة وكنت أنتظر المغرب بفارغ الصبر حتى تمتلئ معدتي بما لذ وطاب من طعام واستسلمت بعدها لنوم طويل لا أعرف كيف؟

كأن شيئًا ما قد حدث لي، شيئًا من تلك الأشياء التي تحدث بدون أن يكون للإنسان دخل فيها، ولولا أن كان للعمر بقية لكنت أشارك يومها أبي مجلسه.

على صوت صراخ النسوة استيقظت ولم أكن أعرف ما الذي يحدث تحديدًا، انتابني فزع كبير وكنت أقصر من أن أطول الدرابزين لأطل بنظري وأشاهد ما يدور بالأسفل، فنزلت درجتين وانكمشت على نفسي كالجرذ المذعور؛ لأشاهد من بين القضبان الخشبية للدرج منظرًا لم تنسه ذاكرتي يومًا مشهد أمي وأختي وعدد من النسوة وهن يتعرضن للتحرش والاغتصاب. بينما هناك صوت كما لو أنها معركة تحدث بالأسفل، عيناي رفضتا أن تستكملا المشهد؛ فأغلقتهما وخبأتهما بكفيِّ الصغيرتين حتى لا تريا ذلك. أغلقتهما بشدة على صورة الرجل الذي اغتصب أمي حتى حفرت صورته بذاكرتي. كانت يده تعبث بأنحاء جسدها الضعيف وهي كانت تلكزه وترفضه، فضربها على رأسها ضربة أودت بروحها، ثم ذهب لأختي التي قاومته في البدء ثم استسلمت له. صعدوا من السرداب بعدما أنهو حياة كل من كانوا به وأخذوا يتحدثون بلغتهم التي كانت غريبة على مسمعي آنذاك ثم خرجوا جميعهم. الرجل الذي كان يتحرش بأختي رفض أن يتركها فلم يكن قد فرغ منها بعد فجذبها من شعرها وراءه وخرج بها.

قبل مغادرتهم البيت صعد ثلاثة منهم للدور العلوي ليتأكدوا أنه لم يعد أحد هناك، عندما سمعت خطواتهم تقترب ركضت بسرعة وفي صندوق خشبي كبير جاء مع أمي وهي عروس وبقي كما هو من يومها في أحد أركان الغرفة كانت تضع فيه الأشياء الغالية؛ أثوابها الحريرية وأغطية رأسها المطرزة وزجاجات عطرها. فتحت الصندوق وانزلقت بداخله مختبئًا بين الثياب، مر أحد

الجنود ورفع الغطاء ونظر داخل الصندوق ولكنه لم يلمحني وإن لم أكن قد مت من الرصاص فكل دقيقة كانت تمر عليَّ وقتها كنت أموت فيها من الذعر والخوف، كانت دقات قلبي تقرع كطبول إفريقية من الخوف. لا أعرف كم من الوقت بقيت حبيس الصندوق أخشى فتحه والخروج منه بالرغم من تأكدي أنه لم يعد هنالك أحد، فقد مات من مات ورحل من رحل وبقيت وحيدًا وأخيرًا كنت قد قررت الخروج فأزحت غطاء الصندوق وأطللت برأسي، لم يكن هناك سوى سكون رهيب وصمت مطبق، خرجت وهبطت الدرج الخشبي، كان الظلام يعم المكان إلا من ضوء خافت ينبعث من السرداب المفتوح والفوضي في كل مكان فلم يعد هنالك شيء في موضعه. وببراءة الطفولة حزنت لأن أمي سوف تغضب من كل هذه الفوضي وهي فائقة الترتيب والنظام، وتساءلت: ترى ماذا سيكون رد فعلها إن هي رأت ذلك؟! ولكن أين هي أمي؟ فلم يبق منها سوى ذلك الجسد المسجي الذي تعثرت به أول ما انتهيت من الدرج، هذا الجسد الذي دافعت عنه بضراوة حتى لا يمسه هذا الجندي القشتالي القبيح. كنت أسمعها تسبه وتلعنه وهي تلكمه وتلكزه فانهال عليها الرجل بالطعن بخنجره في جميع أنحاء جسدها، أنهاها بضربة قوية على رأسها بعصا غليظة أفاضت روحها، وها هي ترقد جثة هامدة ولكنها جميلة، حتى في موتها! وعدد من النسوة يرقدن بجانبها بعد أن قتلن غدرًا.

كان المكان عبقًا برائحة الدماء والموت، فشعرت بقُشَعْرِيَرةٍ من البرد والخوف تسري بجسدي كله وانتابني إحساس بالغثيان. رقدت فوق جسد أمي أبكي بكاء مريرًا وأهزها وأنا أصيح فيها:"استيقظي... استيقظي" ولوهلة شعرت أنها تبتسم لي. نعم لقد انفرجت شفتاها قليلًا عن ابتسامة أقسم أني رأيتها تبتسم.

كان جسدها باردًا كالثلج فسحبت غطاء الكشمير من فوق المقعد ودثرتها به. أمرأة جميلة كانت أمي، وأختي وحدها هي التي ورثت هذا الجمال. وكانت رشيقة القد ،عندما تضحك يشع النور من وجهها ترتدي لباسها الحريري المطرز بفصوص اللؤلؤ والألماس، تطلق شعرها كشلال وراء ظهرها، تتمايل في خطواتها بدلال ونعومة، أحبها أبي كثيرًا ودللها بالرغم من أنه كان رجل دين ورعًا وحازمًا، فإنه عندما كان يجلس معها يصير إنسانًا آخر، يربت على كتفها، يملس على شعرها، ويداعبها بحنان.

أطللت برأسي الصغير في السرداب، كان المشهد كافيًا بأن يصيبك بالذهول الأبدي. الجثث وقد تراكمت الواحدة فوق الأخرى، أفواه مفتوحة وعيون شاخصة وطعنات بالقلب والظهر وعدد لا بأس به من الرءوس المفصولة ربما هي للذين قاوموا ببسالة. لم أستطيع أن أهبط الدرج؛ كان يكفي ما شاهدته لأنزوي في ركن قصي من الصالة وأدفن رأسي بين ركبتي وأبكي هنا على مقربة من أجساد عائلتي جميعها؛ أبي وأخويَّ الذين ترقد أجسادهم بأسفل، وأمي المتدثرة بغطائها هنا، بينما أختي لا أعرف إلى أين ذهبت وتركتني وحيدًا؟ كثيرًا ما تساءلت بعقل طفولي لا يعي شيئًا: لماذا تركتني وحيدًا وهي كانت أكثر طيبة وحنانًا؟! أتذكر كيف كانت تحملني وتهدهدني حتى أنام وكيف كانت ترفعني على إحدى كتفيها وتسير بي وسط بساتين غرناطة نلقم العنب والتوت المتدليين من فوق العروش.

- تراك أين أنت الآن يا أختي؟!

بعد اختفائها كنت أسمع البعض يقول: لأنها جميلة ربما تكون قد ذهبت هدية للبابا أو لأحد رجال البلاط أو ربما قتلوها بعد أن فرغوا منها. كان الكثير من التساؤلات يذهب ويأتي بي لمصير أختي الذي شاء القدر ألا أعرفه أبدا.

بعدها لا أعرف ما الذي حل بي، فقد استيقظت لأجد نفسي راقدًا على فراش نظيف ومحاطًا بعدد لا بأس به من النسوة وكأنهن كن في انتظاري حتى أفيق، أدرت عيني في أنحاء المكان، لوهلة ظننت أنه بيتي وبحثت عن وجه أمي بين النسوة فلم أجده، تذكرت المأساة التي حدثت فدخلت في بكاء طويل، ثم صاحت النساء وقت استيقاظي: "حمدا لله، لقد استفاق" كانت أعينهن مليئة بالشفقة عليَّ وبعدها علمت أني في بيت عمي سليم.

عندما جاءهم خبر الحادث ذهبوا للبيت فوجدوني متسمرًا على حالي لا أنا بالحي ولا بالميت لدرجة أن الكثيرين ظنوا أني مت من أثر الصدمة. تبدل كل شيء بعدها فلم أعد وقتها صبي الثالثة عشرة؛ لقد أضافت تلك المأساة لعمري عشرات السنين. في البدء كان لا حديث للحي إلا عن تلك الحادثة البشعة ومع الوقت تناسوها؛ فجرائم جنود قشتالة كثيرة ومتعددة، في كل يوم كان هناك حادث جديد لا يقل قسوة عن حادث عائلتي، ولكن هذا الحدث كان بالنسبة لي سقف الألم والحزن أعترف أني بعدها لم أعد أتأثر بأي خبر حزين أو حادث يقع، ربما أحزن لبعض الوقت ثم سرعان ما ينتهي كل شيء. نعم كل شيء كان هينًا مقارنة بما حدث.

عدد من أهالي الحي لاموا أبي وحملوه مسئولية ما حدث لأنه لم يعر القوانين اهتمامًا ولم يبال بظلم الحكام الجدد وعرض نفسه ومن معه لتلك المجزرة الوحشية، في حين كان يراه البعض بطلًا قابضًا على دينه وقيمه ودمائه العربية.

إمعانًا في الإذلال وصلت فرقة خاصة لحرق وإتلاف الكتب التي كانت تضمها مكتبة أبي بالسرداب، فبعد أن شيع عمي وأهالي الضحايا الجثث لمثواها الأخير، وفي طريق عودتهم إلى المنزل وجدوا النيران تشب من جميع جهاته حتى أتت عليه تمامًا لم يتبق منه شيء وبات يطل بوجه أسود قبيح ليجتر معه ذكريات أليمة شاهدة على جرم ارتكب فيه. بعد ذلك الحادث لم يدخله أحد، وأصبحت الغربان والبوم والخفافيش هم سكانه الجدد. راجت الشائعات بأنه سكن بأرواح من قتلوا داخله فكانت تسمع فيه أصوات صياح وصراخ وأرواح تزمجز لحظة قبضها، بعدها لم أفكر حتى في المرور تجاهه وإن حدث فكنت أدير رأسي للجهة الأخرى ليس فزعًا، ولكن حزنًا على ما أصبح عليه.

علمت فيما بعد أن أحد جواسيس الحي والذي كان يعمل مع جنود قشتالة وشى بأبي ودلهم على وجود السرداب. كان هناك عدد من الجواسيس معروفين في الحي، فهم أول من ذهب للكنيسة للتعمد وسارعوا لتبديل أسمائهم وواظبوا على الذهاب للكنيسة لأداء الطقوس المسيحية وسرعان ما ظهر عليهم الثراء المفاجئ.

هؤلاء الجواسيس كانوا يتخذون لغرضهم القذر بعضًا من الأولاد الصغار عملاء لهم فيجذبونهم بقطع من الأموال والحلوى والهدايا ويطلبون منهم أن يطلعوهم على أسرار وأخبار الحي من أصدقائهم الذين يذهبون ويجيئون معهم، وبسذاجة الطفولة كانوا يخبرون هؤلاء الجواسيس

بأسرار بيوتهم فيطلعونهم على الذي لا يزال يمارس طقوسه في الخفاء والذي يخفي الكتب؛ فالاحتفاظ بها كان جرمًا لا يغتفر لأنها ذاكرة شعب وشاهدة على عصر كان هنا يوما، وهم يريدون أن يمحوا كل ذلك بممحاة، ومن وقتها لم تعد المطابع تدير آلات الطباعة إلا لطبع كتاب يسمى القائمة العربية بالحروف القشتالية للراهب "بيدرودي الكا" لتعليم القساوسة الحديث مع العرب المتنصرين وتعليمهم مبادئ وعقائد ديانتهم الجديدة.

أغلق الكتاب وهو يتساءل أي تقاطع في الأقدار هذا وكأنه يقرأ قدره هو لا أكثر! أيعقل أن تتكرر قصة حياة أحد بعد مرور كل هذا الزمان وكأن الزمن أعاد إنتاج ذات القصة في طبعة جديدة وبكل تفاصيلها المتشابهة حتى لو أنها واحدة!

استقبلته باريس بجوها الضبابي البارد، وعلى أي حال برودة طقسها كانت أرحم بكثير من طقس براغ. توقف به التاكسي أمام بنايته ثم أدخل الكود السري على لوحة المفاتيح وصوت تكة يفتح بعدها الباب، أدار ماكينة جهاز القهوة وذهب ليضع جسده تحت الماء الساخن وبعدها استلقى على الأريكة يتناول قهوته ويتابع الأحداث على جهاز "الآي باد" الخاص به، في مواقع البحث الإلكترونية كتبَ يبحث عن حادث وقع اليوم بمدينة براغ.

أسفر بحثه عن الكثير من الروابط، وكلها تعرض صورة للرجل وهو يفترش الأرض فاردًا ذراعيه وساقيه كطائر يشرع الطيران في اتجاه العالم الآخر."جورج براند" إنجليزي الجنسية في الخامسة والخمسين من عمره. في كل ذلك لم يكن يعنيه سوى مهنته، كثيرا ما كانت المهن المثيرة للشبهات هي السبب ليدفع هؤلاء الناس كل تلك الأموال للتخلص منهم، ولكن خاب ظنه عندما علم أن ضحيته لم يكن رجل أعمال انتهازيًا أو سياسيا فاسدًا أو تاجر سلاح كعادة ضحاياه. إنه طبيب تجميل شهير بلندن من هؤلاء المتخصصين في تجميل الوجوه لترضي أصحابها فترى ما سبب أن يدفع أحدهم أموالا طائلة للتخلص من جراح تجميل؟! هل مثلا قصر لإحداهن أنفها أكثر مما تريد أم نفخ لأخرى شفتيها حتى جعلها تبدو كمسخ بشري؟ ذهبت وجاءت به الأسئلة. في العادة لم يكن ليهتم بالشخص الذي قتله، ولكن هذا الرجل أوجد فيه تلك الربكة الداخلية وأثار فضوله لمعرفة سبب قتله. النتائج كلها أشارت إلى أنه طبيب ناجح وشهير ومخلص في عمله، فما الذي وراء الأمر إذن؟

مؤكد هي امرأة فهو جراح تجميل ناجح وشهير والنسبة الكبرى من عملائه من سيدات المجتمع الراقي اللاتي يبحثن عن الرشاقة والجمال. فربما يكون أقام علاقة مع إحداهن وعندما اكتشفها زوجها رتب لقتله؟ ولكن من هذا المجنون الذي يدفع كل تلك الأموال ليتخلص من عشيق زوجته؟ بإمكانه أن يشعل منزله أثناء نومه أو يدهسه بسيارته أو أي شيء من هذا القبيل.

دومًا يريد أن تكون ضحاياه على هذا القدر من الفساد والعفن حتى لا يشعر بتأنيب الضمير ويستمد من ذلك مبررًا لائقا للقتل؛ لذلك أخذ يفتش عن كل ما يمت لهذا الرجل بصلة في صفحته الشخصية على موقع التواصل الاجتماعي الفيس بوك. كان يضع صورة له هو وأسرته الصغيرة، زوجته على درجة كبيرة من الجمال ومن الواضح أن جمالها طبيعي ولم تستسلم لمشرط زوجها، ابنته تحمل ملامح مشتركة ما بين الأب والأم، بينما الشاب يظهر كجنتلمان إنجليزي، صورة كمثل الكثير من الصور التي يلتقطها أصحابها ليضعوها على هذه المواقع الاجتماعية ، تشي بالكثير من السعادة ولكنه وحده يعلم أن وراء تلك الابتسامة يكمن الحزن. أغلق الجهاز وتمدد على الأريكة بعدما طبعت تلك الصورة في مخيلته. يفكر في رد فعل أسرة

هذا الرجل بعدما تعلم نبأ اغتياله. أية صدمة تلك ستقع عليهم؟ لكن منذ متى وهو يعنيه أمر ضحاياه؟ فقط كان كل ما يعنيه أن ينفذ مهمته بنجاح، لذلك وضع إبرة الجارامفون على أسطوانة الفصول الأربعة وشغل الصوت على أعلى درجة وأشعل تبغه.

في انتظار أن يفتح البنك جلس يتناول قهوته على المقهى بساحة الشانزليزيه وهو يطالع جريدة الصباح، في زاوية بصفحة الحوادث كان خبر عن حادث أمس ومرتكبه الذي لم يترك أي أثر وراءه أو أي دليل يقود إليه، ورجح خبراء الجرائم أن وراء الحادث القناص نفسه الذي يقوم بقتص ضحاياه من المرتفعات بكل الدقة والثبات، فهو على درجة كبيرة من الموهبة، ومن خلال معاينة الرصاص المستعمل في القتل أثبت أنه من نوع الرصاص الذي يتركه خلفه كل مرة بجوار الضحية، فلم يكن يستخدم سواه. ثنى الجريدة ووضعها كما كانت وكأنه لم يقرأ شيئا وكأن هذا القناص لم يكن هو، وبمنتهى الثقة وبخطوات ثابتة اتجه للبنك وتأكد أن المبلغ المتفق عليه وُضع بحسابه.

كان الجو صقيعي يغري بالتريض وأشياء أخرى، فأخذته قدماه حتى وصل لدار الأوبرا، وهناك لمح إعلانًا عن عرض مسرحي بدار الأوبرا يحمل اسم "الباليرينا الصغيرة" ولأن لديه هذا الولع بهذا الفن وبالفراشات اللاتي تؤدينه كالرسام الفرنسي (ديغا) الذي لم ترسم يومًا فرشاته غيرهن. أخرج تليفونه المحمول وضغط على رقم.

- صباح الخير.

جاءها هاتفه أثناء شرحها الدرس لتلاميذها. اهتز الهاتف بجيب تنورتها وشاهدت اسمه الذي يصاحب صورته على شاشة هاتفها. لم تستطع مقاومة ابتسامته المغرية التي تحبها كثيرا فكسرت القواعد الحازمة التي فرضتها المدرسة في استعمال الهواتف المحمولة أثناء اليوم الدراسي وجاءه صوتها فرحًا به:

- هل أنت هنا؟ متى حضرت؟

- بالأمس. أكلمك للتأكد من أنك غير مرتبطة هذا المساء.. هنالك عرض مسرحي بدار الأوبرا وحصلت على تذكرتين لنشاهده معًا.

أجابته بلهفة:

- وإن كنت مرتبطة سألغي كل شيء.

خرجت الكلمات مرة واحدة لتشي بمدى شوقها إليه.

- حسنًا العرض يبدأ في الثامنة، سأكون بانتظارك في السيارة أسفل منزلك في السابعة والنصف.. إلى اللقاء.

كانت تعلم أنه غريب الأطوار، لذلك عوضًا عن مناقشته في جدوى مشاهدة عرض مسرحي بعنوان "الباليرينا الصغيرة" قضت يومها في التبضع لهذه الحفلة. بعد انتهاء العمل ذهبت لمتجر شهير يقدم تخفيضات كبيرة، ومن هناك اختارت حذاء أسود عالي الكعب و"برتفيه" بسلسلة

ذهبية وحلية للشعر بفصوص من الألماس كانت تريد أن تبدو في قمة أناقتها فهما نادرًا ما خرجا معًا وحرصت هذا المساء على أن تقف أمام المرأة أكثر من المعتاد لتبدو أكثر جمالا. عندما رآها أطلق صفيرًا إعجابًا بها. ضمها له وهمست بأذنه:

- اشتقت إليك.
- وأنا أيضًا.

لم يكن يقل جمالا وأناقة في بدلته الزرقاء ماركة "جورج أرماني" وساعته بفصوص الألماس التي تبرق بيده ويفوح منه عطر قوي وجذاب.

كانت تراقبه وهو يقود السيارة بملامحه الجامدة وبحركة عينيه التي تحبها عندما يضيقهما ويدخل في تفكير عميق. خشيت أن يفلت منها ويذهب إلى هناك بأفكاره فسألته:

- ولكن لماذا هذا العرض المسرحي بالذات؟ كنت أفضل لو ذهبنا لمشاهدة فيلم سينمائي.
- أحداث العمل مستوحاة من قصة "الباليرينا الصغيرة" تلك المنحوتة التي نحتها ديغا لإحدى راقصات الباليه. فتاة لا يزيد عمرها على أربعة عشر عامًا كثيرًا ما لفت نظري وشدني ذلك العمل. كنت أقف إليه وأتأمله وخاصة أن الفنان صنع التمثال كما لو أن الفتاة تقف أمامك تمامًا وليس ذلك فقط، فهو صمم ملابس الباليرينا من قماش التل والشاش وصنع لها شعرًا مستعارًا من الشعر الحقيقي ولم ينس حذاءها الستاني وردي اللون فجعل المشاهد يصاب بدهشة من شدة محاكاة هذه القطعة الفنية مع الواقع وكأن الفتاة تقف أمامك مجهدة من شدة التمارين التي لا تقوى عليها مراهقة صغيرة. إنه ديغا الذي من شدة افتتانه بهذا النوع من الفن وبهؤلاء الفتيات قال:"أتمنى لو أستطيع أن أضع قلبي في كيس حريري وردي وأخيطه وأعلقه معهن ليصبح مثل أحذيتهن". لذا عندما علمت أن قصة العمل مستوحاه من واقع حياة هذه الفتاة ماري فان تشوقت لأشاهده.
- أعتقد أنك شوقتني أيضًا.

كانت الأوبرا مزدحمة لكثرة العروض بمسارحها المختلفة، الكل في كامل أناقته التي تفرضها عليه فخامة المبنى. العرض كان ممتعًا لحد أنهما طوال الوقت لم يتحدثا معًا، اكتفيا بتبادل النظرات في المشاهد الأكثر جمالًا وتأثيرًا. تحكي المسرحية قصة حياة الفتاة المأساوية عندما كان فريق رقص الباليه يتكون من فتيات الطبقات الفقيرة، لم يكن من اللائق وقتها أن تنضم إليه فتيات الأسر الفرنسية الراقية، وكانت هذه الفتاة واحدة من بين ثلاث شقيقات انضممن للفرقة، ولكن أمهن بعد فترة سحبتهن منها لتزج بهن في ممارسة الدعارة. وقتها كان ديغا الفنان التشكيلي المهووس بهذا النوع من الفن وبهؤلاء الراقصات يذهب ليرسمهن في كواليس المسرح، علم بقصة الفتاة فقام بمنع أمها من زجها في هذا الطريق وساعدها لتعود مجددًا لدروس الرقص، وفيما بعد أصبحت من أشهر راقصات الباليه في فرقة أوبرا باريس والفضل يرجع لديغا. وربما

كان أجمل ما في العرض نقل المشاهد رأسًا لهذه الفترة الزمنية بفضل لوحات ديغا التي كانت مرجعًا أساسيًا اعتمد عليه مخرج العمل.

من كان في استطاعته أن يشك في أن هذا الرجل الوسيم الذي يتابع العرض الراقي بكل هذا الشغف هو الذي كان بالأمس يقنص روحًا في بلداً آخر؟!

هو نفسه لم يصدق ما فعله العرض به ، الموسيقى والتابلوهات الراقصة، الإبداع وحده كان قادرًا على إضاءة تلك البؤرة المعتمة في الروح والتي تضاء مجددًا عندما يلامسها شيء جميل مترفع عن تفاهات الحياة وبؤسها؛ لذلك كان وجهه باسمًا على غير العادة في طريق العودة وهو يسألها:

- هل أعجبك العرض؟
- جدًا ولكن غريبة! هذه المرة الأولى التي أشعر فيها أنك سعيد حقا.
- نادرا ما ينتابني هذا الإحساس. السعادة كعصفور على الشجرة لا يمكنك الإمساك به أو الركض وراءه.

رفض دعوتها له لقضاء الليلة معها واعتذر قائلا:

- لا أظن أننا سنقضي وقتا ممتعا وأنا سعيد. لأمنحك متعة يجب أن يكون بي شيء من حزن، شيء من ألم، ووقتها فقط يكون في استطاعتي أن أفرغهما فيك وأمنحك من متعة بقدر ما أملك منهما. أما عن السعادة فلا أريد أن أفرغ منها، أريد أن أحتفظ بها بداخلي لأطول وقت ممكن لأنها لحظات هاربة وعلى كل فهي تحفز بي القيام بأشياء أخري.
- مثل ماذا؟
- كالركض.. كالرقص.
- إذن دعنا نرقص.

قالتها بتوسل وهي تضغط على كفه المسنود على المقود فامتثل لأمرها ففي النهاية هو يشعر بأن لا ذنب لها في أن تتحمل رجلا يحمل معه كل ذلك التضاد وغرابة الأطوار في طباعه.

كانت تبحث عن أسطوانة لتديرها ويرقصا عليها عندما فاجأها بمقطوعة موسيقية على جهازه المحمول لا يريد أن يرقص إلا عليها. نوع غريب من الموسيقى على أذنيها، ولكنها كانت الأقرب إلى قلبه وروحه، إنها الموسيقى التي ترجع به إلى أصوله الصعيدية حيث قدم أبوه يومًا من تلك القرية الصغيرة التي تسمى "البداري" والتي كان يزورها معه في المناسبات والأعياد يتذكر جيدًا جدته وعماته بزيهن الصعيدي الذي يسمى "ملس"، تلك العباءة السوداء بثنياتها الكثيرة، واسعة وطويلة حتى إنها تفترش الأرض وتغطي المرأة بأكملها. يتذكر أيضًا الطول الفارع والقوام الجاف لجدته وذلك الوشم الأخضر على ذقنها. يتذكر المأدبة التي كانت تقيمها ترحابًا بهم والطواجن الفخارية من اليخني والأدوسية والخبز الشمسي الذي تخبزه جدته وتتركه ينضج في الشمس. نعم يتذكر كل تلك المأكولات طيبة الطعم التي كانت جدته وعماته يجدن صنعها وقتما كان الطاجن الفخاري الكبير يوضع بمنتصف الطاولة ليشبع ويكفي جميع الأفواه والأيادي الممتدة إليه.

ألقى بمعطفه على الأريكة وفك رابطة عنقه ووقف مشرعًا ذراعيه الاثنين للريح كما لو أنه على وشك التحليق. يتمايل يمنة ويسرة بأنفة وبهاء الرجولة الصعيدية، على الصوت الشجي للمزمار مد يده وسحبها إليه لتشاركه الرقصة بالرغم من أن الموسيقى كانت غريبة على أذنيها ولكنها تأقلمت معها سريعًا ووجدت نفسها تخطو على أنغامها. كانت تشبه نساء قريته الصغيرة بمنحنيات أجسادهن وبعيونهن الواسعة السوداء ورموشهن الناعسة عندما كن يتمايلن وتتمايل خلفهن شعورهن الطويلة وتهتز أجسادهن على وقع الدف يتمايلن ويتمايلن وتسري نشوة بأجسادهن وكأنهن توحدن بالموسيقى، شعر أنه يريد أن يضمها إليه ويضم فيها جميع نساء قريته، يشم فيها روائحهن ويشعر معها بالحنان والطيبة كما كان يشعر معهن. تذكر هذه الحلقة من النسوة وهو طفل يقف وسطهن. يخطو بينهن يرفع نظره إليهن ويلف ويدور معهن، يتعثر بذيل ثوب هذه أو يلفحه شعر تلك، يتطلع في رسوم الحناء المخضبة بها أيديهن وأقدامهن.

أخذ يلف ويدور كما لو أنه يلف ويدور وسطهن، بريق خلاخيلهن الفضية وأساورهن الذهبية يشاكس عينيه وصوت صليلهما يعلو ويعلو في أذنه ويلف ويدور ويلف.

رقصا حتى أنهكهما الرقص وأخذتهما الموسيقى لعوالم أخرى من العشق والحنين والألم، وقتها فقط كان باستطاعته أن يمنحها الحب.

في الصباح ودعها أمام باب المدرسة بينما ذهب لنفس المقهى ليحتسي قهوته الصباحية عندما أتي له النادل بعدة مجلات وجرائد كانت من بينها مجلة "التايم"، صورة غلافها لهذا العدد كانت لوجه لم ينسه يومًا، وجه كان يطفو بين الحين والأخر ويبرق فجأة في ذاكرة معتمة تمامًا كما لو أننا ندير مؤشر راديو ومن بين الوشيش يفاجئنا صوت عزف بيانو أو صوت مذيع الأخبار ذي النبرة الجافة ثم تعود الذاكرة لعتمتها الأولى ونواصل البحث عن القنوات مجددًا.

- إنه هو!

صاح قائلا عندما تذكره على الفور:

ها هو أخيرا أمامه بعدما بحث عنه كثيرا وكل محاولات بحثه كانت تنتهي بالفشل. يحدث أن يمر وقت طويل نبحث فيه عن شيء، وعندما نيئس في العثور عليه ونعزي أنفسنا بان هذا الشيء ما عاد يستحق فإذا به يظهر فجأة أمامنا فتأخذنا الحيرة وقتها ماذا علينا أن نفعله؟ ولكنه لم يقع في هذه الحيرة لأنه يعلم تماما ما الذي يريد أن يفعله.

صورة لملامح قاسية لرجل أشقر في منتصف العمر. لقطت له وهو يقف محاطا بعدد من رجال السياسة والعسكرية الأمريكية.. كان يتسلم وسامًا فضيا على بطولاته التي أحرزها كقناص في حرب العراق، ويذكر الخبر أنه قنص مايزيد على 260 شخصًا، وفي كلمته التي وقف نافشًا ريشه كطاووس مغرور على المنصة ليلقيها "أنا أفخر بما قمت به خلال سنوات عملي بالجيش وأرى أن احتلال العراق كان صائبا كما أنني لم أنظر إلى الناس الذين قتلتهم كبشر، ولا أتساءل حتى أو يعنيني إذا كان لديهم أسر أو أبناء، كل همي هو القتل وإنجاز المهام الموكلة إلى".

تمتم مع نفسه:

- حقًا كان من الواضح جدا أنك لم تنظر يومًا إلى الذين تقوم بقتلهم كبشر، ولم يعنك حتى إن كان لديهم أسر من عدمه؛ لأنك تجردت من إنسانيتك واليوم ها أنت تقف بعلياء لتتسلم جائزة على حصدك أرواح الأبرياء إنه الظلم بعينه!

بسرعة فتح جهازه اللوحي وأرسل بريدا إلكترونيا لزميل له يعمل في "سي آي إيه"، وعضو لذات المنظمة التي يعمل بها، حقا لم يعرفه أو يلتقه، وكل مايعرفه عنه اسمه الحركي وعنوان بريد إلكتروني زودته به المنظمة؛ ليستفسر أكثر بمعلومات وافرة عن أهداف مهمة عليه قنصها. تضمنت الرسالة عدة كلمات"كريس كايل".. أريد كل المعلومات عنه.

دقائق قليلة وأستلم بريدًا إلكترونيا مفصلًا عنه: ولد بتكساس عام 1976 شهرته هي الشيطان الرمادي، ولد لأم تعمل معلمة في مدارس الأحد وأب شماس بإحدى الكنائس، اشترى له والده سلاحًا وهو في عمر ثماني سنوات، ومن يومها وهو يهوى القنص ويمارسه، في بداية التسعينات درس في جامعة تارتلون الوطنية إدارة المواشي، ثم بعد إتمام دراسته أصبح راكب برنق محترفًا، لكن مسيرته انتهت بسبب إصابة شديدة بذراعه، وبعد شفاء ذراعه ذهب لينضم لمركز تجنيد قوات مشاة البحرية الأمريكية، وبعدها التحق بالقوات البحرية الأمريكية، انضم لمدرسة التدمير من تحت الماء وعين في الأسطول البحري الثالث. خلال انتشار القوات الأمريكية في حي الرمادي اشتهر بمهارته في القنص وسمي بالشيطان الرمادي، وضعت مكافأة 2000 دولار أمريكي لمن يقتله، زادت فيما بعد 80000. أول تصويب طويل الأمد في حرب العراق كان لسيدة شك أنها تحمل قنبلة يدوية في يدها، ولم تكن تلك القنبلة سوى دلو من الماء تخفيه تحت ثيابها. نجح في مدينة الصدر بأطول تصويبة كانت موجهة لمقاومة يحمل قاذف صواريخ، وخلال الحرب أصيب بطلقتين وستة انفجارات لعبوات ناسفة. غالبا ما شارك في كل المعارك الرئيسية بحر بالعراق، ويعد أكثر القناصين قتلا في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية بعدد مؤكد 160 قتيلا، بينما يدعي هو أنهم لا يقلون عن 260 قتيلا.

جاء الخبر مفصلا ومطولا يحمل الكثير عن هذا الرجل وفي النهاية كانت المعلومات التي ينتظر أن يعرفها عنه: "يعمل الآن في مساعدة الجنود العائدين من الحرب إلى الحياة العادية، ويكرس الكثير من وقته لمساعدة زملائه في برنامج يسمى "ما بعد الصدمة" من خلال مركز قام بإنشائه لتأهيل وإعداد الجنوب للحرب".

هكذا إذن وهو القاتل المحترف لا غضاضة في أن يساعد القتلة على تجاوز جرائمهم.. ربما لا يزال البعض منهم يحتفظ ببعض من إنسانيته ويشعر بألم من جرائها. أما هو فقد قالها بصراحة ووضوح وبكل فخر:"لم أشعر بأن هؤلاء الذين قمت بقتلهم من البشر"! إذا فربما هم جنس آخر لا يستحقون العيش!

جاءه رنين على جهاز خاص للمنظمة التي يعمل بها، ويحمل برنامجًا بشفرة معينة غير قابلة للاختراق من قبل شركات الاتصالات. يعلم أن ذلك الرنين إيذان بمهمة جديدة وهو الذي لم تزل يداه مخضبتين بدماء آخر ضحية، فكر ألا يجيب، ولكن الرنين كان متواصلا بإلحاح فاضطر أن يجيبه، ضغط على الكود السري لفتح الخط، فظهر وجه الرئيس، وجاء صوته من بين الوشيش ليخبره باسم الضحية والمكان والزمان وعرض صورة حديثة للهدف نبهه أنها التقطت له منذ أربعة أيام فقط، ثم انقطع الاتصال. لم يعنه أن يدقق في الصورة، وللمرة الأولى يشعر أن حماسه قد فتر تجاه مهمة أوكلت إليه أو بمعنى آخر لم يعد مزاجه يغريه إلا لحصد روح شخص محدد. شخص كثيرا ما بحث عنه وبين كل من قتلهم لم يكن يريد أن يقتل سواه؛ لذلك أعاد الاتصال، وبصوته الذي تشوبه بحة مميزة وخاصة عندما يدخل في تفكير عميق أو يتبدل مزاجه قال:

- عذرا لن أستطيع القيام بتلك العملية.. ابحثوا عن عميل آخر.

اعتلت ملامح الضيق وجه الرجل:

- أنت أكثر من يناسب هدفًا على هذا القدر من الخطورة.

- ولكن!

هنا كان قد قطع الرجل كلامه قائلًا:

- 500 ألف دولار إضافية عن أجر آخر عملية قمت بها.

لم يكن للأمر علاقة بالمال فأرصدته البنكية متخمة بالعملات الأجنبية، ولكن بماذا كان عليه أن يخبر رئيسه أنه أخيرًا وجد الهدف الذي كان يبحث عنه، وأنه كان يقتل الكثير من الأرواح بنية الانتقام منه. وهل كان الرجل يصدقه أو يقتنع حتى بكلامه؟ لم يشأ أن يناقشه اكتفي فقط بقوله:

- "دعني أفكر".

- ليس هناك من وقت للتفكير. ما المبلغ الذي تريده؟

أعجبته الفكرة، هذه العملية لا تعنيه، فلماذا لايلاعب الرجل ليحصل منه على أكبر قدر من الأموال؟ تلك الأموال التي مهما دفع منها فلا تعني شيئا مقارنة بالروح التي تقدم مقابلها، فالروح

لا تقدر بثمن، وكان من الواضح أن العملية مهمة والتخلص من روح هذا الرجل بأقرب وقت شيء لا بد منه.

وضع ساقا على أخرى، أشعل تبغه وبصوت تملؤه الثقة:

- مليون دولار إضافية على أجر آخر عملية. لم يناقشه الرجل، فقط أغلق المكالمة بعدما قال له:

- Ok

وبهذه الأوكيه تأكد إياد أن رصيده البنكي سيزيد، وأنه إن حصل على هذا الأجر فلن يقل أجره عنه، فهو يعلم مدى أهمية الهدف بالنسبة للمنظمة بدليل أن الرجل لم يناقشه في أموال بالإضافة إلى أنه أخبره "هو لك"، وليس هناك أكثر منك مهارة للقضاء عليه.

كانت العملية في بلدة "برودوه" بالجنوب الفرنسي، ساعة واحدة بالطائرة ليكون هناك، لم يزر هذه البلدة من قبل ؛ كان عليه أن يذهب إلى هناك قبلها بيوم لمعاينة موقع العملية. طلب الخطوط الفرنسية وقام بحجز تذكرة إلى هناك، وفي الطائرة امتدت يده لكتيب صغير عن البلدة ومعالمها وتاريخها، تصفحه سريعا؛ تقع في الجنوب الغربي على نهر جارون. المدينة تاريخية وسياحية بها الكثير من قصور النبلاء، كانت واقعة تحت الحكم الإسلامي في عهد الخلافة الأموية، وأقاموا بها حكومة إسلامية لفترة طويلة، لها شهرة كبيرة ليس فقط في الكروم الذي تزرعه، ولكن أيضا للسفن التي تقبع فيها اتقاء لحالة الجليد التي تسيطر على المحيط الأطلسي في نوات الشتاء. اكتفي بهذا القدر وترك القدر الآخر ليكتشفه بنفسه، وسريعا ترك جانبا، وأخرج كتابه ليواصل القراءة.

الفصل السابع

الأيام كانت تمر، و وحده مشهد القتل لم يمر، وكأنه تحجر في واجهة الذاكرة، لم أستطع أن أخرجه من رأسي الصغير. ما إن أرقد على الفراش حتى يدور كل شيء بمخيلتي، أبدأ في تناول طعامي، أراهم وهم رقودُ، أذهب للعب مع الأولاد، يباغتني مشهد أختي وهي تجر من شعرها لمصير مجهول، ومن حين لآخر كانت الكثير من الذكريات تمرق سريعا كوجه جدتي، ابتسامة أمي ومزحات أبي وشجرة الكروم وروائح الخبيز.

ومن بين ذكريات ثقيلة جاثمة وأخرى تمرق في سرعة البرق واصلت حياتي، مرت السنوات سريعة، عمي كان كريما معي، عاملني كابنه الذي لم ينجبه، ألحقني للعمل معه في محل العطارة الذي يملكه في البيازين؛ ولأني فشلت في حفظ أسماء وأنواع الأعشاب المختلفة بالإضافة لإصابتي بحساسية مفرطة من روائحها، فاكتفي بأن وكل لي مهمة الإشراف على حسابات الدكان. نخرج أنا وهو لعملنا بعد الفجر بقليل محملين بزاد اليوم الذي تعده زوجته وتضعه لنا في صحون نحاسية، وبعد العشاء بقليل نرجع إدراجنا، وما بين الألم والنوم الهارب كنت أقضي بقية يومي في غرفة ملحقة بحديقة المنزل، كان لعمي ثلاث بنات، ولم يكن من اللائق أن أعيش معهن تحت سقف واحد، أجملهن وأكثرهن قربا لي كانت عائشة تستكين جدائلها الشقراء الطويلة بهدوء على كتفيها وتتزاحم رموشها الكثيفة حول عينيها اللوزتين. أثناء تقديمها وجبة العشاء ألاحظ أنها تطيل النظر لي وفي المرات القليلة التي أمرض فيها تعتني بي وتظل ساهرة بجوار فراشي لا أعرف تحديدا متى طرق حبها القلب هكذا بقوة، وعلى أيه حال كنت أبذل جهدي لأخفي ولعي بها، نكتفي بالنظرات التي نتبادلها معا وفيها يخبر كل منا الآخر بكل شيء كما لو أن بيت الشعر قد نظم فينا:

أشارتْ بطرفِ العينِ خيفةَ أهلِها إشارةَ محزونٍ ولم تتكلم

فأيقنْتُ أنَّ الطَّرفَ قد قالَ مرحبًا وأهلًا وسهلًا بالحبيبِ المتيَّمِ

ظلت حياتي على هذه الحال مدة من الزمن حتى جاء اليوم الذي حزمت فيه ملابسي في صرة، ووقفت لوداعهن، وأنا أخبرهن أن عليَّ الذهاب.

فكرة واحدة برأسي كانت تكبر يومًا بعد آخر: "الثأر"، وأخذت تلح علي لأنفذها؛ لذلك تركت كل شيء وركضت خلفها، كثيرا ما أخبرني عمي أنه لم ينجب ذكورًا وأن تجارته وعائلته سوف يضعهما في يدي، ولن يقلق عليهما؛ لأنهما ستبقيان في أيد أمينة تراعي فيهما الحق، وبالرغم من ذلك مضيت، لم أستطع أن أواصل حياتي في ذلك الدكان المعتم والضيق المزدحم بالقوارير وأجولة الأعشاب، مضيت حيث اتساع الصحراء وخلاء الجبال، حاول عمي أن يثنيني عن قراري فأخبرته:

- لا أستطيع أن أخذلهم، أطيافهم لا تغادرني ليل نهار في يقظتي ومنامي، وكأنها تطلب مني أن أثأر لها!

بنبرة رجاء قال:

- يا بني لوفكرنا بهذا المنطق لصار أكثرنا اليوم في عداد الأموات! أخبرني ما الذي تريد أن تثأر له؟ تريد أن تثأر لأهلك؟ وماذا عن بلدك؟ أليست هي الأجدر أن تثأر لها؟!

بصوت يملؤه الحماس أخبرته:

- سأثأر للاثنين.

ودعت عمي بعناق قوي، وشكرته على استضافته لي وكرمه معي طيلة هذه السنوات، زوجة عمي أيضا عانقتني، ورتبت على ظهري وهي تقول:

- انتبه لحالك.

وقفت البنات الثلاث يراقبن ما يحدث، وحدها كانت عائشة تبكي في صمت، اقتربت منها، وهمست في أذنها:

- سأعود.

عندما خرجت من المنزل ذلك اليوم كان موكب التوبة يمر، من ارتكب خطية يرتدي "السانبتيول" وهي عباءة العار، وفوق رءوسهم قبعات مخروطية طويلة تسمى "الكورزاس"، ويلف حول عنقه حبلًا، ويضع في يده شمعة، بينما من يرتدي عباءة سوداء، فهذا معناه أنه ارتكب إثما كبيرًا، وسيكون مصيره الموت بدون محاكمة، يخطون في موكب طويل بين دق الطبول ونفخ الأبواق، حتى الوصول للكنيسة حيث تعقد الجلسة. على المنصة يتوسط القس لجنة القضاة، ويبدءون في النداء على المتهمين ثم يصدرون الأحكام، كانت التهم تافهة؛ كالتحدث بالعربية أو إقامة الشعائر الجنائزية على الطريقة الإسلامية أو حتى ارتداء سيدة عجوز زيها الأندلسي. إنها تلك التهم البسيطة التي توجه لهؤلاء المساكين، والتي بسببها لقوا كل الويل في غرف التعذيب قبل مجيئهم هنا ليحاكموا، وتشي الكدمات على أجسادهم الضعيفة ووجوههم الواهنة بالعذاب الذي لاقوه.

لذلك تأكدت من كلام الشيخ حسن بأننا يجب أن نحاربهم لآخر نفس فينا، بين الحين والآخر كان يتردد على الدكان شيخ كبير تقي وطيب الخلق، عاطفة ما كانت تجذبني نحوه؛ لدماثه خلقه، ووجهه المبتسم دائما توطدت صلتي به، وأخذتنا الأحاديث الطويلة حكيت له فيها عن حياتي ومأساتي فأجج فكرة الثأر والجهاد برأسي، وحكى لي عن شجاعة وبطولة المجاهدين هناك، وكيف أنهم يقدمون أرواحهم فداء لبلادهم وأرضهم شبابا ورجالا من مختلف الأعمار، تركوا كل شيء خلفهم، وقدموا أعمارهم قربانا لوطنهم، وعلى الفور طلبت منه الانضمام للمجاهدين.

عقدت النية الخالصة أن اتعلم منهم فنون القتال وأكتسب الخبرة، وحتى النفس الأخير مني سأخوض معهم المعارك. هذه المعارك التي قال لي عنها الشيخ حسن: "هناك معارك نعرف أنها خاسرة، ولكننا بالرغم من ذلك نخوضها لتقليل أذاها علينا قليلًا". عقدت العزم على ذلك , وقررت عندما أشعر أني قد أصبحت أملك القوة الكافية لمواجهة قاتل أهلي سأنزل للمدينة مرة أخرى.

ويومها كان أحدهم في انتظاري عند ناصية الطريق وأخذني لدهاليز الجبال، وبين طرقاتها الوعرة التي لا يستطيع أن يصل إليها جنود قشتالة تدربت على أيدي أفضل المقاتلين. تعلمت كيف أمسك السلاح وأصوبه، وكيف ألقي رمحي، وما أنسب لحظة لمواجهة عدوي، تعلمت كل ذلك سريعًا فروح الثأر التي كانت تشتعل نارها بداخلي جعلتني أجتهد دون كلل أو ملل، أصبحت أكثر خبرة وشجاعة، وأوكلت لي مهمات أكثر خطورة؛ كالمهمات القتالية مع فدائيي البحر، نهاجم الشواطئ ليلا، وننقض على جنود قشتالة، ونباغتهم بالضرب بسن الرمح أو بالسيف وبالبنادق، ونساعد من يريد الفرار من أهل الأندلس للدول المجاورة نراقبهم حتى يصعدوا مع أطفالهم ومتاعهم سالمين للسفن التي سوف تذهب بهم باتجاه بلاد أخرى، بلاد لم تكن يومًا لهم، ولم يعقدوا النية للذهاب إليها، وربما لم يسمعوا عنها من قبل، لكن أليس دوام الحال من المحال؟!

كنا نعيش على حافة الموت الذي يتربص بنا في كل مكان كل يوم نستيقظ، ولم نعرف من فينا هو الذي سوف يقع شهيدًا، لا نعرف على روح من سنقيم صلاة الجنازة، ولمن سوف ندعو بالمغفرة، بالرغم من أن جميع من سلك هذا الطريق قد نذر دماءه وروحه للجهاد، ولكن رهبة الموت كانت تطل برأسها بيننا، وخاصة أننا يومًا بعد آخر كنا نستقبل مجاهدا جديدا ونودع آخر، يتولى الشيخ حسن بث القوة وروح الجهاد والعزيمة بين صفوف المجاهدين، ويحثهم على الشهادة والقتال في سبيل الله والوطن، كان يظهر أمام الجميع أنه لا يخشى الموت، ولا ترهبه فكرة الوداع في حين أنه عندما يعلم بخبر موت أحد من الرفقاء يتنحى جانبا ويظل يجهش بالبكاء، ومن بين دموعه يخرج ليقص علينا سيرة أبطال ضحوا بحياتهم في سبيل أن تبقى تلك الأرض هي الأندلس المسلمة؛ كقصة البطل الذي لن ينساه أبدًا أحد، والذي كان رحيله لا يقل غرابة عن قصص بطولاته البطل "موسي بن غسان "فارس وبطل من غرناطة رفض تسليمها وقاوم بكل بسالة.

والذي ظهر آخر مرة بمجلس عقد في قصر الحمراء وأعلن فيه وقتها الملك عبدالله نيته في الاستسلام فصاح فيهم قائلًا:

- "إن الموت أقل ما نخشى".

وبهذه الكلمات غادر هذا البطل المجلس حزينًا ويائسًا من الخنوع الذي أصاب ملكه، ذهب مباشرة إلى بيته، ارتدى لباس الحرب كاملة واضعا فوق رأسه خوذته المعدنية، ومن فوق جواده يمر في شوارع غرناطة شارع بعد آخر وزقاق من بعد زقاق، ثم لم يره أحد من بعدها كان هذا آخر ظهور له في غرناطة، تضاربت الأقوال والأحاديث على لغز اختفاء هذا البطل، كانت أكثرهم قربا للحقيقة هي: إنه وهو في طريقه على ضفاف نهر "الشنيل" قابل سرية من فرسان النصاري، فانقض عليهم قتلا وضربا، أُصيب بجرح نافذ بينما طُعن جواده برمح من تحته، وبالرغم من جروحه النافذة لم يستسلم بل قاوم لآخر نفس فيه، وعند تأكده أنه لن يستطيع مواصلة القتال فضل أن يلقي بنفسه في النهر بدلا من أن يقع أسيرًا في أيدي قشتالة، هكذا أصبح موسي بن غسان أيقونة البطل الذي يريد أن يحذو حذوه الكثير من المجاهدين، فساروا على دربه بالتضحية فداء لوطنهم، وكلما استشهد واحد منهم كان بمثابة بطل يقص علينا الشيخ حسن قصته، فتثير من عزيمة المجاهدين الجدد، وتنير لهم طريقهم، كشعاع نور باتجاه السماوات.

مرت السنوات سريعة، ثلاث منها وأنا أقاتل بجدارة، وأرى في كل من أقتله هذا القشتالي القبيح الذي قتل أمي، وسحب أختي وراءه، فأقتله بكل ما أتيت من قوة ومن نار مستعرة بداخلي، كنت في العشرين من عمري، ولكني كنت أبدو كما لو أني بالخمسين، خطت التجاعيد على بشرتي من قيظ الشمس الجبلية، وجف عودي وذبل من ثلوجة الطقس بالشتاء، لكن وجودي في هذا الكهف بجوف أحد الجبال وسط هؤلاء الرجال أعادني مرة أخري لدفء بيت أبي ولأيام مضت، ولن تعود، كنا نعيش بحرية نتحدث بالعربية دون خوف من أن يسترق أحدهم السمع إلينا، نقيم فروضنا الدينية، لم نعد نخشى أن أحدهم يسمعنا عندما تعلو أصواتنا بتكبيرات الصلاة أو صياحنا فرحًا برؤيتنا لهلال العيد نغتسل ونتطيب ونؤدي صلاته، والأهم من ذلك أننا كنا نرتدي عباءتنا البيضاء نعم كل ذلك كان يجري دون خوف أو قلق، هذا الرباط من الحب والمودة بدَّل من برودة الكهف وظلمته نورًا ودفئا وعلى مدار الزمن لم أنقطع يومًا عن الكتابة لعمي وإرسال ما أكتبه مع بعض المراسلين الذين هم حلقة الوصل بيننا وبين العالم بالخارج.

وفي أحد الأيام حسمت قراري بالعودة مرة أخرى لغرناطة ؛ لتأدية الغرض الذي جئت هنا من أجله، في البدء كانت فكرة الانتقام من قاتل أهلي هي أقصى طموحي وكل ما يشغل تفكيري، وبعد ذلك أصبحت ما إن أرى جنديًّا قشتاليًّا حتى تستعر بداخلي نار الانتقام وأنا أتذكر ما فعلوه في بلدي وأرضي وأهلي؛ لذلك كنت أكثر المجاهدين براعة في قنص الهدف من على مسافة بعيدة، وقد علمني إياه الشيخ حسن بنفسه، فهو محارب قديم في جيوش الملك أبي الحسن، وخرج معه في فتوحات كثيرة، وكان يجلس ليقص علينا البطولات التي أحرزها جنود الإسلام، وكيف أنهم لقنوا عدوهم دروسًا لا تنسى.

أخبرت الشيخ حسن بأمر ذهابي، وودعته بعناق عنيف ودموع غزيرة كانت تسيل دون توقف، تعلقت بهذا الرجل تعلقًا كبيرًا، كنت أرى فيه عائلتي التي فقدتها، كان يملك تقوى أبي وحنان أمي، أجلس بمحاذاته أتنصت لكل كلمة يقولها باهتمام وحب، ربت على كتفي يومها، وعندما أخبرته أنني سوف أعود مرة أخرى فور انتهاء مهمتي. قال بصوته الطيب:

- إذا يا بني ربما لا نلتقي مجددا، فلا تقل إلى اللقاء، بل قل الوداع.

لفحت وجنتي دموعه الحارة عند معانقته لي، ومثلما صعدت الجبل يومها مسرعًا تملؤني الحماسة مثلما هبطته أيضًا مسرعا متحمسا بصرة من الملابس، وبقليل من أموال، وكثير من شجاعة وتحد، وتلال من الأشواق لعائشة التي لم يغادرني طيفها، ووجهها الذهبي، وابتسامتها طيلة السنوات الماضية، وكثيرا ما كنت أتساءل: هل تراها ما زالت تذكرني؟ أم أنها قد أصبحت زوجة وأما وصار الصبي الذي كان يشغل حجرة في الحديقة مجرد ذكرى؟

الفصل الثامن

وفي خريف ليلة مقمرة وصلتُ غرناطة، استقبلتني نسمة هواء باردة ورائحة أعرفها جيدًا، رائحة لطالما اشتقت إليها، لم أعرج على بيت عمي، فلم أشأ أن ألحق به الأذي، يكفي ما سمعته عن أهوال محاكم التفتيش، تلك الأهوال التي لا يصدقها عقل على الإطلاق؛ لبشاعتها وغرابتها، إنه الانتقام الأسود، ولكن ممن ينتقمون؟ ومن الذي عليه الانتقام؟ المعتدي أم المعتدى عليه، المظلوم أم الظالم؟!

حدثني يومًا أحد المجاهدين عن تلك المحاكم قائلًا:

- في ذلك اليوم استوقفتني سيدة قشتالية لكي أساعدها في حمل صندوقها، وعندما اعتذرت لها؛ لأني أعاني مرضًا يمنعني من حمل أشياء ثقيلة نظرت لي باحتقار قائلة: "عربي كلب"، فما كان مني إلا أن سببتها، فأخذت تصيح بصوت عال على إثره تجمع جنود قشتاليون، وأخبرتهم كذبًا أني قد تطاولت عليها بالضرب والسب، وليس ذلك فقط بل ادعت أني سببت ملكهم وملكتهم، وقلت لها: إننا نحن – العرب المسلمين - أشرف منهم، وديننا أقيم من دينهم و.... و.... و.....، فوجدت نفسي أُقاد إلى السجن، ومنه لمحكمة التفتيش، ويمكنني أن أقول إنني من هول ما رأيته لم أعد أصدق هل كان حقيقة أم إنه ضرب من الخيال؟!

أخذونا من محبسنا، وسرنا في طابور طويل، ونحن مقيدو اليدين والقدمين، هبطنا درجًا حلزونيا، كل درجة كنا نهبطها كانت تشي بما يحدث بالأسفل وبالجحيم الذي نحن في طريقنا إليه، أول شيء استقبلنا يومها كانت الروائح الكريهة التي تزكم الأنوف، ولا تدري مصدر انبعاثها، ولا حتى تريد أن تدري؛ لأنك إذا عرفت سوف تتأكد من المصير الذي ينتظرك، فمؤكد أنت في طريقك لتصبح جيفة كريهة الرائحة، ومن بين تلك الروائح تتسلل لأذنيك صدى صراخ وأهات واهنة، لم يأخذني التفكير طويلًا، فقد انتهى الدرج لأجد نفسي أمام الحقيقة في أبشع صورها، وجدت نفسي بممر طويل مررت فيه على غرف التعذيب، البعض منها توثق فيه أيدي وأرجل النساء والرجال، ويقفون في غرف عمودية وأخرى أفقية، حجم الغرفة بالكاد حجم أجسادهم، ويتركون واقفين بداخلها بلا طعام أو شراب حتى الموت، وتبقى الجثث على حالها حتى تتحلل، وتصبح وليمة للديدان، وتحديدًا كانت هي مصدر تلك الروائح الكريهة.

مقيدون بالأغلال كنا نسير في طابور طويل، كنا نتعثر رعبًا من تلك المشاهد، وبخاصة مشاهد الهياكل البشرية التي كانت لا تزال مقيدة في سلاسلها. بعد أن انتهينا من هذا الممر دخلنا ممرًّا آخر، وكأننا في رحلة للجحيم يصحبنا إليها هؤلاء الناس الذين شعرت أنهم يتلذذون بما تخلفه تلك المشاهد علينا، وتساءلت وقتها ما أمرهم؟ هل هم حقا يمتون للإنسانية بصلة؟ لم أنس يومها ما شاهدته في هذا الممر المظلم من آلات التعذيب التي صممت خصيصًا لتقوم بفصل العظم عن اللحم، في البدء يقومون بكسر عظام الأرجل ثم عظام الصدر فاليدين فالرأس، على إحدى الآلات وُضع رجل بمنتصف العمر والآلة التي وضعت بين فكيه كانت تنتزع فكيه ببطء وتفسخ عظمه عن لحمه في مشهد دموي قاس، لوهلة شعرت وكأن ألم هذا الرجل تسرب لي فشعرت بألم ليس له مثيل، وإحساس بغثيان ورجفة تسري في كامل جسدي.

ولكن انتظر هم ليسوا كما تظن، إنهم يملكون بعض الرحمة أيضًا! لقد صمموا غرفا لتخلص المذنب من حياته سريعًا، كل ما هنالك أنهم يضعونه داخل تابوت تتصل به خناجر وسكاكين بنصول حادة، وما إن يغلق التابوت حتى تؤدي تلك السكاكين مهمتها، ترشق جميع أنحاء الجسد، وتزهق الروح سريعًا، كلما تجولت رأيت أشكالا وألوانا من العذاب، نساء تنزع أثداؤهن بآلات خاصة، ورجال تنزع خصيهم، وأخيرا – وبعد ممر طويل من العذاب – وجدت نفسي أمام منصة الحكم يجلس عليها ثلاثة من القساوسة لا أعرف هل كانوا يقومون باستجوابي أم برمي التهم علي؟!

هل حقا سببت ملوك الكاثوليك؟ هل ما زلت مسلما وتمارس طقوس دينك؟ كم تذهب للصلاة في الكنيسة؟ هل أنت حريص على إقامة الشعائر المسيحية ووو؟؟؟

وبالرغم من محاولاتهم لنزع اعتراف مني، كنت قابضًا على ثباتي؛ ليقيني أنه لو هفوة خرجت مني وانتابتهم ذرة شك بحديثي، فسوف يتهمونني بالردة والهرطقة، وعقابهما الحرق أمام الناس؛ لذلك امتثلت لأوامر الطاعة العمياء، وأخبرتهم بحزم وحماس ينفي أي شك تجاهي أظهرت لهم أني نصراني متدين، لا أفوت أيام القداس، ولا أبالي إذا وقفت بالساعات أصلي وأبتهل للعذراء، وصدقوني. اكتفوا بوضعي لشهور طويلة في زنزانة مظلمة خالية من التهوية، شاهدت فيها أبشع أنواع العذاب حتى كنت قاب قوسين أو أدنى من الموت، وتعسرت به كثيرًا، وخرجت من السجن على حقيقة واحدة: أن الموت هو أقرب إلينا من أي شيء آخر في هذه البلاد، ووقتها اختمرت الفكرة برأسي، لماذا لا أقدم حياتي فداء لأرضنا المنهوبة؟! فما الضرر في أن تطير رقبتي أو يخترق رمح فؤادي؟! على الأقل سأموت بشرف بدلًا من انتظار الموت وأنا متخف باسم ليس لي، وأدين بديانة لا تمت لي بصلة.

كلام ذلك المجاهد الذي مر على الذاكرة مرور الكرام في ذلك اليوم، جعلني أبتعد قدر المستطاع عن بيت عمي حتى لا أزجه معي في مشاكل لاحصر لها ولا دخل له بها؛ لذلك توجهت مباشرة إلى خان يقع على أطراف المكان كان نزلاؤه يجلسون في قاعة دافئة، وهناك فرقة تغني موشحات أندلسية وراقصة ترقص على أنغامها، وكأن ما يحدث في الخارج لا يمت لنا بصلة، وقفت أمام الموظف لأستأجر غرفة، ظل يحدق بي وهو يسجل بياناتي في دفتر كبير خاص بالنزلاء، وسألني بريبة وتوجس:

- من أين أنت؟
- أنا من بلنسية.
- إلى متى سوف تقيم هنا؟
- لا أعرف حتى أعثر على عمل، وأستطيع أن أحصل على دار.

قهقه الرجل بسخرية وهو يقول:

- عمل ودار. ألم تسمع عن أحوال المدينة ام أنك متفائل لمثل هذا الحد؟

أغلق الكتاب، وهو يفكر فيما قرأه: معقول هل هناك بشاعة أكثر من ذلك؟ هل هؤلاء حقا بشر؟ أم هم من عينة كريس؟ فما الذي يجعلهم يتفننون في طرق التعذيب؟ ولماذا التغاضي عن تلك التهم والأفعال الحيوانية؟ لماذا لا تفتح تلك الأوراق القديمة، ويعاقب عليها هؤلاء القوم؟ ولتتحمل الحكومات والأجيال الجديدة جرما ارتكبه أجدادهم في حق أبرياء لا حول لهم ولا قوة أو على الأقل هؤلاء المنهوبون يستعيدون أموالهم وأصولهم، أو ليست هذه الجرائم أكثر بشاعة مما فعله الألمان مع اليهود في الحرب العالمية الثانية؟ المعسكرات النازية التي كانوا يقودونهم إليها ومنها لغرف الغاز ليقتلوهم هناك؟! ألم تكن هذه الطرق في التعذيب أرحم بكثير من محاكم التفتيش؟ وبالرغم من ذلك لم يسكت اليهود، خرجت أصوات كثيرة وجمعيات كثيرة أطلقت على نفسها أعداء الهولوكست، ومعادين النازية، و... و... من مختلف أنحاء العالم، ومن ألمانيا نفسها؛ لتدين كل ما كان له ذنب لما تعرض له اليهود في هذه المعسكرات، وظلت تطالب بحقوقهم المغتصبة وتناضل من أجل تعويضات لهم، والسينما العالمية يومًا بعد آخر تنتج الكثير من الأفلام ؛ لتوثق تلك المجازر في أبشع صورها، وتصدر دور النشر الكتب الجديدة؛ لتدين ألمانيا وأفعالها حتى استطاعوا الحصول على تعويضات لهم. ها هي فرنسا تدفع 60 مليون دولار؛ كتعويض لليهود الأمريكان، الذين تم نقلهم من قبل شركة السكك الحديدية الفرنسية، إلى معسكرات الاعتقال النازية إبان الحرب العالمية الثانية.

إذا لماذا تهاون العرب عما حدث لهم ولأجدادهم في تلك المحاكم؟! كم عربيا يعلم ما الذي عاناه أجدادهم من أهل الأندلس في محاكم التفتيش؟ كم عربيا سمع عما حدث لهم؟ أم لأن تلك الجرائم التي ترتكب في حق العرب والمسلمين ولم تتوقف يوما فاصبحت أمرا عاديا مسلما به؟ أو ليس ما يحدث في حق الفلسطينيين منذ سنوات طويلة من مجازر واعتداءات جسيمة من الإسرائيليين، وما حدث في العراق وأفغانستان ومالي وبورما، وقبله ما حدث من الجرائم من المحتل الأجنبى في مصر والشام والجزائر والمغرب وليبيا و... و...

أليس هذا كله استمرارا لكل ذلك؟

إذا الذي حدث ويحدث ومستمر في الحدوث ماذا بإمكاننا أن نسميه؟ أهو قدر أم خنوع أم ضعف أم جميعها معا؟

استعد للنزول، وقرر أن ياخذ جولة في انحاء المدينة التي جاءت على هواه، فهي تاريخية وقديمة، شوارعها مبلطة بالبازلت، وروائح الماضي تفوح منها. قادته قدماه لساحة الكوميديا التي أوصلته لشارع سانت كاترين التجاري، الساحة متشبعة لاتجاهات عدة منها لبيوت المدينة القديمة، وبالرغم من ضيق الشوارع فإن المطاعم تفرش طاولاتها على الطريق، أمام عربة لبائع الكستناء المشوية وقف يشترى منه، ويتابع بعيونه الثاقبة ما يجري حوله. دوما يبدو كسائح في تلك المهام التي يخرج فيها لمدن يزورها للمرة الأولى، عيناه هي كاميرته الفوتوغرافية متقنة الصنع التي يعلقها بوجهه لتلقط كل شيء من حوله، وتخزنه في ألبوم الذاكرة يفتحه وقت الحاجة إليه.

كان مسرح العملية هو مبنى الأوبرا الذي يقع في ساحة الكوميديا، وقف يتأمل الموقع ليدرس مخارجه ومداخله، في منتصف الساحة نافورة بثلاثة أضلاع يُحكى أنها تمثل النعم التي يجزل بها الإمبراطور نابليون على المدينة، ويمثل كل ضلع منها ملكة من الملكات (الإمبراطورة أوجيني) إمبراطورة فرنسا، وزوجة الإمبراطور نابليون، و(الملكة فكتوريا) ملكة إنجلترا، والملكة (إيزابيلا) ملكة إسبانيا. وتسمى النافورة ب(المرآة)، وسبب تسميتها بهذا الاسم: أنها كانت تنشر ماءها في جميع الاتجاهات، ثم ينحسر الماء عن الأرض ليصبح كالمرايا تستطيع أن ترى فيها نفسك. بعدها توجه للأوبرا أدهشته سعة المبنى وأناقته، اقترب من اللوحة النحاسية المعلقة على البوابة والمدون بها تاريخ إنشائها 17 إبريل من عام 1708، قام بتصميمها المهندس الفرنسي الشهير فيكتور لويس وهي تتسع لألف شخص تقريبًا تقدم أوركيسترا برود حفلها الموسيقي في الأول من كل شهر وتعد من أشهر الفرق الموسيقية في أوروبا كلها والهدف جاء خصيصًا لحضور الحفل وسيقيم في فندق "ذا ريجينت جراند أوتيل" الواقع أمام الأوبرا مباشرة، ذهب للفندق؛ ليلقي نظرة عليه، وعندها اشتد المطر اقترب من الباحة فلمح لوحة معلقة أمام البوابة تعلن عن أن عازف البيانو أندريه جورجيو يعزف في بار الفندق من الساعة التاسعة من مساء كل يوم حتى الثانية عشر بعد منتصف الليل، فكر أن يدخل لينعم ببعض من الدفء، ويستمع لعزفه، ويتناول شيئًا، جلس في زاوية من المكان وطلب من النادل كوبًا من البيرة، حضر أندريه متأخرًا ربع ساعة عن موعده. كان طويلًا، رشيقًا، يصفف شعره للخلف، ويعقد "بابيون أسود" على قميصه الأبيض، جلس بأناقة أمام البيانو بعدما ألقى نظرة سريعة وخاطفة على المكان، ثم بدأ العزف وسط صخب وضوضاء الحاضرين غير عابئ بصخبهم، يعزف المقطوعة تلو الأخرى كمن يؤدي عملًا روتينيًّا يود أن ينجزه سريعًا لأنه على يقين أن أنغامه لن تستطيع أن تخترق ضوضاءهم، وقبل نهاية الوقت المحدد بقليل سأل الحاضرين هل تفضلون مقطوعة بعينها؟ لم يجبه سواه. - نعم اعزف مقطوعة ما. (هل لنا أن نلتقي؟) انسابت الأنغام حزينة وهادئة، كأنها تنبعث من ثنايا الروح، وفجأة تشوشت وجوه من حوله، يراهم يحركون شفاههم ليتكلموا، نسي أين هو، كما نسي الظروف التي جاءت به إلى هذا المكان، أنهى العازف المقطوعة، وكان إياد الوحيد الذي يصفق له بقوة، توقف العازف عن العزف، ولكن صدى الموسيقى ظل يتردد داخله، موسيقى بعيدة كلما أوشكت عن التوقف تعاد مجددًا.

وبمصاحبة هذه الموسيقى تريض قليلًا حتى وصل للكتدرائية القديمة بحي سان ميشيل الذي ينتشر فيه الكثير من العرب وخاصة من دول المغرب العربي ويقام هناك سوق شعبي يوميًا تباع فيه الكتب النادرة والمخطوطات والتحف والأثاث القديم وهكذا أخذ يتجول في أنحاء السوق مستمتعًا بكل خطوة في هذه المدينة المعبقة بالماضي والتاريخ تزكم أنفه روائح من سكنها ومر بها يومًا ذهب لفندق قريب واستعمل جواز سفره الإسباني في حجز غرفة وتحدث ببعض الكلمات الإسبانية مع موظف الحجز ليصدق أنه إسباني حقًّا.

كان المشهد من شرفة غرفته أكثر من رائع حيث يقابله مباشرة كتدرائية سان ميشيل التي بنيت في القرن السادس عشر وتعد كتحفة فنية في العمارة وخاصة عندما يضيء برجها المرتفع ليلًا ليعانق الغيم في السماء. بشكل أو بآخر أوصله مشهد البرج لهناك حيث المسجد المقابل لمسكنهم في الأعظمية ببغداد مسجد الإمام الأعظم أبي حنيفة ومئذنته الكبيرة بديعة الصنع وصوت مؤذنها الشجي عندما يؤذن لصلاة الفجر وقتها يسمع خطوات أبيه على الأرضية الخشبية ليذهب للوضوء ثم يستيقظ البيت تباعًا هو فإخوته الذكور الثلاثة لمرافقة أبيهم للصلاة كانت صلاة الفجر بالنسبة لهم هي بداية يومهم المبكر وفي الإجازات بإمكانهم أن يحصلوا على قسط أوفر من النوم يسبقهم أبوهم مسرعًا مرتديًا جلبابه الأبيض وتتدلى من بين أصابعه مسبحته بفصوصها الثمينة يحاول هو اللحاق بخطوة أبيه الواثبة وأخوه مهاب وكريم يسيران بتكاسل من خلفه ،بينما عبد الله يكون النعاس عالقًا بعينيه ويسير بصحبة أحلامه التي لم يستيقظ منها بعد.

فجأة هلت عليه رائحة البخور من المسك والعنبر إنها نفسها الرائحة التي كانت تفوح في أرجاء المسجد ورغمًا عنك تعبق ملابسك وتلتصق بك لوقت طويل شعر بحزن عندما تذكر تلك الأيام الجميلة التي كأنها من زمن آخر زمن لبعده جعله يتساءل ترى هل حدثت حقًا؟ وأين اختفى هؤلاء وكأنهم لم يأتوا لهنا يومًا؟! تلاشوا كغمامة من الدخان بعثرت في الهواء ثم لم يعد أى أثر لها تمنى لو كان اختفى معهم بدلًا أن يعيش حياته مثقلًا بإرث من الفقد والحنين ومرغمًا على مواصلة الحياة بكل تفاصيلها دونهم.

فتح جهازه اللوحي وبينما كان سيكتب اسم الهدف وجد نفسه يكتب اسم شخص آخر شخصًا كان السبب لما هو فيه الآن ليس هناك من جديد في المعلومات المنشورة عنه إنها نفسها نفس المعلومات التي حصل عليها من زميله يقطن بتكساس له أسرة صغيرة وزوجة جميلة يمارس الرياضة ويخرج للصيد ويتناول عشاءه الرومانسي بالخارج في العطلات الأسبوعية.

طلب الغداء بغرفته فلم يملك رغبة بالنزل بالمطعم الملحق بالفندق لتناوله هناك وللمرة الأولى يشعر بأن حماسه لأداء المهمة قد فتر ولا رغبة له في القتل مجددًا كانت روح واحدة هي المسيطرة على تفكيرة هدف واحد وروح واحدة وطلقة واحدة كل ما يريده ويتمناه.

أتى له نادل خدمة الغرف بصينية الغداء وضع عليها طبقًا من قطع اللحم المغموس بصوص المشروم ومعه صحن من حساء الكزبرة رائحة الحساء زكمت أنفه ورجعت به لهناك لرائحة صحن غداء الملوخية الذي كانت أمه تجيد صنعه يومها هذه الوجبة كانت تتصدر الطاولة عندما التفوا جميعهم حول هذا الطبق الشهي والمحبب إليهم كان ينقلهم لبلدهم مصر اعتادت أمه أن تكافئهم به وخاصة عندما يحصلون على درجات جيدة يعودون من المدرسة وقد أعدته لهم وتفاجئهم رائحته الشهية التي كانت تفوح بأنحاء المكان، ولكن هذا اليوم لم يمهلهم القدر وقتًا ليتذوقوه فبين فنية وضحاها سمعوا صوت دبابة مدرعة تقتحم باب الفيلا وبالرغم من الحراسة المشددة التي وضعتها الإدارة التي يعمل بها والده لحمايته هو وأسرته ولكن يومها لم تكن تحرس

سوى الخيبة، لا يعرف كم عددهم أو ملامحهم التي كانت تختفي خلف الأقنعة بعض منهم طوق الفيلا من الخارج والباقي كان يصوب رصاصاته وهو في طريقه للداخل باتجاه كل شيء انقلبت طاولة الطعام بما عليها وبعثرت المقاعد في كل اتجاه وتكوم الأطفال في حضن أمهم.

نظرات فزعة وأفواه صائحة وأم تحتضن أطفالها لتقيهم الرصاصات الطائشة وتخترقها هي لحظات قليلة مرت ثم ارتدوا جميعهم قتلى وحده الذي نجا من هذه المذبحة، كان بغرفته يبدل ثيابه المدرسية عندما لمحهم من خلف نافذة غرفته لحظات وسمع طلقاتهم النارية فلم يسعه أن يفعل شيئًا سوى الاختباء في خزانة الملابس وساعده في ذلك ما يتمتع به من ليونة جسدية فكان من السهل أن يثني جسده وأن يكتم أنفاسه ولا يتحرك لزمن طويل هذا الزمن الذي قضوه في تفتيش المنزل قطعة قطعة وبكل شراسة وتدمير كانوا يلحقون الخراب ما يقابلهم في طريقهم وكأنهم يوقعون على مرورهم عليه لا يعرف كم بقي هناك؟ وكم مر عليه من وقت وهو كاتم أنفاسه؟ وأخيرًا هدأ بركان الجنون وغادرت وقع أحذيتهم العسكرية الواحد تلو الآخر ظل على ثباته مدة من الزمن ثم خرج من مخبئه متسللًا ببطء في البدء لم يصدق الدمار الذي لحق بغرفته أثناء بحثهم عنه ليقينهم بأن عددهم خمسة من الأطفال ولكن لا بأس فلا داعي من العثور عليه وقتله فقد تخلصوا من الهدف الرئيسي فبالنسبة لبقية الأهداف فهي تحصيل حاصل، تمامًا كقطعة كهربائية وملحقاتها أو كطبق رئيسي وما يسبقه من فواتح الشهية.

نزل ليل بغداد على عجل كعادته بالشتاء فاكتسى البيت بالظلام قرر أن يخرج من مخبئه بعدما مر عليه من هناك الكثير من الوقت لم يشأ أن يضئ النور استعمل كشافًا كهربائيًا صغيرًا وعلى ضوئه الخافت أخذ يهبط الدرج بفزع من ينتظره فاجعة، فاجعة على قدر كبير من الألم أول ما تعثر فيه هو جسد أبيه ملقى أسفل الدرج مباشرة ثبت الكشاف فوقه وهاله ما رأى كان بجسده عدد لا بأس به من الثقوب بينما الرصاصات الفارغة التي اخترقته ملقاة بجانبه بعدما أدت مهمتها بنجاح، على الجانب الآخر أمه تحتضن سهيلة وعبد الرحمن ،كانت تضمهما إليها في محاولة منها لتلتقط كل الرصاصات نيابة عنهما ، وزع ضوء الكشاف في أنحاء المكان ليجد أخاه كريم فاردًا ذراعيه الاثنتين وهو يحمل في إحداهما ملعقة ليتناول بها غداءه المحبب وعلى قرابه منه كان عبد الله مسجى على وجهه، وحولهما بقعة كبيرة من الدماء، صمت الموت يغلف المكان واللون الاحمر يكتسي به كل شيء فقد صبغ ، الاثاث و المفرش الابيض للطاولة والقطع الصغيرة من السجاد الحريري، وفي واقعة تعد الأولى من نوعها منذ ابتكار غذاء الملوخية أن يمتزج لونها الأخضر بلون الدماء الأحمر ! فأي قدر غريب يمزج بين صحن الملوخية والدماء البشرية؟!

صخب الدمار وبرودة الموت ورائحتهما تعبق المكان كان قدرًا يصعب أن يواجهه ، فاسند ظهره على الجدران وأنكمش على نفسه ، ضم ساقيه إليه وخبأ رأسه بين ذراعيه ولم يبك، تحجرت دموعه وحده قلبه كان ينزف.

ذاعت أنباء عن غزو أمريكا للعراق ولكنها لم تكن مؤكدة فلم يكن هناك براهين بأن العراق لم تملك أسلحة نووية ومازال هناك الكثير من المفاوضات والمناقشات ولجان التفتيش لم تجزم بذلك، وبدون سابق إنذار بين ليله وضحاها ضربت أمريكا العراق في التوقيت الذي كان أبوه يرتب نفسه للرجوع لبلده، فهو يعلم تمامًا المصير الذي في انتظاره هو وأسرته في حال الغزو

الأمريكي، ولكنه لم يكن يعلم أن اسمه على رأس القائمة، وأن القدر لن يمهله الكثير، وأن الموت متربص به وبهم.

أمريكا كانت تعلم جيدًا أن أي دولة لن تقوم وتنهض إلا على العلماء والباحثين، لذلك وضعت قائمة طويلة بأسماء علماء العراق للتخلص منهم، وبدون اللجوء لتلفيق تهم لهم كان مصيرهم ما بين السجن والاغتيالات، وكان أبوه على رأس تلك القائمة فلم يمهله الوقت منذ اللحظة الأولى لدخولهم بغداد واقتحم مسكنهم، وكأن غزو العراق لم يقم إلا من أجل التخلص من أبيه.

وفجأة طاح بطبق حساء الكزبرة ثم بالأطباق جميعًا وارتدى ملابسه وذهب.

وجد أن أنسب مكان لقنص الهدف هو سطح مبنى الأوبرا نفسه ، الأمر يتطلب منه أن يقطع تذكره ليدخل ليرى كيف الوصول لهناك وكأي مبنى تاريخي تتملكك حالة من الذهول والدهشة عندما تدخله، خاصة أنه محتشد بالقطع الفنية واللوحات التشكيلية ، فكان يتجول بداخله كما لو أنه يتجول داخل متحف، السكون يعم المكان بالرغم من الحفلات المقامة في بعض القاعات، ولكن الموسيقى لا تتسلل أبدًا للخارج، وجد نفسه أمام باب مغلق علقت عليه لوحة للطوارئ أزاح الباب بهدوء، وجد ممرًّا يؤدي إلى درجات حلزونية ضيقة صعدها وجد نفسه أمام باب مغلق علقت عليه لوحة للطوارئ أزاحه ودخل ليجد نفسه في السطح الفسيح، العتمة كانت تغلف المكان، لاحظ عدة ابواب اخرى تقود للسطح من مداخل مختلفة ولكن جميعها موصودة، باب الحريق وحده هو الذي يترك مفتوحًا تحسبًا لأي ظروف. سور السطح منخفض، وبإمكان أي شخص يرفع نظره لأعلى أن يكتشفه، والمكان خال تماما من أي شيء يمكن أن يتوارى خلفه، احتار في أمره لبعض الوقت، وأخيرًا استطاع أن يختار زاوية مناسبة يمكنه من خلالها تصويب فوهة سلاحة للهدف، ثم ضبط ساعته وهبط الدرج مسرعًا ليحسب الوقت الذي يستغرقه في ذلك.

كان يعلم تمامًا أن اختيار المكان، وضغط الزناد، وطريق الهروب، هي عدة خطوات من خطوات كثيرة يجب على القناص أن يدرسها جيدًا لإنجاح العملية، وإلا ما قيمة نجاح تسديد الرصاص وقتل الهدف والقبض عليه بعدها؟ لذلك كان يخطط ويدرس جيدًا كل الخطوات قبل وبعد العملية.

وهو يهبط الدرج ذاكرته كانت تداعبه، وتعرض عليه مشهد مدربه وهو ينظر في الساعة الرقمية ويحصي الدقائق بدءًا من مسك السلاح لعملية التنشين كان دومًا زمنه ثابتًا لا يتغير دقيقتان لا أكثر منذ تثبيت الجسد ، كتم الأنفاس وشد الزناد ثم إطلاق الرصاصة، عندما انتهى نظر في ساعته ليجد أنه استغرق 50 ثانية في الهبوط بخطواته السريعة، وبالنسبة له كان هذا الوقت كثيرًا، فقرر بعد إتمام العملية الركض أسرع من ذلك.

أخذ يتريض ويفكر أن كل ما يحتاجه من العالم هو هذا الثقب الذي يسمح له بمرور فوهة بندقيته كل ما يشغل تفكيره هو اختيار مكان جيد لاقتناص الهدف حتى تنجح الرصاصة في خرق الجسد وترديه قتيلًا ثم يولي ظهره مغادرًا بذات الخطوات الواثقة لا يعنيه بعدها شيئًا لا الدمار ولا الخراب ولا الدماء النازفة ويعقل أن يكون في مفكرة حياة أحد سوى ترتيب خطط للقتل لماذا ترك الحياة بكل صخبها وهدوءها أمالها وإحباطاتها مباهجها وأحزانها وسجن نفسه داخل هذه الدائرة المغلقة ولم يستطع يومًا النفاذ منها؟!

كان مزاجه سيئا ويريد أن يبدله، فكر أن يذهب لنايت كلوب ولكن سرعان ما غير رأيه فهذه الأماكن تزيد من حزنه وعزلته. لماذا لا يذهب لمشاهدة فيلم؟ استقل المترو الذي ذهب به لوسط المدينة حيث المراكز التجارية وصالات العرض، وهناك وجد نفسه حائرًا ماذا يشاهد؟ كانت هناك إعلانات لعدد كبير من الأفلام المتنوعة ما بين عنف ورعب وكوميديا وخيال علمي، استقر اخيرًا على فيلم كوميدي، فلم يكن يملك مزاجًا أو قدرة على التفكير ليشاهد فيلمًا عن الخيال العلمي، وبه ما يكفيه من حزن فليس هناك من داع لفيلم درامي.

خمسة عشر دقيقة باقية على العرض، وقف بإحدى الزوايا ينفث تبغه ويراقب الناس من حوله، انتبه أنه هو الشخص الوحيد الذي جاء لصالة العرض دون صحبة، فالحاضرون إما ثنائيات أو مجموعات، بالنسبة له كان الوضع مختلفًا، فلا صحبة له غير نفسه، تساءل: لماذا أنا دومًا مختلف عن الناس؟ لماذا لا أعيش حياة سعيدة عادية وبسيطة تمامًا كأي رجل في منتصف العمر ترقى ليصبح مديرًا بعمله وعنده أسرة جميلة ومنزل صغير بحديقة يحيط بها سياج أبيض ويتمدد على مدخله كلب للحراسة؟

هل نحن الذين نختار أقدارنا أم هي التي تختارنا؟! توزع علينا الأدوار المختلفة، هذا مجرم وهذه الضحية، هذا الظالم وهذا المظلوم، وهنالك القوى والضعيف، حتى لا يصيبه الملل يتسلى القدر بتوزيع الأدوار علينا بينما عن كثب يظل في مراقبتنا، ولكن من منا يمكنه أن يلوم القدر أو يعاتبه؟! لا أحد يملك الجرأة ليصيح: لماذا هذا نصيبي من خططك بل كلنا نسير باتجاه مصائرنا بنفس راضية؟

ذهب ليبتاع علبة من الذرة المقلية ليمنح نفسه إحساسًا بأنه إنسان عادي بآمال وأحلام عادية ومشاعر طبيعية وبإمكانه أن يذهب لصالة العرض السينمائي بصحبة علبة من الذرة المقلية، تذكر وقتها (عائشة) مؤكدًا ستكون سعيدة جدًا لو كانت بصحبته الآن، مسكينة حقًا تلك الفتاة، أي قدر جعلها تقع في حب شخص مثله مهمته حصد الأرواح، ترى إذا عرفت حقيقته ستدعه وتذهب مثلًا؟ خرج من الفيلم ولم يتذكر مشهدًا واحدًا من هذه المشاهد التي جعلت ضحكات الجمهور ترج الصالة رجًا، فمنذ أن أغلقت الصالة أضواءها لعرض الفيلم، وحتى عاودت إضاءتها مرة أخرى وطوال مدة العرض السينمائي لم يشغل باله سوى التفكير في إجابة عن هذا التساؤل الذي ذهب به لزمن آخر زمن صنع منه أن يكون ذلك القناص.

لم ينتبه للشريط السينمائي الذي كان يدور في الآلة، كان مشغولًا بشريط آخر يدور في آلة عقله كان شريطًا قديما صوره بالأبيض والأسود وأثر الزمن على الصوت فغلب عليه الوشيش.

كما لو أن اندماجه في التفكير بها تسلل إليها وجذبها نحوه فغلبها الشوق اليه والتفكير فيه، فعندما تساءل مع نفسه لماذا ترضى بطباعي الغريبة؟!كان هو ذات السؤال الذي يدور بخلدها في التوقيت نفسه: لماذا أنا واقعة في حبه حتى الثمالة بالرغم من كل طباعه الغريبة؟!

كانت تسافر بالقطار الليلي عائدة مرة أخرى لباريس بعد إجازة قصيرة قضتها مع أسرتها المغربية في ضاحية ليون بالجنوب الفرنسي

أثناء رحلتها كانت تراودها ومضات من الذاكرة، رجات القاطرة كانت تتناغم تمامًا مع إيقاع حياتها، الأرصفة الموحشة التي يمر بها القطار هي أرصفة عمرها، وجوه كثيرة تصعد وتهبط، لوحات بأسماء مدن، إضاءة باهتة تتسلل من أعمدة الإنارة، بينما ظلام كثيف يواصل رحلته معها، ظلام كظلمة سؤالها -إلى متى علي أن أستمر في حب رجل لم يحاول لمرة واحدة أن يسمعني كلمة غزل أو حب؟

من كابينة هاتف عمومية قام بالاتصال بها، وهي المرة الأولى التي يتصل بها خلال مهمة عمل، فهو عادة يختفي من الحياة نهائيًا نازعًا خلفه أي أثر ولا يظهر إلا بعد انتهاء مهمته، ولكن هذه المرة شعور غريب طغى عليه ، فلم يلقي بالًا لشيء سوى أن يسمع صوتها.

ظهر عندها مفتاح المدينة التي يتحدث منها وعلمت أنه خارج باريس. سعادتها بسماع صوته شغلتها عن أن تسأله أين أنت؟

لم يقل سوى (كيف حالك؟) وبضع كلمات.

واغلق الخط بينما ظلت هي معلقة على حبل أوتاره الدافئة والكسولة التي تحبها.

كثيرًا ما تعرضت لسخرية ولوم صديقتها المقربة على العلاقة الغريبة التي تربطهما، فهي تقضي عطلاتها الأسبوعية بدونه، وفي الإجازات الطويلة هي وحيدة، وفي الحفلات والمناسبات لا يظهر معها أبدا، بين الحين والآخر تسألها ما الذي يجعلك تتعلقين به إلى هذا الحد؟ وبماذا عليه أن تجيبها وهي نفسها لم تكن تدري؟

ربما هي خدعة الحب المحيرة، فهو دوما يهوى الإيقاع بنا في فخ عشق أشخاص ونظل نتساءل دوما: لماذا أحببنا هذا الشخص دون غيره؟

كان يكفيها هذا الإحساس الذي تملك منها عن رؤيته للمرة الأولى في ظهيرة ذلك اليوم عندما حملت غسيلها الذي بحاجة للتنظيف، وذهبت به للمغسلة، كان يجلس في الصالة يتصفح الجريدة في انتظار انتهاء الآلة من عملها، وضعت القطع النقدية وضغطت على زر التشغيل ولكن الآلة سحبت النقود ولم تعمل، مدت يدها في جيب سترتها فلم تجد معها ما يكفي من نقود معدنية لتشغيل آلة أخرى، بخطى مترددة ذهبت إليه وأخبرته أنها في حاجة لنقود معدنية.

كان يجلس بكبرياء واضعا ساقًا فوق أخرى ومنهمكا بقراءة موضوع في الجريدة، ببطء رفع عينيه ونظر إليها دون أن ينظر تمامًا، بتلك النظرة الخاطفة، واكتفى بأنه هز رأسه معتذرًا، بالرغم من فتوره وعدم اهتمامه لمحت في نظرته وعدًا بأشياء جميلة، ومن خلف الجريدة كان يراقبها وهي تجمع بعصبية غسيلها المتسخ مرة أخرى لتمضي به، جذبته روح الشرق التي بها، شعرها الأسود الغزير وجسدها الممتلئ وعيونها الواسعة بلون العسل تظللها رموش طويلة، عندما غادر كانت لا تزال تقف على ناصية الطريق تنتظر الحافلة، اقترب منها وفتح النافذة الكهربائية لسيارته:

- أعتذر، لأنني لم أستطع مساعدتك.
- لا داعي للاعتذار لا ذنب لك، كل ذلك من هذه الآلة اللعينة.
- أريد أن أعوضك عن ذلك. هل تقبلين دعوتي على فنجان من القهوة؟

كانت حريصة في علاقتها مع الغرباء، ولكن عيناه كانت تعدها بأشياء جميلة، أشياء حرضت التهور فيها، فلم تستطع الرفض، فيكفيها أن تكون بصحبته حتى لو في عمر فنجان من القهوة، في هذا اللقاء هو لم يتحدث سوى بضع كلمات، في حين لم تتوقف عن الحديث والأسئلة.

أبدًا لم تكن يومًا ثرثارة أو فضولية ولكن هناك شيئا ما فيه فجر فيها كل هذه الطاقات، كان يراقب حيويتها وفضولها باندهاش، ومع الوقت أيقن أنها تشكل معه ثنائيًا غريبًا؛ لأنهما كانا على نقيض بعضهما الآخر، صخبها كان به الكثير من الاستفزاز لصمته، وحيويتها كانت تعوض ما به من سكون، وهذا المرح الذي تبثه في أنحاء المكان يضفي شيئًا من البهجة على روحه ويخفف ما به من رصانة وحزن، وتلك الأنوثة المحتشدة بها كانت محرضة لعنفوان ذكورته، في بداية علاقتهما حاولت أن تتسلل لعالمه، ولكنها فشلت، فكان يغلقه بقفل محكم، وأي محاولة لفتحة للتلصص عليه أو العبث فيه كانت ستقود علاقتهما للنهاية، وفى صمت اتفقا على أن يعوض كل منهما الآخر بتضاده.

الصورة التي يملكها للهدف لم تكن كافية لتدله عليه فالتصويب على بعد عدة أمتار ومن ارتفاع كبير، لذلك طلب من المنظمة أن ترسل أكثر من صورة بشكل أوضح حتى يتسنى له أن يتعرف عليه، رن جهازه إيذانًا باستلام ملف يحمل أكثر من صورة للهدف، أخذ يطالعها وهو يجلس في بهو الفندق الذي سيكون محل إقامة الرجل، كان مختفيًا خلف نظارة شمسية سوداء تغطي نصف وجهه، بعد أقل من ساعة دخل الهدف المكان وذهب لمكتب الاستقبال مباشرة، ظل يراقبه من شعر رأسه حتى الطرف الأخير منه، ثم غادر.

ذهب بعدها لمكتب الشحن حتى يتسلم آلته الموسيقية، هكذا يتراءى للجميع، بينما كان يعلم وحدة ماذا تخبئ تلك العلبة، وفي المساء كانت سيمفونية الفصول الأربعة تصدح في أنحاء المكان، وعلى وقعها كان ينظف سلاحه بروية وحزن، تمامًا كما ينظف محارب قديم سلاحه، هذا السلاح الذي تربطه به علاقة خاصة ووثيقة لم يعد باستطاعته أن يتخلى عنه أو يفكر في أستبداله ، هناك ألفة خاصة تجمع بينهما ، لم يكن بالنسبة له مجرد سلاح؛ كان كصديقه العزيز الذي يفضي إليه بسره وألمه، وكان السلاح ينصت إليه جيدًا. بحرصه واعتنائه الزائد به سرب له الحب فبادله إياه، لذلك لم يذكر أنه في مرة خذله.

في صباح ضبابي جمع أشياءه وغادر الفندق متجهًا لمحطة القطار، حجز خزينة خاصة ووضعها بها. كان منظمًا ودقيقًا في كل ما يخص عمله. يغادر المكان بالغموض نفسه، يحرص على ألا يترك أي أثر وراءه، أقصوصة من ورق، رماد تبغه، حتى شعرة سقطت منه سهوًا على الوسادة، لذلك كان دومًا العميل الأكثر طلبًا لإنهاء المهمات الصعبة، بالإضافة طبعًا لكفاءته. دومًا هناك عقدة ما لكل مهمة حتى وإن كانت سهلة، وعقدة هذه المهمة هي دخوله للمكان، كان من المستحيل الدخول من الأبواب الرئيسية؛ لأنه كان يحتم عليه المرور من الأجهزة الإلكترونية ومؤكد كانت سوف تكشف سلاحه وتصدر رنينها. إذن ليس على سوى المرور من البوابات الخلفية التي تمر منها الفرق الموسيقية، أشعل تبغه ووقف في زاوية مستندًا على الجدار معلقًا آلته فوق كتفه ومنتظرًا أن تحضر الفرقة، دقائق قليلة وحضرت حافلة صغيرة تحمل أعضاء الأوركسترا. دهس سريعًا تبغه بحذائه واندس بينهم، ولكي يتفادى نظراتهم وتساؤلاتهم تصنع أنه يتحدث في الهاتف واضعًا على وجهة تعابير غاية في الأهمية ما بين قلق وحزن وعصبية، وبتلك المكالمة الوهمية مر معهم من البوابة المخصصة لدخول العاملين وأعضاء الفرق الموسيقية حيث لا وجود لجهاز إلكتروني عليها، ثم بحذر تسلل من بينهم واتجه مباشرة نحو السطح، وهناك اتخذ وضع القنص من زاوية معتمة.

ثم ظهر الهدف.. جاء بصحبة امرأة جميلة أنيقة مسكينة لن تنسى أبدًا أن رحلتها السياحية مع من تحب تحولت لجريمة قتل وستظل صورة عشيقها وهو مرمي ارضًا تداعب خيالها ما تبقى لها من عمر. لوهلة شعر أنه مشتت التركيز تفكيره في تلك المرأة أزاح الهدف من بؤرة العقل وفي مهنته تلك لا مجال للتشتت لأنها رصاصة واحدة تطلق في مرة واحدة لتصيب الهدف من المرة الأولى. وللمرة الأولى ترتجف يداه، تنفس بعمق ونظام المرة تلو الأخرى ثم سحب نفسًا عميقًا وكتمه. تردد يطلق الرصاصة أم لا ، شعر أن أصبعه ثقيلًا وغير قادر أن يضغط على الزناد. الوقت يمر سريعًا وليس هناك من خيارات إما أن يطلق الرصاصة الآن أو لا يطلقها أبدًا.

وبصعوبة انطلقت الرصاصة ، فرحة بأنه قد سمح لها أخيرًا أن تؤدي عملها الذي أنتجت من ؛ أجله فما قيمتها إذا لم ترشق جسد أحدهم وتأخذ روحه؟! وبالرغم من كل ما به من تشتت وارتباك فالرصاصة أصابت الهدف في مقتل. هذه الحالة استفزت كفاءته وثقته بنفسه، لذلك على غير عادته لم يركض هربًا بعد انتهائه من مهمته، بل جلس أرضًا، كان هناك ثقل في ساقيه كما لو أنهما مخدرتان ولم تعودا تقويان على حمله، يعلم جيدًا أن كل دقيقة تمر يصبح وضعه أكثر خطورة، فبصعوبة حمل نفسه وهبط الدرج الحلزوني وفر هاربًا استقل المترو ليذهب للمطار، ومنه أرسل رساله وضع فيها كلمة "تم" وبعثها على الرقم الكودي للمنظمة.

كان وحده في عربة المترو الباردة والمظلمة، أسند رأسه على النافذة، غطت سحابة من بخار ماء تنفسه الزجاج ومن خلفها تراءت له ظلال وجوه ، ذكريات اليمة هجمت عليه فجأة ،جعلته لا يقوى على كبح دموعه فأجهش بها ، كانت كينبوع مدفون في تربة رملية ينتظر ضربة فأس من أحدهم لتنفجر شلالاته، وها هي انفجرت و بللت داخله وغسلت العفن الذي كسا روحه. في الثواني التي مرت عليه بين وضعية القنص وإطلاق الرصاصة استيقظ ضميره وشعر بأنه لا يقوى على قتل هذا الرجل، فما كان منه سوى أن استدعى مشهد قتل أهله بكل تفاصيله وصوت الرصاصات وهي تنطلق لتخترق أجسادهم يصم أذنه فصارت شهوة الانتقام بداخله كسريان النار في الهشيم، واستطاع وقتها أن يضغط على زناده، دهس تبغه بحذائه وهو يحدث نفسه قائلًا:

- لقد تمت العملية بنجاح وهذا كل ما يهمني.

بين مطارين... وهو في انتظار الطائرة التي سوف تقله حيث قدره. أخرج ذلك الكتاب بأوراقه المصفرة، وكلما قلب إحدى صفحاته المفتتة ينتابه شعور بأنه يعرف هذا الرجل وبأنهما تقابلا في زمن آخر، وبأنه يشبهه في الكثير من الأشياء ليست وحدها مفارقات القدر التي جعلت قصتهما تتشابه إلى حد أنهما أصبحا واحدًا، ولكن أيضا كانت مشاعرهما واحدة، وإصرارهما على الانتقام وصمودهما على تحقيقه.

الفصل التاسع

في الصباح خرجت لأجمع معلومات عن الرجل الذي قتل عائلتي. لم أكن مرتبكًا وخائفًا كالمرات السابقة التي كنت أبحث فيها عنه، أصبحت أكثر قوة وشجاعة لمواجهته فذهبت أبحث عنه بثقة وحماس. وأركض بالجواد من شارع لآخر حتى وصلت لباب الرملة، وذهبت لمنزل "ليناردو داليمار" وعلى مقربة من منزله جلست أراقب الغادي والذاهب، وأتحدث مع هذا وذاك لأحصل منهم على معلومات أكثر، علمت أن له زوجة جميلة تعمل وصيفة في القصر الملكي، وله من الأولاد خمسة كانوا جميعهم بالمنزل وكان بإمكاني أن أدخل وأقوم برشقهم جميعا وأتركهم له جثثًا هامدة، بل وليس هذا فقط من الممكن ايضًا أن أسحب ابنته ورائي كما فعل هو في زمن سابق وأدعه يحيا ما تبقى له من عمر بحسرته عليها، ولكني أترفع عن فعل تلك التصرفات الحيوانية، ما الذي جناه أطفاله وما ذنبهم ليكون هذا الوحش بلا رحمة هو أباهم، وكيف لي أن أصوب سلاحي باتجاه قلوب الأطفال البريئة. ومن المعلومات التي جمعتها عرفت أنه ترقى في منصبه وأصبح حاكمًا للمنطقة، وذلك يحتم عليه أن يذهب ويأتي في حراسة مشددة وسط مجموعة من الجنود يحيطون به وبفرسه، البعض يسبق طريقه والآخر يركض خلفه، راقبته أيامًا وليالي طويلة، وانتظرته في دخوله وخروجه ربما يخرج بدون حراسة ووقتها يمكنني أن انفرد به وانقض عليه، ولكن الحقير من هول أعماله كان يعلم أي مصير ينتظره فلم يغادره أفراد حراسته ولو لطرفة عين.

ذهبت أتفقد أحوال وشوارع البيازين، أخذت أتنقل فيها من شارع لآخر ومن زقاق لزقاق، حتى وصلت لبيتنا، علمت أن القشتالين قد صادروه، ولكن بقي على حاله لم يغيروا منه شيئًا اكتفوا فقط بوضع قفل حديدي على بوابته قفل علاه الصدأ.

- هل حقًا المنزل مسكون؟

هكذا كان يردد أهالي الحي والجيران. يسمعون ليلًا أصوات صراخ ونحيب ووقع خطوات مهرولة على الأرضية. هل هذه أرواح ساكنيه الذين منعوا أحدًا من الاقتراب منه؟ فكلما اقترب منه أو دخله أحد يتعرض لحادث يمنعه من الاقتراب منه مجددًا. عمال الهدم الذين بعثتهم الحكومة لهدم المنزل وتجديده، وما إن دخلوا المكان واستعدوا لهدم جدرانه حتى وقع جزء كبير من الجدار فوق أحدهم وعامل آخر انزلقت ساقه وكسرت، ويقسم آخر بأن الإزميل تيبس مكانه ورفض أن يتحرك في يده! فربما هي حقًا أرواح من قتلوا غدرًا ما زالت تسكن المكان تنتظر الخلاص.

شلال من الذكريات فاض بي عند رؤيتي منزلنا، تسمرت أمامه أكثر من ساعة كاملة من بين أسوار حديقته كانت تتراءى لي صورة أمي وهي تسقي النباتات التي كانت حريصة على زراعتها كالريحان والخزام والياسمين. عندما دققت النظر أكثر واقتربت من باب الحديقة هالني ما رأيت لا تزال الياسمينة تثمر وتطرح الياسمينات البيضاء التي تطل برأسها من بين الخراب والدمار تتسلق الدور العلوي من المنزل وتلتف على شرفة نوم أبي وأمي. كان مشهدها يثير في النفس الدهشة والخوف معًا، من أين لهذه الياسمينة أن تنمو؟!! وهي التي تحتاج لتربة خصبة والكثير من الماء، والتربة أمامي بائرة وجافة الأمر محير فعلًا! يقولون إن الياسمين يثمر أكثر

إذا سقيته بالدماء هل اختلط دماء الذين قتلوا مع ثرى التربة وطميها؟ ليصبح هذا المكان كسائر أرض غرناطة مسقية بدماء الأجداد حتى إن لم يكونوا قتلوا دفاعًا عنه فقد قتلوا بالغدر من أجله ايضًا.

عرجت بعدها على دكان عمي فلم أجده هناك أخبرني العامل أنه لم يعد يأتي للدكان لإصابته بمرض عضال، حزنت كثيرًا من أجله وقررت الذهاب لمنزله لأطمئن عليه بالرغم من أنني لم أشأ أن أظهر في المنطقة، كنت أريد أن أنتهي من مهمتي وأعود ادراجي في الجبل منعًا من أثارة الشكوك لي ولمن هم من حولي، ولكن كان من الصعب على أن أعلم بأمر مرضه ولا أذهب لزيارته، طرقت بابه بالمطرقة الخشبية التي نقش عليها آية قراءنية طرقة ثم أخرى، فتحت لي طفلة صغيرة الباب فسألتها: مرحبًا هل عمي موجود؟

أتى صوت من بعيد يسألها:

- من بالباب يا كريستينا؟

فتحت كرستينا الباب على مصراعيه يطالعني وجه زوجة عمي وهي تجلس في فناء الدار تقوم بغربلة الطحين، أخذت تضيق في عينها تارة وتوسعهما فيّ أخرى وهي تتأملني ثم عندما تعرفت على صاحت قائلة:

- خالد.

ببطء رفعت جسدها الثقيل لمصافحتي.

- تغيرت كثيرًا، ما الذي فعله الزمن بك؟

- صرت رجلًا الآن يا خالة.

أخذت تلاحقني بالأسئلة.

- كيف حالك؟ قص علي أخبارك.

وعندما انتبهت أنها لم تدعني للجلوس بعد.

- اعذرني، فالمفاجاة أربكتني.

اصطحبتني للداخل حيث دفء غامض لا تعرف من أين ينبعث مقارنة ببرودة الطقس بالخارج، كانت رائحة البيت كما هي لم تتبدل، مزيج من روائح الطهي الشهية ورائحة مشروب القرفة التي تفوح منه. كان عمي راقدا في فراشه بعدما أقعده المرض عن الحركة وبدله من حال لأخرى وأضاف سنوات لعمره. ابتسم في وجهي فعانقته، وجدته وقد زال شحمه ولحمه وتحول لعظام يابسة ، قصصت له كل ما حدث لي خلال تلك السنوات الماضية، ولا أعرف هل كان يعي ما أقوله؟! كان ينصت لي ولكنه زائغ العينين في المدى البعيد هناك حيث لا أحد. أتت امرأة عمى بشراب القرفة بالزنجبيل ووضعته أمامى، سألتها:

- ما الذي حدث له؟

- في أحد الأيام الشؤم كانت نيالة تتحدث العربية مع صديقتها في الطريق بينما كان هناك جندي قشتالي على مقربة منهما فسمع أطراف الحديث فذهب إليها ووكزها في قلبها بكعب بندقيته وطلب منها أن تتحدث القشتالية. آلمتها الوكزة واستفزتها طريقته معها، وكما تعرف كم هي عنيدة وعصبية، فأخبرته أنها لن تتحدث سوى العربية ولا تعلم سواها لغة ومهما فعلوا فعرب الأندلس لن ينسوا لغتهم ودينهم، هكذا خرجت الكلمات من فمها بدون وعي أو تفكير فاقتادها لمركز الشرطة وبقيت في الحبس حتى صدر قرار تعذيبها في محاكم التفتيش ومن يومها وهذا هو حال عمك.

جاءت الطفلة الصغيرة ورمت بنفسها في صدر جدتها

- هذه ابنتها، انظر كم تشبهها! للاسف لم تر أمها منذ سنوات حبسها. تزوجت بعد ذهابك بعام وأنجبتها في العام الذي يليه. زوجها رجل طيب يدير دكان عمك الآن.

اسم واحد ظل عالقًا على لساني أخشى أن أنطق به حتى لا أصاب بخيبة أمل كنت أريد أن أسالها (عائشة هل تزوجت أيضا؟) وكأن المرأة سمعتني! فقالت:

- تزوجت نائلة وزينب أما عائشة فرفضت جميع من تقدم للزواج منها لا أعلم تحديدا ما الذي يدور في رأسها.

- وأين هي الآن؟

- ذهبت للتبضع من السوق.

ذهبت المرأة بقوامها الثقيل لجرن الدجاج تناولت عدة دجاجات وقامت بذبحها وجلست تنتف ريشها وهي لا تتوقف عن الحكي، وفجأة طرق خافت على الباب فتجري كرستينا وتفتحه وتصيح:

- خالتي عائشة.. خالتي عائشة.

وتطل عائشة برأسها:

- يا الله ما أجمل طلتك! وما أجملك!

نضجت عائشة وكبرت لم تعد الفتاة الصغيرة تجاوزت الثامنة عشرة من عمرها ولكنها ما زالت تعقد شعرها في جديلتين تتدليان على كتفيها وتربطهما بشريطة بيضاء، وتكحل عينيها فيزيدهما الكحل جمالا وسحرا. ترتدي تنورة واسعة على قميص أبيض وتنبعث منها رائحة ياسمين فكما لو أنها ياسمينة سقطت من شجرتها.

اقتربت لمصافحتي وبصوت أقرب منه للهمس:

- خالد!

- عائشة!

ذلك اليوم لم نتحدث كثيرا. لم تسألني متى رجعت وكم ستمكث. كلمة واحدة كانت في عينيها:

- اشتقت إليك.

تعانقنا يومها وقبلتها وتحدثنا بكلمات الغزل والعشق. نعم تحدثنا دون أن نتكلم وتعانقنا دون أن أضمها إلي وقبلتها دون أن ألثم شفتيها.

طلبت منى امرأة عمي أن أقيم معهم فما زالت غرفتي كما هي منذ أن تركتها وأضافت:

- عائشة تحرص يوميا على نظافتها وتبدل أغطية الفراش وتقول: ربما يأتي اليوم أو الليلة فيجدها نظيفة.

نظرت لعائشة لأجد وجهها احمرَّ خجلا من كلام أمها.

- آسف زوجة عمي، فأنا جئت من أجل مهمة سأنفذها وأرجع أدراجي.

عندما سمعت عائشة ذلك كسا وجهها الحزن والتساؤل اللذان أجبراها على أن تنطق أخيرا وتقول:

- أي مهمة هذه؟ لماذا لا تستطيع أن تنسى فما حدث قد حدث؟

- هل هذا رأيك حقا؟!

- ما الذي سوف تستفيده من ذلك؟! هل سيكف القشتاليون عن قتل العرب؟! هل سيكفون عن التمادي في ظلمهم؟! هل سيتركون البلاد ويذهبون؟!! إنه قدر يا خالد وقد حدث. لم تكن عائلتك هي أولى ضحاياهم ولا آخرها. إنهم مجرد بشر ضمن أعداد كبيرة من الذين يعذبون ويقتلون كل يوم. إنك ترمي بنفسك للتهلكة، أتعلم لو علموا بأمرك وقبضوا عليك؟! ما هي الويلات التي سوف تتعرض لها في محاكم التفتيش؟!!

كنت اعلم أن هذا ليس رأيها. كانت تحاول أن تثنيني عن قراري حبا فيّ وخوفا عليّ ولكن أيتها الجميلة أتعلمين أننى أحبك بقدر ما تحبيننى وأكثر...

- لا أستطيع أن أواجه نفسي وأعيش كما لو لم يحدث شيء لا بد أن أنتقم لبلدي وأهلي وأشفي غليلي لأحرر تلك الأرواح التي قتلت غدرا.

علمت بمدى تصميمي وأنه لا جدوى أو طائل من محاولاتها معي لأتراجع عن خططي، فأخرسها اليأس عن الكلام. ولكن عينها كانت تعاتبنى قائلة:

- ها أنا كنت أنتظرك طويلًا وها أنت هنا أخيرا ولكنك جئت لتزيد الجرح فتقا وتخبرني أنه لا أمل.

وعندما هممت بالمغادرة سألتني:

- هل سنراك مرة أخرى؟

- نعم سأمر لوداعكم.

عائشة حبيبتي والصبية الوحيدة التي نبض لها القلب ها أنا أغادرها مجددا وأتركها وحيدة وبائسة ترى هل كانت تعلم أني أحبها وأن سنوات الفراق قد زادت من حبيلها؟ خشيت أن عشقي لها يثنيني عن القيام بمهمتي لذا ودعتهم وذهبت.

الفصل العاشر

في طريق عودتي أصبحت أشعر أن هذه المدينة لم تعد لي وكأني ضيف ثقيل لم تعد ترحب به. كل شيء فيها وبها تبدل: الناس، الأماكن، الشوارع، حتى النهر.

أهيم على نفسي في الطرقات التي تفضي بي لطرقات أخرى، أسمع رنين أجراس الكنائس فأنظر لأجد هذه المدينة وقد هدمت مساجدها وعلت كنائسها وأصبحت أكثر منازلها مهجورة بعدما تركها أهلها وذهبوا بلا رجعة. أبوابها المتهالكة التي لم تغلق بأحكام وجدرانها التي يعلوها العنكبوت وحدائقها التي باتت خربة تشي بأن أهلها تركوها على عجل ليذهبوا بلا عودة، فمن أي شيء تراهم هربوا مسرعين؟ أمن عدو متربص بهم أم من قدر غشيم أوقعهم في فك هذا العدو وسلمهم له؟!

يسير بي الجواد ببطء وكأنه يهدهدني على لحن أغنية حزينة. انحرفت مع مجرى النهر حتى شارع الساقطين، سوق الحرير، سكة الصنادقية، سوق الفخارين، كل الأماكن التي كنت أذهب إليها برفقة أمي أتشبث بطرف ثوبها بيد وبالأخرى، ألتقط بها كل ما يمكن أن تطوله من حلوى تباع على الأرصفة كان هذا منذ زمن جميل. زمن كانت الشوارع فيه لها رائحة خاصة، روائح الحلوى التي تقلى وتغمس في الشربات المحلى وأصوات الباعة وهي تنادي بنغمات ملحنة وكلمات مسجعة على بضائعها، والأهم من هذا كله كان وجود أمي في هذه الدنيا. اليوم سكنت شوارعها الوحشة والغربة أغلقت الدكاكين وهدمت الدور والأسواق، أقلب بصري بين العابرين أراهم مسرعي الخطا بخوف وتوجس كأن وحشا يتربص بهم أو فاجعة ما في انتظارهم. صار الخوف ينوب عنهم، عن أسمائهم عن ملامحهم أحيانًا، كنت ألتقي بعضًا من معارفي عند مفترق الطرقات نصافح بعضنا الآخر في لقاء عابر وسريع لم يكلف أحدًا أن يسأل الآخر كيف هو حاله؟ وماذا فعلت به الحياة ؟ لم يعد هناك أحد بإمكانه أن يضيف ثقلًا جديدًا فوق ثقله، ولم يعد هناك أحد يملك مقدرة أن يتقاسم مع احد في الشقاء والهم ، كان يكفيهم ما بهم .

بحلول الظلام ينتشر العسكر والجنود القشتاليين في جميع أنحاء المكان يمرون ببنادقهم الطويلة على أجنابهم وخوذاتهم الحديدية تكلل رؤسهم يتجولون في انحاء المدينة بعلياء وتكبر يتسلون بتقضية وقتهم في سؤال الذاهب والقادم: من أنت؟ وإلى أين تذهب؟ ولماذا لم تبكر في عودتك للبيت؟ ومن يشكون في أمره يسحبونه معهم لمركز الشرطة حيث يجري هناك تلفيق التهم لهم والزج بالأبرياء في السجن. في زمن مضى لم يعد له وجود كان الدرابيون يتجولون في الشوارع ليلًا يحملون في أيديهم قناديل الزيت كطاقة من النور يضيئون بها الطرقات بعباءاتهم البيضاء، كملائكة تحرس القادم والذاهب يدلون من ضل طريقه ويساعدون من يحتاج المساعدة ويتحققون من الأمان في الطرقات، وعند تأكدهم أن جميع سكان الحارة خلدوا للنوم يحكمون إغلاق الأبواب الخشبية الكبيرة بالمزاليج كأم حنون تحرص على أن تدثر أبناءها في نومهم بغطائهم الوثير. أين هم ذهبوا؟! وأين أيامهم؟! لماذا اختفوا هم وعباءاتهم الصوفية البيضاء وقناديل الزيت التي كانت تشع أمانًا ومحبة وتنير لنا طرقات حياتنا وظهر بدلًا منهم هؤلاء الجنود بملامحهم القاسية وبملابسهم الغريبة وببنادقهم الطويلة؟! ولكن مهما تساءلت فهل يجدي التساؤل بشيء؟!

خلدت هذه الليلة للنوم ولم يفارقني طيف عائشة كنت أحلم أني أضمها ،أشعر بحرارة أنفاسها ونعومة ملمسها وهشاشة عظامها، كنت أضمها في حلمي طالما لم يكن في استطاعتي أن أضمها في صحوي.

أثناء خروجي صباحًا سألني موظف الخان ليخاندرو أو أبو عامر قبل أن ينتصر في البدء شككت أنه قشتالي حقيقي وليس منتصرًا ، كان يتحدث القشتالية دومًا ويحرص على الذهاب للقداس ويشعل الشموع ويتدلى الصليب الخشبي من رقبته.

- هل حصلت على عمل؟
- ما زلت أبحث. كل الأبواب مغلقة بوجهي.
- ما رأيك لو عملت في الخان؟ نحتاج عمالًا لتنظف الغرف وتجلب طلبات الزبائن من السوق نظير راتب معقول وإقامة مجانية بملحق الخدم؟
- عذرًا ليخاندرو لا أقوى على ممارسة تلك المهنة.
- يمكنك أن تطلق علي عامر.
- حقًا أنت عربي! كنت أعتقد أنك قشتالي نادرًا ما سمعتك تتحدث العربية وحرصك على ارتداء الصليب دائمًا.
- كلنا يعلم أن كل ما نقوم به نفاق ورياء لنبعد عنا ظلم وأذى القشتاليين ولكن ما في القلب سيظل في القلب فسواء ناديتك (أنطونيو) أم أناديك (خالد) هل ستفرق الأسماء وقتها؟

ابتسمت له بينما واصل كلامه:

- لا أعرف ما الذي حدث لهم هذه الأيام؟ يخرج المنادون لينادوا بالشوارع والأزقة بالقوانين الجديدة (عدم التحدث بالعربية بتاتًا – عدم حمل السلاح – عدم إقامة الشعائر والطقوس الدينية – إغلاق الحمامات العامة) ولكن هذه المرة وكأن نارًا تستعر بداخلهم بالأمس ذهبوا لغرناطة وأخذوا يطوفون بأحيائها وشوارعها الواحد تلو الآخر، يطرقون الأبواب بقسوة وغل ثم يفتشون المنازل بحثًا عن كتب أو مخطوطات بالعربية أو كتب دينية.

العم (محمود) هذا العجوز المسكين كان يعمل هنا منذ زمن طباخًا بالخان كان يحتفظ بعدد من الأدعية والأحجبة صرها في كيس من الخيش ووضع الكيس أسفل فراشه وتركه هناك ما يزيد على الثلاثين عامًا حتى نسي أمر وجوده، بالأمس أثناء تفتيشهم لمنزله عثروا عليه واقتادوا الرجل العجوز الضرير للمركز ،لم يشفع له عجزه أو فقدان بصره ولم يصدقوا كلامه ووحده الله يعلم ما المصير الذي ينتظره.

كان ينتابه شعور قوي وملح في أن يشارك أحدهم الحديث حول فنجان من القهوة منذ متى لم يتحدث مع أحد؟! أكثر من ثلاثة أيام لم يلق بتحية الصباح في وجه أحد ،كذلك هو دائمًا في مهامه ، ولم يجد غيرها في عالمه لتمنحه شعور الصحبة الذي يحتاجه فوجد نفسه يستقل تاكسي ويذهب لعنوان عائشة ، كان متأكدًا أنها الآن في عملها فقرر أن يجلس في انتظارها استعمل مفتاح الشقة الذي يعلقه بدلايته الفضية ، منحته له ليحضر في أي وقت، فتح الباب على رائحة الفانيليا التي تحبها في كل زواية من زوايا المنزل كانت تضع شموعًا برائحة الفانيليا. بالنسبة له كانت رائحة الفانيليا عندما تفوح في البيت دليلًا على أن أمه قد خبزت لهم الكعكه التي يحبونها.

أما هنا فكانت رائحة الفانيليا للشموع المشتعلة لا أكثر. للمرة الأولى كان يلقي نظره باهتمام في أنحاء المكان.كان بسيط وأنيق يشبهها كثيرًا ، فصاحبته كراقصة الباليه الوحيدة التى تقبع في صندوق الموسيقى ما أن تفتح الغطاء حتى تقدم لك رقصتها .

بيتها الصغير هذا كان هو كل عالمها،و لمسات الأنوثة تكشف عن نفسها في كل مكان. أثناء تشغيله ماكينة صنع القهوة ليصنع كوبًا لنفسه. رن الهاتف وبعد رنين طويل عملت تلقائيًا ماكينة الرد الآلي ، تركت لها صديقتها رسالة بصوت أنثوي ناعم أخبرتها (سأنتظرك في عطلة نهاية الأسبوع أما إن أردت أن تقضيه وحيدة في انتظار حبيبك هذا غريب الأطوار الذي لا يأتي أبدًا فالأمر يرجع إليك وعلى أي حال لا تلومي غير نفسك بعد ذلك) ثم أنهت كلامها بضحكة ساخرة.

تأكد أنه هو المقصود في رسالة صديقتها؛ فمن سيكون غريب الأطوار عداه؟ ولكنها لقبته (بحبيبها)، حجارة صغيرة رمت بها تلك المرأة ذات الصوت الناعم في بحيرة عقله الراكدة لتصنع منها دوائر من الأسئلة، فهل أخبرت صديقتها أنها تحبه؟ وإن كانت تحبه حقًا فلماذا لم تخبره بذلك من قبل؟ ولماذا لم يحاول هو أن يتعمق ولو مرة في فهم تلك العلاقة التي ربطت بينهما وكان مؤكدًا سيفهم أن الحب وحده هو الذي يجعلها في انتظاره على لهفة وشوق؟ وماذا عن مشاعره هو تجاهها؟ وذلك الحنين لرؤيتها، وقضاء وقته معها؟ نعم لم يكن سوى الحب يأتي به إلى هنا ليجلس في انتظارها.

فكرة سريعة مرت برأسه وقرر تنفيذها، أغلق الباب وراءه وذهب ليبتاع زهورًا وشوكولا من محل على ناصية الطريق، رجع سريعًا ورص زهور الأوركيد البيضاء في المزهرية وبمحاذاتها وضع علبة الشوكولا الحمراء التي نحتت على شكل قلب، جو من الفرح والبهجة شاع في أنحاء المكان هو نفسه كان بحاجة إليهما فهل هناك أجمل من الزهور والشوكولا؟! إنها أشياء بسيطة ولكن بإمكانها أن تزيح ولو قليلًا مرارة الواقع.

في الثالثة وبضع دقائق أدارت المفتاح بالباب، كان وقع المفاجأة قويًاعليها، في اللفتة الأولى لمحت باقة الزهور ثم علبة الشوكولا، فارتبكت قليلا ولكنها لم تتساءل من دخل في غيابها، لأنها تعلم أنه وحده الذي يملك تذكرة الدخول لبيتها وقلبها ولروحها أيضا، وعوضًا عن ذلك تساءلت: ما الذي دفعه لفعل ذلك؟! بخطوات سريعة ذهبت للغرفة المقابلة فوجدته جالسًا على الأريكة مشرعًا ذراعيه على مصراعيها وفاردًا ساقيه على الطاولة التي أمامه ، كان هناك تصريح بعناق

قوي وطويل في جلسته جعلها تركض في اتجاهه وللمرة الأولى كانت ضمته لها تحمل كل هذا الحنان الممزوج باحتياج وفقد ،لم يتحدثا اكتفيا بتلك النظرة الطويلة التي جمعتها كما لو كان كل منهما يريد أن يتحمم بالشوق الذي تمتلئ به عين الآخر . هي لم تسأله : ماذا فعلت في الايام الماضية ؟ وهو لم يسألها: ماذا فعلت بدوني؟ اكتفيا بذلك الزخم العاطفي وتلك الذبذبات المحيطة بهما.

كم مر من الوقت عليهما؟! لا يعرفان لكن عقارب الساعة كانت تشير للثامنة مساء ويعني هذا أنه قد مر عليهما الكثير من الوقت.

بصوت يملؤه النشوة والكسل:

- دعينا نذهب للعشاء في الخارج.
- لا أرجوك نتناوله هنا أفضل.

كانت تريد الاحتفاظ بتلك المشاعر الممتلئة بها لأطول فترة ممكنة خشيت من صخب الحياة في الخارج أن يبعثرها ويقضي عليها.

- سأصنع عشاء شهيًا.

دخلت للمطبخ وبدأت في إعداد الكسكس المغربي باللحم والتوابل الحارقة للمرة الأولى كانت تشعر أنه يحبها حقًا بالرغم من عدم لفظه بها ولكن الحب ليس بحاجة للقول هناك مئات الطرق لتعبر عن ذلك وربما هي أصدق. كانت سعيدة وهي تقطع الخضروات وتقلب الحساء وتطهو له على وقع نبضات قلبها لا أكثر. لو كان رجلًا طبيعيًا لكان الآن بمحاذاتها يشاركها الطهي ويتبادلان القبلات والضحكات ولكن هي تعلم تمامًا أنه غريب الطباع؟!

يكفيها ما احرزه من تقدم اليوم في علاقتهما وسخائه معها وتخليه عن جموده وتكفى الزهور والشوكولا ويكفي ما منحه لها من حب ، وفي الواقع كل ما كان يكفيها هو أن تفتح باب بيتها لتجده يجلس في انتظارها.

بينما كانت تعد العشاء كان يتابع على القنوات التلفزيونية أخبار شخص ما سلمه اليوم للعالم الآخر، الأخبار كلها تذيع الحادث الذي وقع فى مدينة (بوردو) الهادئة صباح اليوم وكالعادة أثبتت التحريات أنه القناص ذاته الذي لايترك وراءه أي أثر سوى جسد مسجى على الأرض وتشير الأخبار أن هناك علاقة ما بين هذه العملية وعملية أخرى تمت منذ عدة اسابيع في مدينة براغ، وأنهت مذيعة الاخبار البرنامج بتساؤل: ترى ما دوافع المجرم وراء قتل الرجلين؟

هو نفسه لم يعرف دوافعه لقتل أي من الرجلين غير أنها أوامر يتلقاها من المنظمة وعليه تنفيذها في مقابل مبالغ مالية كبيرة يحصل عليها، ولكن هل كان المال حقًا هو دافعه للقتل؟!

لاحظت وهي تحضر المائدة وتضع الأطباق أنه تقوقع داخل نفسه مجددًا وأحكم إغلاق بابه عليه فأصابتها الخيبة، وأثناء تناوله الطعام لم ينبس ببنت شفة، اكتفى عند انتهائه منه بالثناء على مذاق

طهيها واضعًا قبله فوق وجنتها وغادر على عجل؛ لتقف هي مذهولة من أمرها وتضحك بسخرية وهي تحدث نفسها:

- نعم .. هكذا تحدث الأشياء دائمًا معه.

و قبل النعاس بقليل كان يستلقي على الأريكة يدير مؤشر القنوات بكسل وبغير اهتمام، وفجأة انتفض وعدل من جلسته كانت إحدى القنوات الإخبارية الفرنسية تعرض مشاهد تفصيلية لجريمة القتل التي تمت صباحًا والتي ينسبها البعض للقناص الملقب ب(الفهد القرمزي) هذا القناص الذي لم يخلف وراءه أى دليل دامغ على أنه هو صاحب تلك السلسلة من عمليات القنص طوقت الشرطة مسرح الجريمة بشريط أصفر لاصق واحتشد جمع غفير من رجال الصحافة والبوليس ثم عرضت الكاميرا مشهدًا لسطح الأوبرا الذي رجح خبراء الجريمة أنه المكان الذي قنصت منه الضحية.

بعدها عرضت القناة حديثًا مع أهل القتيل نفت زوجته المكلومة علاقة غرامية ربطت بين زوجها والمرأة التي كانت بصحبته بينما ظهرت على ابنه حالة من الذهول كالتي تعترينا عند وقوع فاجعة. فتى في حوالي الخامسة عشرة من عمره إنه تقريبًا نفس عمره عندما أنهى القناص الأمريكي على كل أفراد عائلته.

ذهب به هذا الفتى لسنوات طويلة للوراء ووضعه وجهًا لوجه مع ماضيه.

يتذكر أنه جلس مكانه لعدة ساعات ثم بثقل الخطا نهض ورفع سماعة الهاتف بيد ترتجف اتصل بالشرطة وبصوت بالكاد كان يخرج من حنجرته أخبرهم:

- لقد قتلت عائلتي

لم يمر كثير من الوقت حتى تحول منزلهم لخلية نحل، يعج برجال الشرطة والصحافة والإعلام تتناوب على وجوههم عدة تعابير ما بين الدهشة والحزن والأسف كان المشهد مأساويًا بصدق بينما انزوى هو في ركن قصي، ولم ينتبه لوجوده أحد عدا دكتور خليل عجمان رئيس الهيئة التي يعمل بها والده وتربطه بها صداقة قوية وعلاقة أسرية وليس فقط علاقة عمل، مظاهر الأسى كانت تبدو واضحة عليه ليس فقط لموت صديق عزيز له بهذه الصورة البشعة، ولكن لأنه يعرف تمامًا السبب الذي من أجله حدثت هذه المذبحة.

كانت فكرة اختراع اليورانيوم في المعامل العراقية دون الاستعانة بخبرات أجنبية ضاربًا بتهديدات أمريكا وإسرائيل عرض الحائط، وتحديًا كبيرًا ومخاطرة لا يعلم عواقبها إلا الله وحده، لذلك كان حادث قتل دكتور رشاد وأسرته ما هو إلا إنذار للعاملين في هذا المشروع لما سوف يحدث لهم تباعًا؟ اقترب منه دكتور خليل وربت بحنان على كتفه وضمه له. بماذا كان عليه أن يواسيه؟ فلو كان إياد أكبر عمرًا كان بإمكانه أن يشد بقوة على يده قائلًا "البقاء لله أنت رجل الآن وعليك مواجهة ما حدث بشجاعة". ولكنه كان أصغر من أن يفهم ذلك وهو بهذا العمر، لذلك اكتفى بلمسات الحنان التي ربت به عليه وأخذه معه لسيارته وطلب منه أن ينتظره هناك.

من خلف زجاج نافذة السيارة مد إياد نظرة للبيت، فجثم على نفسه إحساس بالبؤس والحزن، وكأنه تحول فجأة لقلعة قديمة تسكنها الأشباح ببوابة حديدية صدئة وحديقة مهجورة. كيف تبدل كل هذا ما بين دقيقة وأخرى كيف تحول صخب الحياة لسكون الموت وذبلت الزهور الحمراء والبيضاء وغدت الأغصان يابسة؟!

طلب دكتور خليل من رجال الشرطة أن يؤجلوا استجواب الفتى حتى تسمح حالته بذلك وأخبرهم انه سوف يقيم عنده.

عند مغادرة دكتور خليل بسيارته أدار إياد نظره ومن النافذة الخلفية لمح جثث عائلته وهي تغادر المنزل يحملها رجال الإسعاف على الأسرة المحمولة، هبت فجأة رياح عاصفة باردة عند خروج الجثث، يخرج الواحد وراء الآخر بأغطية بيضاء مصبوغة ببقع من الدم ، استطاع أن يخمن جثة كل منهم ، فمؤكد هذه جثة ابوه طويل القامة ، وهذه جثة أمه الأكثر سمنة، أما هذا فعلي أخوه فهو طويل ونحيف، لاحظ دكتور خليل انشغال الفتى بالنظر للخلف، فنظر في مرآة السيارة الأمامية وعرف السبب فمد يده على رأس الصبي وأدارها للأمام وهو يربت على كتفه .

بعدها دخل إياد في استجوابات كثيرة مع محققي الشرطة عن كيفية وقوع الجريمة وتفاصيلها، كان يظل صامتًا أغلب الوقت أو يكتفي بالرد بهز رأسه بعلامات الإيجاب أو النفي، حدثت بين دكتور خليل ورجال الشرطة الكثير من المناقشات الحادة طالبًا منهم أن يكتفوا بهذا القدر من الأسئلة ويخبرهم أن المشهد بمأساته يتكرر في رأسه الصغير مرة وراء الأخرى كلما طلبوا منه مزيدًا من التفاصيل .

بهستيريا صاح فيهم:

- ألا يكفيكم ما حدث للصبي!. أي تفاصيل تلك التي تريدون أن تحصلوا عليها؟! كلنا نعرف من هو الجاني الحقيقي اذهبوا واقبضوا عليه إذن.

لم يكن هذا المشهد الأخير لرؤية جثامين أهله، فقد رافق أجسادهم بعدها بعدة أيام في طريق العودة للوطن حتى يدفنوا في أرضه. كان يجلس في مقعده ويعلم أن الطائرة تحمل في جوفها خمس جثث لأحب الناس إليه.

كانت رحلة العودة للوطن في العطلة السنوية من كل عام لتقضية العطلة هناك مع الأهل والأقارب، هي أجمل ما تكون، رحلة يملؤها الكثير من الأمل واللهفة، كل منهم في رأسه أحلام وأشواق وحنين لأهل ووطن وأرض. الآن، ما الذي حدث ليدير دفة القدر في اتجاه الألم. ها هو يعود مرة أخرى للوطن ولكن دونهم، ينظر حوله ف المقاعد لعله يلمحهم، ربما كان كل ما حدث له مجرد كابوس، ولكن في هذه الرحلة لم يدعهم القدر يحجزون مقاعدهم الواحد جوار الآخر ككل مرة، تكفل هو بحجز الأماكن لهم ليدعه وحيدًا هنا بينما يرقدون هم في صناديق خشبية بجوف الطائرة.

وصل لمطار القاهرة الدولي بصحبة خمسة من التوابيت وبصندوق جمعه له الدكتور خليل وأخبره أن فيه أوراقًا هامة وعددا من الكتب من مكتبة أبيه وصندوق به مصاغ أمه وأخبره أن

تلك الأشياء الأكثر أهمية التي جمعها من منزلهم. عدا ذلك فقط تبرع بكل ما في البيت لإحدى الجمعيات الخيرية كصدقة على أرواح أهله.

كان في استقبال الجثامين من المطار عدد كبير من أفراد العائلة، الجميع جاء متشحًا بالسواد وبنظرة أسى وشفقة كانوا يطوقونه بها. بعد مراسم العزاء عرض عليه دكتور خليل أن يلحقه بمدرسة داخلية في فرنسا لاستكمال تعليمه هناك وبإمكانه أيضا مواصلة نشاطه الرياضي وتدريباته وأخبره أن هذه المدرسة واحدة من أكبر وأعرق مدارس العالم التي تعد الطالب دراسيًاورياضيًا. ثم ودعه قائلا:

- في الأول والآخر القرار يرجع إليك، عليك أن تفكر جيدًا، لا أفضل وجودك هنا؛ لأنه لن يمنعك من اجترار الأحزان والذكريات المؤلمة؛ أما هناك فبإمكانك أن تنخرط في حياة جديدة وعالم جديد وهذا سوف يساعدك على النسيان.

قهقه بسخرية متكئا على ألمه:

- والآن وبعد كل هذا الوقت لم أنس يا دكتور خليل!

رحبت عائلته بالفكرة خاصة أن كلا من عائلة أبيه وأمه بالكاد تستطيعان تحمل نفقاتها الخاصة. جدته لأمه طلبت منه بإلحاح أن يبقي معها ، وتخبره أنه بذهابه ومجيئه أمامها يذكرها بابنتها الراحلة لشدة الشبه بينهما، خاصة طابع الحسن الغائر بعمق في الذقن والرموش الطويلة المتشابكة؛ مسكينة كان يعلم مدى حزنها وحسرتها على ابنتها وأحفادها ويقدر إحساسها تجاهه وتمسكها به، هي أيضا كانت تحاول أن تمده بحنان الأمومة الذي كان يوما بعد آخر يفتقده. جدته ذات السبعين ربيعًا كانت بصعوبة تستطيع أن تدبر أمر نفسها بكل هذه الأمراض المستوطنة في جسدها الضعيف؛ فكيف لها أن ترعاه؟!

أصابها الحزن عندما أخبرها بضرورة رحيله لفرنسا حيث المستقبل الأفضل ينتظره هناك. وعلى وعد بأنه سوف يكتب إليها باستمرار ويهاتفها من حين لآخر ليطمئنها على أخباره ودعها وغادر. اغرورقت الدموع عينيها ورافقته ضمتها الدافئة والطويلة كمن يودع أحدًا وهو على يقين أنه لن يلتقي به مجددًا وضعت في حقيبته القرآن الكريم وطلبت منه ألا يتركه يومًا .

سافر بصحبة صندوق به بعض من الذكريات هي كل ما تبقى له من حياة سابقة، حياة ذهبت وكأنها لم تكن. تساءل في استغراب: كيف لنا بعد كل هذه الحياة التي نحياها ونملؤها نشاطًا وأملًا وعملًا، لا يبقى منها في النهاية سوى عدد من صور فوتوغرافية وبعض من أوراق، كيف يتحول كل هذا الصخب لكل هذا الصمت؟! ها هي رفات حياة أهله التي جمعها له دكتور خليل، عدة شهادات للميلاد وأخرى للموت، عقد زواج أمه من أبيه وقليل من الصور وبعض من الكتب وبالرغم من كل شيء كان هذا الصندوق أغلى ما يملك؛ لأنه دليل على حياة كانت قائمة يومًا.

لذلك حرص على أن يحفظه في مكان أمين ومن حين لآخر عندما يشعر أنه بحاجة لبعض الونس يقوم بفتحه وينظر في محتوياته كما لو أنه يريد التقاط رموز جهاز مورس[1] تبعثها له أفراد

[1] هو جهاز لإرسال واستقبال شفرات خاصة.

عائلتـه مـن مكـان قصـي ومجـول، رسـائل برمـوز مشوشـة يجـب أن ينصـت جيدًا ليلتقطهـا؛ هذه الشفرات كانت الصلة بين عالم الأحياء والأموات. وحدها كانت قادرة علـى خـدش جـدار الصـمت فيما بينهما.

بعد سفره بعدة أسابيع اتصل بجدته ليطمئن عليها جاءه رنين طويل ولم يجبه أحد، اتصل بإحدى خالاته ليسألها عنها فأخبرتـه بصـوت حـزين أن قلبهـا لـم يحتمـل القسـوة، فـلاذ بـالفرار لعـالم أكثـر رحابة ورحمة ولحقت بابنتها وأحفادها بعد أسابيع قليلة من رحيلهم...

منذ أن وطئت قدمه تلك البلاد أحبها كان لها وقع خاص على نفسه وروحه للتشابه بينها وبين وطنه. الخديوي إسماعيل[1] الذي أسس القاهرة الخديويةعلى النمط المعماري الباريسي لم يكن ليفوته أن يجعل نهر النيل يشق القاهرة كما نهر السين في باريس، لذلك عندما كان يتريض على ضفة نهر السين كأنه يتريض على نهر النيل. فتنته باريس بمتناقضاتها؛ صخبها وهدوئها، تاريخها وحداثتها، دفئها وبرودتها. كل شيء بها قد أحبه.

المدرسة التي ألحق بها بمثابة قلعة من القرون الوسطى، من تلك المدارس التي تخرج منها أجيال وأجيال ولكنها كانت حكرًا فقط على الأسماء الرنانة للأسر الكبيرة وأصحاب المراكز الهامة، ليس لأن مصروفاتها في العام الواحد كانت تفوق مصروفاته الدراسية هو وأخواته الأربعة في كل صفوفهم الدراسية منذ دخولهم للمدرسة وحتى تخرجهم فيها ولكن لتشددها في انتقاء الطلبة بما يناسب اسمها وصيتها. يعلم تماما السبب الذي جعل دكتور خليل يبعث به للجهة الأخرى من العالم ويتكبد عناء تلك المصروفات الكبيرة فهو يشعر بالمسئولية واللوم تجاه هذا الفتى الفار من الموت بأعجوبة فكل ما حدث له من مصائب كان بسبب عمل والده في الوكالة التي ضحى بعمره من أجلها.

أنهى تعليمه الثانوي والتحق بالجامعة لدراسة الأداب والحضارات القديمة وفي منتصف عامه الجامعي الثاني طرق بابه رجل أربعيني عرّف له نفسه بأنه المسئول عن فرقة الرماية والقنص بالأمن القومي في الجيش الفرنسي ويريد منه الانضمام للتدريب في فرقتهم الخاصة لما يتمتع به من لياقة وكفاءة عالية. شعر إياد في البدء ببعض الشكوك من كلام الرجل ولكنها زالت بعدما طلب منه أن يثبت له صدق كلامه، فقدم له الرجل بطاقة عمله في هذا الجهاز الهام بالدولة. طلب منه إياد أن يمنحه مهلة من الوقت للتفكير. وضع الرجل كارده الشخصي في يده وغادر في انتظار مكالمته.

وهو المغرم بالقنص حتى النفس الأخير منه، لم يأخذ منه الأمر الكثير من التفكير، إنها فرصة عمره وقد جاءت إليه. يوم واحد على مرور الرجل وكان قد أخرج الكارد من محفظته وقام بالاتصال به ليخبره بقراره، حدد له الرجل موعدًا لاختبارات كثيرة عليه أن يخوضها ويجتازها كلها بنجاح حتى يتسنى له الالتحاق معهم وفي كل اختبار كان إياد يثبت لهم مهارته الخاصة التي يتمتع بها. تأكد الرجل من صدق حدسه فيه ووثق أن اختياره له كان في محله. كان أسعد أيام عمره يوم تسلمه البطاقة التي تعلن عن انضمامه للعمل مع هذه الفرقة، ومنذ ذلك الحين أغلق باب عمره على شيئين لا ثالث لهما، الدراسة والتدريبات، وكلما زاد تفوقه فيهما زاد فشله في إقامة علاقات اجتماعية كان وحيدا أينما وجد وكيفما كان.

وبعد أيام طويلة قضاها في تدريبات مضنية وخطيرة، كانت نقطة التحول في حياته عندما اسْتُدْعِيَ في مكتب قائد فرقة القنص بالجيش وأعطاه أمرًا بالخروج مع الفرقة في مهمة خاصة بصحراء مالي، حيث عليه أن يقوم بقنص عدد لا بأس به من الجهاديين. لم يحاول أن يسأل أو

[1] الخديوي إسماعيل: خامس حكام مصر من الأسرة العلوية وقد حكمها في الفترة من "1876 - 1863".

يفهم أكثر، كان سعيدًا بالمهمة التي وكل بها وشعر بالفخر لأنه سيخرج في مهمة رسمية على قدر من الأهمية؛ فقد حان الوقت أن يمارس أولى خطواته في عمله كقناص محترف يحصد الأرواح.

هذه الذكريات التي كانت تمر بسرعة البرق داخل رأسه قضت على نومه وأقلقت مضجعه، فارتدى ملابسه على عجل أو بالأحرى على هرب. استقل سيارته وأخذ يجوب شوارع باريس ذهابًا وإيابًا دون وجهة محددة.

أي عقل طائش كان يحكمه وقتها؟!ولماذا وافق على الانضمام لهذه الفرقة؟! وكيف ذهب معهم في تلك المهمة؟! أوليست هي نفسها الذريعة التي دخلت بها أمريكا العراق؟! إنها ذات الحجج والأسباب الواهية لدخول بلد آخر والقضاء عليه. منذ الأزل كانت حجة المستعمر هي أن ما يقوم به ما هو إلا حملة تأديبية لهؤلاء الذين يتشبثون برأيهم هناك في الجانب الآخر للرجوع عن طيشهم.

منذ خروجه لهذه العملية هو وعدد من أفراد فرقة القنص لصيد رءوس مهمة من أنصار حركة جهادية تسمى "صلاح الدين" وقد شعر بأنه غريب عنهم وغير مرحب به وسطهم – كانوا يتجهالونه وكأنه ليس موجودًا معهم، ربما لأنه ليس فرنسيًا أو لأنه ليس ضابطًا أو مجندًا في الجيش.كانوا يصوبون عليه نظرات العداء والاحتقار و كثيراً ما كان يتجاهل ما يحدث، و في إحدى المرات تحولت مناقشة كلامية لمشادة له مع أحد زملائه فقد على إثرها أعصابه وأخذ يصيح كالمجنون به وبهم جميعًا ثم ذهب للقائد بخطوات عصبية وأخبره بأنه لا يستطيع مواصلة العمل مع أشخاص تكن له الكثير من الحقارة والكراهية، و بدون اهتمام اجابه وهو مشغول ببري الرصاصات بسكين حادة دون حتى أن يرفع نظره إليه:

- هم فقط يشعرون بانك مجرد مرتزق منضم إليهم، ولكن بعد أن يروا بطولاتك في أرض المعركة سينسون كل هذا ويكنون لك الاحترام.

صدمته كلمات الرجل وكأنه أيقظه على واقع كان يجهله فترك الغرفة يومها وبخطوات بطيئة أخذ يتريض في الممر الطويل الفاصل بين غرفته والعنابر وهو يردد على نفسه "مرتزق" ويتساءل:

- هل أنا فعلا مرتزق؟! ولكن كيف وهذه المرة الأولى التي أخرج فيها لمهمة والعملية تتخذ شكلا رسميًا فهي تابعة للجيش الفرنسي..؟

يهز رأسه كما لو كان ينفض عنه هذه الصفة:

- لا ..لا، لم أكن مرتزقًا، كل ما اقتنصته هو الحيوانات أثناء التدريبات، وفي رحلات الصيد التي كنت أخرج فيها مع أبي، فهل صائد الحيوانات يمكن أن يكون مرتزقًا ؟!

وأقسم بأنه سيجعلهم يدورن حول أنفسهم غيظًا من كفأته، عند وصوله لمالي تأكد أنها أقرب لقرية بدائية ودولة للفقر والتخلف في كل بوصة منها تستطيع أن تلمح فقر أهلها المدقع، وفي كل مكان بإمكانك أن تشم رائحة الموت والقتل. بين الحين والآخر هناك أصوات مدافع وقنابل تصم الآذان، وعلى مرأى النظر توجد دائمًا سحب دخانية وروائح حريق. أطفال بوجوه متعبة وأجساد

ضعيفة وملابس رثة. سيدات بأثداء مهدلة ووجوه حزينة ورجال يحملون هم العمر ويسيرون بـه.
والجميع في أعينهم نظرات من الهلع والخوف والتساؤل

حمد الله أنه لم يمكث في هذه المدينة المحتشدة بالحزن والسواد سوى عدة ساعات، فور وصولهم ذهبوا لمقر الحكومة المالية، استقبلهم رجال الحكومة هناك بملامحهم الغليظة و القاسية حتى بذلاتهم العسكرية لم تمنحهم الهيبة اللازمة، كان يعلم أن هناك تواطؤ ما بين الحكومتين، إنها المصالح المشتركة وعلى كل لم يكن له أن يسأل.

أزيز المروحية التي أقلتهم لصحراء مالي كان يدوي في أذنيه ورائحة الرمال التي تحوم ذراتها حول المكان كانت تزكم أنفه كما لو أنه رجع به الزمن إلى هناك، إنها التجربة الأولى له في القنص التي لم تُنْسَ أبدا.

فهل قنص روح للمرة الأولى حاله مثل هذه الأشياء التي نفعلها لأول مرة ولا تنسى يوما كالقبلة الأولى والحب الأول؟

صوت أزيز المروحية يومها كان يطن في أذنه ورائحة الرصاص والبارود تعبقان الجو، وهذا الفزع عندما فاجأهم عدوهم بمروحية أثناء تحليقهم في السماء ،اقترب منهم جدًا وأخذت تنهال عليهم الرصاصات من أسلحة المجاهدين الآلية، استغرب يومها هذه الطريقة التي كانوا يقاتلون بها غير مبالين بحياتهم، كان حرصهم على قتل عدوهم أهم بكثير من أي شيء آخر حتى وإن كان حياتهم! كان الأمر بالنسبة لهم بمثابة مهمة انتحارية، وكان عليه أن يواجه خطر جنونهم وخطر الرصاص الذي يحيط به من كل جانب. أصيب زميل له بعدة رصاصات اخترقت واحدة قلبه مباشرة فاختل توازنه وسقط من الطائرة، حاول أن يمسك به في اللحظة الأخيرة ويلتقطه من ياقة بذلته ولكن الموت كان أقرب إليه، وأصيب آخر وأخذ ينزف بقوة. أصبح بمفرده في مواجهتهم تمامًا ، يصوب سلاحه إليهم ولا يستطيع أن يضغط الزناد وكأن سبابته تحجرت، كانت تجربته الأولى والتي جاءت بكل مباغتة وقسوة صنعت به حالة من الخوف والارتباك جعلاه لا يعرف كيف يتصرف وينسى كل هذه السنوات الماضية التي قضاها من عمره في التدريب على القنص، وعندما صاح رئيسه بأعلى صوته وهو يقود الطائرة:

- أطلق رصاصتك.. اقتله.. اقتله.

أيقظه من سباته العميق، وفجأة وجد نفسه يضغط على الزناد ويصيب هدفه في مقتل. أليس من الغريب حقا أن أول روح يزهقها وهو بين السماء والأرض ومن طائرة مروحية وهو بدون ارتكاز وبدون تثبيت وتحت ضغط عصبي شديد يكفي عنصر المفاجأة وتلك الرصاصة التي كانت حتمًا متجهة إليه، ولولا أنه أزاح نفسه في اللحظة الأخيرة لكان الآن في عداد الأموات. على أي حال كل ما حققه في مهمته الأولى يدل على حرفيته وخاصة أن هدفه كان متأرجحًا مترنحًا بين السماء والأرض، وتصيبه الطلقة في مقتل ليفقد حياته ومعها توازنه ويسقط من المروحية.

كان ينتظر من رئيسه أن يشكره أو يمجد عمله، ولكن أتت الرياح بما لا تشتهي السفن، لم يتلق منه سوى التعنيف. عندما قال له الرجل بملامح صارمة ولهجة حادة:

- عند القنص ليس عليك سوى اغتنام الفرصة بقتل الهدف، وليس التفكير فيما لو تقتله أم لا، كل ثانية تمر تقلل من نجاح المهمة، هي رصاصة واحدة تطلق مرة واحدة لقنص رجل واحد. تأكد من ذلك.

لذلك ظلت هذه العبارة "هي رصاصة واحدة، تطلق مرة واحدة، لقنص رجل واحد" تدوي في أذنه كلما خرج في مهمة منذ ذلك اليوم حتى يومه هذا.

قبل مغادرة الطائرة انتزع الرئيس من حذاء الجندي الذي ظل ينزف حتى الموت – بطاقة تعريفه المعدنية. كانت بمثابة هوية لكل منهم يخفونها كما طلب منهم في عنق أحذيتهم العسكرية الطويلة ويحكمون شد الرباط عليها، حتى في حال إذا قتل أحدهم يأخذها من مخبئها ليتعرف على هويته ويحتفظ بها ربما للذكرى.

حطت بهم الطائرة في صحراء شاسعة، مترامية الأطراف وقائظة الحرارة. لا يعلم أين قد تذهب به دوامات الرمال المتحركة إذا وقع فيها، ومن أي مكان سيخرج عليه ذئب مفترس، ومن أي جهة ستصوب رصاصات الجماعة الإرهابية التي تختبئ بالصحراء وتحفظها عن ظهر قلب. يومها وكأنهم في طريقهم صوب الموت ليس أكثر.

كانوا يسيرون في طابور يقود خطاهم فيه قائد السرب، وبدا أن الطريق لا نهاية له، كل منهم يحاول بمشقة أن يسحب ساقه ليخطو في الرمال الثقيلة، بينما أحرقت الشمس وجوههم واغتسلوا بعرقهم من حرارة الجو.

سأل قائده بتأفف:

- لماذا علينا قطع كل هذه المسافة سيرًا على الأقدام وقد كان بإمكاننا أن نواصل الطريق بالمروحية؟

أدار الرجل رأسه إليه وبوجه متعب يتصبب عرقا وبنظرة كانت كافية لتخبره بأن يخرس، بينما سخر أحدهم قائلا:

- حقًا كان على الطائرة أن تهبط بنا أمام الهدف مباشرة ونلقي عليه التحية ثم نخبره وقتها ونحن نبتسم في وجهه "ها قد جئنا لقتلك فهل أنت على استعداد للموت يا رجل؟".

أضاف آخر:

- هيا دع زميلك يودعك الآن فسوف يتم تشييعك لعالمك الآخر.

ولم يجاوبهما وتقبل سخريتهما له بصمت.

انتهت المهمة بنجاح وأحرز فيها تفوقًا ملحوظًا وأصبح عضوًا مهمًا في الفرقة. وعملية بعد أخرى كانت تظهر براعته وجديته وأبدى قادته وزملاؤه احترامهم له.

حتى أحد الأيام التي طرق فيها بابه رجل خمسيني ذو قوام ممشوق وشعر رمادي، مظهره كما هو مظهر رجال عصابات المافيا في الأفلام، سيجار ثمين بيده ويرتدي معطفا أسود مضادا للمطر، ويلف حول عنقه إيشاربًا من الحرير الناعم، وبكلمات حاسمة ومباشرة تطرق للموضوع رأسًا وعرض عليه العمل في منظمة خاصة مقابل مبلغ خيالي سوف يتقاضاه عن كل مهمة توكل إليه، مبلغ لم يكن ليتوقعه أبدا.

وأمام وهج المال وفتنة القتل لم يكن يحتاج الأمر منه لتفكير. فهو في الأول والآخر يقتل بنية القتل، ليس أكثر، حتى مهماته التي ينفذها مع الجيش مؤكد أنها لم تكن بدافع وطني، ولكن على أي حال لا يستطيع أن ينكر أن تدريبه معهم قد منحه الكثير من الكفاءة والخبرة.

والآن ها هو الرجل يضع أمامه عرضا مغريا لا يستطيع رفضه، لم يشأ أن يظهر للرجل حماسه للعمل معهم، فأجابه بفتور: دعني أفكر.

بينما كان قد اتخذ قراره وشجعه على ذلك أن الجهة الأخرى قلما كانت تطلبه في مهمات، كان يمر الكثير من الوقت بين عملية وأخرى، وهذا لم يكن كافيًا لإشباع شهوته للقتل التي أخذت تزداد يوما بعد آخر. وفرت له تلك المنظمة الحماية الكاملة وأغدقت عليه الأموال والأرواح.

كان وقتها لا يزال في عنفوان شبابه وبه مس من تهور الشباب، هذا التهور الذي بدلا من أن ينفقه على العبث في مصادقة الفتيات أو شرب الخمر أو إدمان المخدرات على عكس الجميع كانت ميوله مختلفة تماما بهوى نوعا مختلفا من الانحرافات، نوعا أكثر دموية وجرما.

تلقى تدريبًا خاصًا ليس على فنون القتل التي يتقنها، ولكنه تدريب على سير العمليات قبل مرحلة القنص التي تتطلب سرية تامة وخطوات ثابتة يجب اتباعها بحذافيرها. هناك بعض العمليات يجب أن يبدو الأمر فيها كما لو أنه حادث أو قضاء وقدر وليس عملية قنص مباشرة، فكان يعتذر عن ذلك، فهو لا يجيد من فنون القتل سوى القنص وحده. يتربص لهدفه ويصوب تجاهه رصاصته، لا يملك فن تدبير الحوادث ووضع الخطط.

عملية بعد أخرى مع هذه المنظمة كانت أرصدته في البنك تزداد وإشباعه لرغبة القتل بداخله تمتلئ، ولكن كان شرطه عليهم ومنذ اليوم الأول لا أهداف من "أطفال أو سيدات" فقط رجال بالغون ومنذ ممارسته تلك المهنة الدامية لم يصب سلاحه طفلًا أو أنثى.

قهقه بسخرية عندما تذكر ذلك:

- يالك من رجل عطوف ذي قلب!!!

توقفت الموسيقى التي يستمع إليها، وانغلق معها باب الذاكرة.

تذكر أنه منذ عدة أيام لم تمتد يده لذلك الكتاب الذي عثر عليه مصادفة في الصندوق الذي جمعه دكتور خليل وأخبره أنه وضع فيه عددًا من كتب كانت بمكتبة والده. كان أبوه يهوى جمع الكتب القديمة من مختلف العلوم، من وقت لآخر يذهب لشارع المتنبي حيث أسواق الكتب القديمة. يرتدي نظارته الطبية، وبكل دقة يفتش من بين الكتب عن كتاب بعينه، الكتب في السوق تتزاحم بدون ترتيب ، متكدسة أرضًا وفوق الطاولات وبالرغم من هذه الفوضى لكنها لم تكن تمنعه من البحث، بل على العكس تولَّد لديه شعور أن بينها شيئا ذا قيمة يحتاج أن تجهد نفسك للعثور عليه؛ لذلك لم يكن يعنيه أن يمضي الكثير من الوقت وهو يبحث ويفتش كعالم آثار ينقب عن أثر ما. يجذب الكتاب إليه، يلمس غلافه، يتحسس أوراقه، يتشمم رائحته وبصبر يأخذ في تصفحه، ثم وفي النهاية تكون غنيمة اليوم كتابًا أو اثنين على الأكثر أو ربما لا شيء. ولأن هوايته هي جمع الكتب القديمة؛ لذلك مكتبته لم تكن تضم الكثير من الكتب، بل كانت تضم القديم منها، ويفخر دائمًا بأنه يملك الطبعة الأولى من كتاب كليلة ودمنة، وكتاب ألف ليلة وليلة طبعة مطبعة بولاق بالقاهرة، وأجمل وأثرى ما كان يملكه ذلك الكتاب الذي يحتوي على الكثير من القصص، ومرفق بها منمنمات مزخرفة بشكل جميل ومرسومة بدقة متناهية يذهب بك لعالم الدهشة والخيال، و لم يجذبه من بين هذه الكتب التي في الصندوق سوى كتاب "شواطئ الرحيل" هو لم يهو القراءة يوما وبالكاد كان يقرأ الأخبار الرئيسية بجريدة الصباح، ولكن منذ البدء كانت بينه وبين هذا الكتاب ذبذبات تعده أنه ينتظره فيه أسرار وأشياء مثيرة.

وها هو صفحة بعد أخرى تتملكه الإثارة والمتعة ويتأكد من صدق حدسه فيه. ولكن هل من القسوة أن نشعر بمتعة ونحن نقرأ اوراقًا ملطخة بدماء الآخرين وأخبارًا متوشحة بالسواد؟!

وعلى قدر شوقه لمعرفة النهاية إلا أنه كان يتأنى في القراءة، كما لو أنه لا يريد أن يفرغ منه أبدا.

الفصل الحادى عشر

يومًا بعد اخر أصبحت أشعر بالضيق والاختناق، المهمة التي جئت من أجلها باتت تجثم فوق أنفاسي وتلح عَلي لأنفذها ولا تدع تفكيري يحيد عنها، وهذا الرجل لم يسمح أن يترك لي مساحة ولو صغيرة لتنفذ إليه رصاصة من سلاحي وتخلصني منه. حتى كانت ظهيرة يوم أتجول فيها بأنحاء المكان، وهناك استعداد لإقامة احتفال كبير لقدوم الأمير "خوان دي إستوريا" أخي الملك فيليب، والذي جاء خصيصًا ليهتم بثورة البشرات التي قام بها العرب ضد الظلم وليحكم سيطرته عليها. أعدوا لاستقباله موكبًا مهيبًا يليق به امتلأت الساحة والميادين بالضباط والجنود يطوقون مداخل ومخارج باب الرملة تأمينًا لمرور الموكب.

بلغة قشتالية متقنة اقتربت من أحد الجنود ودخلت معه في حديث عن قدوم الأمير:

- ولكن أخبرني، لماذا كل تلك الاستعدادات؟

ثرثر الجندي طويًلا ولم يهمني من حديثه سوى الاسم الذي كنت أنتظره طويًلا وأخطط لقتله

- وسيرافق غدًا الأمير، مدير الشرطة "ليوناردو داليمار" وستغلق مداخل ومخارج المدينة لتأمين الأمير، على أي حال العرب أكثر جبنًا من اعتراض الموكب.

غادرته وأنا أحدث نفسي "حقًا العرب أكثر جبنًا" ولكني سأريك ماذا بإمكان العرب أن يفعلوا. جلست على حافة النهر أفكر وأضع خطتي التي آن الأوان لتنفيذها، أخذت أرسم خط سير الموكب، كان لا بد من مروره من أمام كنيسة "سان سلفادور"، وقتها صحت قائًلا: "ها قد حانت الفرصة" فبرج الكنيسة العالي هو أكثر الأماكن ملاءمة لرؤية الموكب ومراقبة الهدف وقنصه. سعدت عندما تذكرت أنه يوم الأحد والقداس يستمر فيه للخامسة مساء، إذًا أمامي فسحة من الوقت. ذهبت مسرعًا للخان وأخرجت البندقية من مخبئها وسخنت قليلًا من الزيت وأخذت قطعة من القماش القديم أمسح جزءًا جزءًا منها حتى تلين مواسيرها التي جفت وعلاها الصدأ، ثم قمت بتزويدها بعدد من الرصاصات بالرغم من يقيني بأنه إذا خابت الرصاصة الأولى وضلت طريقها فلا أمل بعد ذلك أن تؤدي باقي الرصاصات غرضها، لسبب بسيط أن القناص يعقد عزمه كله على أول رصاصة، وعندما تطيش بعيدًا عن هدفه يصاب بخيبة أمل كافية بأن تزحزح ثقته بنفسه وأساس عملية القنص هي الثقة بالنفس وثباتها، لذلك كنت أعلم أنه لا قيمة لحشو البندقية بأكثر من رصاصة لأنة إذا خابت الأولى، فالمهمة كلها قد فشلت. خبأت السلاح في السروال القشتالي الذي ساعدني تصميمه كثيرًا، فهو واسع من أعلى ويضيق من أسفل ثم تدثرت فوقه بالكثير من الثياب حتى لا يلمحه أحد، عرجت على دكان الخرداوات واشتريت الشمع وذهبت للكنيسة بثقة قبطي متدين ذهب لأداء فروضه الدينية وحضور قداس الأحد، وأمام تمثال العذراء وهي تحمل السيد المسيح وقفت متضرعًا ووجدت نفسي أبكى بكًاء مريرًا، نعم كانت الدموع التي تغسل وجهي ساخنة وملتهبة، ليست خدعة لأخدع بها القس الذي كان يراقبني بل كنت بحاجة للبكاء فبكيت. أثارت دموعي عطف القس الذي تركني وذهب بعدما قال لي:

- اغسل نفسك ابني وطهرها بدموعك. لا تتعجل كلما انتحبت أكثر وتضرعت أكثر خفت ذنوبك وخفت حمولك.

وهذا تمام ما كنت أريده، ألا أتعجل. ذهب القس بعد أن أمر الشماسين والراهبات بالسماح لي بالجلوس حتى انتهي من صلاتي وأستعيد سلامي النفسي. بعد الكثير من الوقت غافلتهم وخرجت من باب جانبي يؤدي لبرج الكنيسة وصعدت الدرجات الحلزونية لأجد نفسي بمكان ضيق أمام ناقوس الكنيسة النحاسي. انزويت في أحد الأركان حتى الصباح الذي غاب طويلًا تلك الليلة حتى شعرت أنه لن يظهر أبدًا وبت هذه الليلة في العراء والبرد. أتدثر بمعطف الذكريات المهلهل والمخروق أنظر على المدينة من أعلى كان المشهد جميلًا بحق ولكنه مغلف بحزن كبير. ها هي بيوت أسياد غرناطة الجدد عامرة بالأهل والدفء وتشع نورًا، بينما منازل أهل البلد أصبحت مهجورة ومعتمة بعدما تركها أصحابها بلا رجعة يشق نهر الشنيل المدينة فيبدو كخيط فضي يتلألأ تحت السماء بينما أشجار السرو والتين والزيتون تمتد بين الشوارع والأزقة ويترقرق الماء العذب من الينابيع فيأتي صوته كلحن حزين، صحت بداخلي "يا لجمالك يا غرناطة!".

أخيرًا شقشق الصبح فبدأت أدرس موضع القنص والمسافة الملائمة لأقنصه منها، فهي رصاصة واحدة لقتل رجل واحد ولا يجوز أن أخطئ أبدًا. أنا المعروف عني أنه لا يضاهيني أحد في براعتي بالقنص، لماذا انتابتني مشاعر من القلق والتوتر؟ هل لأنها المهمة التي انتظرتها طويلًا ولأنه الرجل الذي أعددت نفسي من أجله طوال السنوات الماضية.

وها هو أصبح قاب قوسين أو أدنى من رصاصتي، ولهيب الانتقام يستعر بي، أم لأنها فرصة لن تعوض وإذا أخطأت فيها ربما لا يسعفني حظي بفرصة أخرى؟ قبل الظهيرة بقليل زحفت الأكوام البشرية من كل مكان وقرعت الطبول والمزامير وحملت الأعلام وتزاحم الكل يريد رؤية الموكب، كنت أكثر حظًا من الجميع، فمن مكاني هذا بسهولة أستطيع أن أرى الأمير وهو يمتطي فرسًا أسود جميلًا ويتدرع ببذلته الحديدية، لا يظهر منه سوى وجهه، تدل ملامحه على مدى غطرسته وكبريائه، وبجواره الوفد المصاحب له عن يمينه الكاردينال وعن يساره رئيس الشرطة والكل يهتف بحياة الملك وأخيه. كان الموكب يسير ببطء نظرًا للزحام الشديد وعند المسافة المعينة التي حددتها لقنصه، كتمت نفسًا عميقًا وأخذت وضعية القنص ثم صوبت سلاحي على رأس الهدف مباشرة. ضغطت الزناد بغلٍّ وقسوة لتخرج الرصاصة كما لو أنها تحمل كل ما أملكه له من كراهية وحقد، بقوة وسرعة ذهبت في اتجاهه مباشرة لترشق من بين عينيه وتخرج من الناحية الأخرى. ثوان وتدلى رأسه فوق صدره. كان وقتًا كافيًا لألملم نفسي فيها وأركض هاربًا. حدث الكثير من الهرج والمرج الكل يصيح ويركض يمنة ويسرة. لم يشك أحد أن الرصاصة أطلقت عليه من هذه المسافة البعيدة لدقة تصويبها لذلك لم يشغل انتباه أحد أن ينظر باتجاه البرج ليتحقق ما إذا كان الرجل قد قنص من هناك أم لا. التقطت ثياب رجل دين قبطي كانت ملقاة في سلة بها أشياء قديمة ومهملة وارتديتها، وبخطوات ثابتة وهادئة خرجت من باب الكنيسة أسير بثقة في هذة الملابس دون أن يلتفت لي أو يشك بي أحد. بينما الجميع كما لو أن جانًّاً مسُّهم، فيركضون ويقعون ويصرخون.

أخذت طريقي للخان وتمنيت ألا يستقبلني "عامر" بأسئلته الفضولية أو يراني في هذه الملابس، فقد خشيت أن أخلعها قبل وصولي للخان حتى لا يلاحظني أحد، وحمدت الله بأن أمنيتي تحققت، لم يكن موجودًا. كان قد خرج ليشاهد الموكب مثل الجميع.

وأخيرًا بعد سنوات طويلة أشعر براحة وسعادة وكأنه عبء ثقيل انزاح من فوق قلبي. لقد قتلت الرجل إذن وبعد قليل سيصبح وليمة للديدان. كل هذا الوقت وكل تلك السنوات وأنا أنتظر. أقضي نهاري وأبيت ليلتي وأنا أحلم بهذا المشهد فإذا بالحياة تختزل كل هذا الوقت وفي لحظة من اللحظات تمنحني فرصة أن أحيله للعالم الآخر.

طوّق الجنود المكان وأصبح من الصعب المرور منه للدخول أو للخروج ووضعوا حراسة مشددة على مداخل ومخارج المدينة وزج بالكثيرين في السجن بسبب وبدون سبب، أهالي غرناطة فرحوا فرحًا كبيرًا، فرح وشى بهم وبأحلامهم البسيطة العاجزة عن التحقق فأخذوا في المباركات وتوزيع الحلوى والعصائر ولكن سرًّا كما تعودوا دومًا على إخفاء أفراحهم وأحزانهم. الجميع يتساءل عن هذا البطل الذي قنص رئيس الشرطة المشهور عنه أنه بلا رحمة أو قلب ويكره العرب كراهية الإنسان للعمى. ترى هل هناك من أحد انتابه بعض من الشك أن من فعل ذلك هو الصبي الصغير الذي تكوم على نفسه كجرذ خائف أمام جثث أهله المتراصة الواحدة فوق الأخرى؟ مؤكد لا. من باستطاعته مجرد التخمين أن هذا الحادث الذي مر عليه الكثير من الزمن ما زال موجودًا لم يبهت يومًا ولم يخف أثره يومًا بعقل الصبي الذي أضحى يومًا بعد آخر رجلًا ولم تفارقه هذه الذكرى ولم يصطحب غيرها في مشاوير عمره حتى إنه لم يعد بالنسبه له هناك ماض أو حاضر، الزمن صار شفافًا يرى هؤلاء الناس ويسمع أصواتهم ولكن لا يستطيع أن يحدثهم أو يسمعوه، إنها اللقاءات التي تحدث عبر دهاليز الزمن كمن يستيقظ من نومه ويظل حلمه ملازمًا له ساعة بعد أخرى يخبو دون أن يتلاشى تمامًا فظلاله تظل معه أينما كان.

مع أول خيط للفجر جمعت أشيائي وتسللت خارجا ومن فوق ربوة عالية عند نهاية الزقاق التفت حولي، لمحت فرقة من الجنود وهي تقتحم الخان لتقوم بتفتيشه غير واثق هل كانوا يبحثون عني تحديدًا؟ أم ضمن حملة التفتيش التي سرت منذ الحادث في أنحاء المدينة كسريان النار في الهشيم وذهبت للجبل عبر طريق لا يعرفه أحد سوى رجال الأندلس القدماء علمني إياه الشيخ حسن.

وصلت إلى الجبل قبل المغرب بقليل. استقبلني المجاهدون بعناق وتهنئة لأني خلصت أهالي غرناطة من هذا الطاغية. لاحظت أنه لم يتبق غير القليل منهم، فقد استشهد الكثيرون أثناء مهماتهم الفدائية، والآخرون ذهبوا للانضمام للثورة في مدينة "البشرات" وأيضًا جاءني الخبر السيئ بموت الشيخ حسن، رحل بعد مغادرتي بعدة أيام، أسلم وجهه للقبلة فأسلم روحه لله وهو ساجد له، كثيرًا ما تمنى أن يموت شهيدًا وسط جند المسلمين في أرض المعركة ولكن الله قد ادخر له موتًا أجمل وأرحم كانت الثورة في البشرات قد اشتعلت بعد أن جاء "فيرناردو دي بالور" هكذا كان اسمه بالإسبانية، ولكنه بدله لمحمد بن أمية بعدما أشهر إسلامه. كان من أسرة موريسكية تُعمد أطفالها غصبًا في الكنائس وتطلق عليهم الأسماء المسيحية كحال كل الأسر الموريسكية. ولكنه لم يستمر طويلًا تحت خدعة الدين. رفض أن يحمل اسما إفرنجيًا وفي نفس الوقت له اسم آخر عربي. رفض إيمانه بدين وممارسته طقوس دين آخر. رفض هذا اللبس وهذا النفاق وأيضًا هذا الضعف وكأنه خلق ليكون قائدًا أندلسيًا قويًا وشجاعًا. جاء المنشور الأخير وكان أكثر تشددًا وقسوة فكان ينص على أن يترك العرب المتنصرون لغتهم بتًاتا ولا يتحدثوا أو يكتبوا بها أبدًا مهما حدث، ويجبرهم على تسليم أطفالهم لقساوسة في الكنائس لتنشئتهم على الدين المسيحي. هذا المنشور كان بمثابة النار التي اشتعلت في القلوب. وتحت شجرة زيتون في ليلة

ميلاد عام 1568م تجمع سرًا عدد من القادة العرب، كان على رأسهم محمد بن أمية مع ممثلين عن غرناطة، أعلن في هذا الاجتماع أنه الذي سوف يقود المجموعة، وأشهر إسلامه وأطلق على نفسه اسم محمد بن أمية لانحداره من سلاسلة أموية وأقسم أن يموت في سبيل عرضه ووطنه، وبدأت الثورة واستعان محمد بن أمية بملوك إفريقية ليبعثوا له بمدد عسكري واتخذت الثورة شكلًا أقرب منه لحرب العصابات ضد القوات القشتالية في جبال البشرات. تحمس شباب الأندلس ورجالها للثورة، ومع الوقت تضاعف عدد الملتحقين بها، ففي العام الأول وصل عددهم إلى أربعة آلاف رجل، وفي العام التالي تضاعف العدد ليصبح أكثر من خمسة وعشرين ألف رجل. فكرة واحدة كانت مسيطرة على عقول الشباب والرجال، وهي أن الموت بعزة وكرامة في البشرات أهون بكثير من القتل في محاكم التفتيش هذه المحاكم التي كان يقاد لها بسبب وبدون سبب من هو عثر الحظ. بدون شك في البدء أقلقت الثورة الإسبان خاصة الانتصارات التي كنا نحصدها يومًا بعد آخر، وكنا كلما انتصرنا عليهم هنا زادوا القسوة على أهالينا في مدن الأندلس المختلفة.

حتى يناير من عام 1596م أرسل الملك فيليب الثانى جيشين قويين انطلق الاول من مدينة غرناطة ويتكون من 400 فارس و2000من المشاة، وانطلق الثاني من مدينة بلش ولم يقل عدده عن الجيش الأول وسرعان ما دب الخلاف والصدام بين القائدين الإسبانيين، وكانت هذه الخلافات بمثابة فرصة لنا لنحقق المزيد من الانتصارات عليهم، فقد أصبحت صفوفهم مرتبكة وغير منظمة، أقلق هذا الوضع قادة إسبانيا ولم يجدوا أمامهم من وسيلة سوى إيقاع الفتنة بين الموريسكيين الذين يحملون السلاح ويضحون بأرواحهم في سبيل الأرض والتاريخ وبين الذين اختاروا العيش في خنوع تحت إمارة القشتاليين. فأخذوا في نشر أخبار كاذبة عن إخفاقات محمد بن أمية وسوء تدبيره، وملئوا عقولهم بأنه يقودهم إلى التهلكة عاجًلا أو أجلًا، ونجح مخططهم وصدق هذه الأقاويل الكثير من العرب وكونوا حزبًا لهم ضد أفعال محمد بن أمية وأطلق عليهم لقب " الموريسكيون المدجنون".

بعثوا لمحمد بن أمية متحدثًا باسمهم ليخبره أن ما يفعله لا أمل ولا طائل فيه، وبأنه بذلك يقود الجميع للموت وعليه أن يرجع عما يفعله. هذا الانقسام ولد الربكة في صفوف الثوار، خاصة أن كل مجموعة منهم أصبحت تأتمر بقائد خاص بها، فمن جاء من تركيا لمساعدة الثوار أصبح لا يأتمر إلا بأمر قائده الخاص وكذلك الحال أيضا لمن جاء من بلاد المغرب العربي وفصلت تلك الفرق نفسها عن القائد العام للثورة محمد بن أمية ولم تعد تنصاع لأوامره، وأصبحت المصالح الشخصية والدولية أهم من الثورة نفسها. فالأتراك كان من مصلحتهم أن يستمر القتال إلى ما لا نهاية، لأن تركيا هي السوق الرائجة للسلاح الذي يعطى للثوار، وهكذا تعقدت الأمور للأسواء حتى كان هذا التحالف الذي تم بين الأتراك وحزب المدجنين واتفقا فيه على التخلص من محمد بن أمية وتم اغتياله بقصره بعدما لف أحدهم حبلًا سميكًاحول عنقه ليموت غدرًا وظلمًا.

انتشر الخبر فأصابنا الفزع والحزن، كيف يمكن أن تدبر مكيدة لاغتيال هذا البطل الذي فجر الثورة وكثيرًا ما أثبت شجاعة فائقة في كل المعارك التي كان يشارك فيها؟ أي يد آثمة يمكنها ارتكاب هذا الجرم؟ نسينا أن نبينا أمرنا أن نسوي صفوفنا في الصلاة ونلتحم الكتف بالأخرى لحد ألا ندع فرصة للهواء أن يمر بيننا فما الذي ألم بنا؟ وما الذي فعلناه بأنفسنا؟ وتحديًا لهم قررنا أن

الثورة بموته لن تموت ولن تنتهي. سرعان ما خلفه في قيادة الثورة ابن عمه "ابن عبو" واستمرت الثورة لعام 1571م ومرت السنوات ما بين انتصار وإخفاق، ما بين حياة وموت ويأس وأمل.

ولكن أمام زحف الجيوش التي أطاحت بنا وقوتها، انقسمنا فريقين: فريق يريد مواصلة القتال لآخر نفس فيه، وكنت أنا منه لاعتقادي بأن لا قيمة للحياة دون وطن. الفريق الآخر يرى أن الاستسلام أفضل لنا خاصة أن الأمل أصبح ضعيفًا بالإضافة إلى أن القشتاليين قد صرحوا بالعفو عن المستسلمين من الثوار. لكن ابن عبو أصر على مواصلة القتال رغم أنف الجميع، ولكنه للأسف لم يلاقِ سوى الهزائم، وكان رأى البعض أنه للخلاص من القتال والثورة لابد من الخلاص منه، فقاموا باغتياله وسلم الخونة جثمانه للإسبان فأخذوه إلى غرناطة وأدخلوه المدينة وسط حفل ضخم واستعراض كبير بعدما وضعوا جثمانه في قفص حديدي وتراص الأسرى في طوابير طويلة تسير ببطء وراء القفص، ثم قاموا بفصل رأسه عن جسده بالمقصلة وسحبوا جثته وسحلوها بشوارع وأزقة غرناطة وعندما وصلوا لأكبر ساحة بها أشعلوا النار بجسده وعلقوا رأسه على ربوة عالية صوب مدينة البشرات، كل هذا وسط تهليل وتصفيق الجمهور الذي احتشد لرؤية التمثيل بجثة بطل لم يتهاون يومًا تجاه وطنه وأرضه.

انتهت الثورة بعدما أخفقنا فيها، لم تكن ثورة بل هي بمثابة حرب كاملة، كنا نقاتل جيوشًا أقوى منا عددًا وعدة، كنا نواجههم بمنتهى الشجاعة والقوة. لم تكن نار الانتقام تستعر داخلي أنا وحدى ولكن داخل جميع من شارك بها. في البدء كانت الغلبة لنا وكنا نسعد بانتصارنا على هؤلاء الأوغاد، كنا نذهب بهم للتهلكة، وخاصة عندما كانوا يحاولون الوصول إلينا والإمساك بنا. فكنا نقودهم خلفنا عبر الممرات السرية والدهاليز الخفية للجبال التي لا يحفظ طرقاتها المتعرجة سوانا، فكانت كدرعنا الثانية. نستدرجهم حتى يلحقوا بنا ثم نغلق عليهم كل طريق ممكن، فنسبقهم إلى المنافذ ونتربص بهم هناك. في أحد الممرات أخبر القائد جنوده بعد أن تملك منه ومنهم اليأس: "لنمت إذًا ونحن نفتح هذا الطريق بقلوبنا بعد أن عجزت سيوفنا عن فتحه لنتسلق هذه الجبال فنموت بجدارة بدل أن نذبح هنا ذبح النعاج" ثم لوى رأسه جواده إلى المرتفعات وراحوا يتسلقون حوافها الصخرية القاسية وتبعه باقي الفرسان من الخيالة والمشاة بعدما علموا أن موتهم صار حتميًا وأنهم قد ضاعوا في دهاليز الجبال، وبمجرد أن فعلوا ذلك انهال عليهم سيل هائل من الحجارة والصخور وكانت بعض هذه الصخور تضربهم مباشرة فسقط من فوق فرسه من سقط وتعلق بذيول الخيل من تعلق والخيل نفسها أصبحت تخطئ موضع أقدامها على الصخور فكانت تسقط بمن فوقها من فرسان في مشهد عجيب حقًا! من استطاع الهرب مؤكد أنه قد مات تائهًا في شعاب الجبال والكثير منهم قد وقعوا في أسرنا. أدى ذلك لزيادة حنق القشتاليين علينا فقتلوا عائلات كاملة دون أي سبب، وزج بآخرين داخل السجن دون تهم، وتم خطف الأطفال وبيعهم في الاسوق حتى يتوقف ثوار البشرات عما يفعلونه.

نعم، مات من مات وسجن من سجن وانتصروا هم بالنهاية، ولكن ستبقى ثورة البشرات دليلًا على أن أهل الأندلس قد قاموا ودافعوا عن أرضهم لآخر قطرة دماء وآخر نفس فيهم حتى وإن لم يكن النصر حليفنا.

قادوا الأسرى وعائلاتهم من نساء وأطفال إلى باب الرملة ليباعوا هناك في ساحة خصصت لبيع البشر بالمزاد. نساء باكيات نائحات تعرضن للفرجة، ورجال مقيدون من الأرجل والأيدي لا حول لهم ولا قوة. توغل الجنود في كل دهاليز الجبال يمشطونها شبرًا شبرًا، يبحثون عن الثوار المختبئين ويقودونهم بلا رحمة للموت. لم يكن هناك من سبيل أمامنا سوى الرجوع مرة أخرى إلى غرناطة. تفرق كل منا بطريق، ومن حالفه الحظ منا وصل سالمًا، ومن لم يحالفه الحظ فقد لاقى مصيرًا أسود.

أخذته تلك الكلمات لما حدث في العراق، ذلك الظلم البين والتآمر من جهات كثيرة على البلد. أليست طريقة التفكير واحدة؟ الذي فعله الإسبان منذ مئات السنين هو نفسه ما فعله الأمريكان منذ عدة سنوات. إنها حرب أخرى مستمرة لم تتوقف يومًا، لا تدار في أرض المعركة بل في الخفاء. مخطط لإثارة المشاكل في البلاد وإقناع طائفة من الشعب بأن رئيسهم لا يستحقهم وأنه يجرهم معه للهاوية حتى تدب الفتنة بين الجميع ولا يثق أحد في الآخر، إنها تلك العقلية التي لم ولن تتغير، ستظل إلى ما لا نهاية من الزمن فتيلًا يشعل الفتنة وتقسم الشعب لعدة فرق إحداها تبجل وتعظم الحاكم، وأخرى لا هم لها سوى إظهار مساوئه، وأخيرًا تؤدي دور المتفرج.

وهل كان الأمريكان أكثر رأفة من الإسبان؟ فالإسبان وإن مثلوا بجثة "ابن عبو" فالأمريكان أيضًا مثلوا بالرئيس العراقي صدام حسين. الفرق أن التمثيل لم يكن في موته ولكنه كان أثناء حياته، في ذلك المشهد الذي تم عرضه ليشاهد الجميع رئيس دولة عربية كان على سنوات حكمه هو الأكثر قوة وثقة وأناقة، وفجأة نجده وقد خرج علينا مشعث الشعر واللحية ، زرِى الهيئة، يجلس أمام طبق للغسيل، يقوم بفرك جواربه المتسخة. ولماذا تحديدًا الآن اهتمت الكاميرات الأمريكية بالتقاط الصور له، وخلال عقود حكمه الطويلة غضت الطرف عن أفعاله وارتكاباته التي كانت بوضح النهار وعلى مرأى من الجميع ؟

وإن لم تكن هذه الصور التي بثتها الكاميرات في جميع القنوات وتصدرت الصفحة الأولى من الصحف اليومية بتمثيل، فماذا يمكن أن تكون؟

ولم تكتف أمريكا بذلك. جاء قتله في أول أيام عيد الأضحى وبتوقيت الأضحية لتعلن أمريكا للعرب أنها ذبحت النعجة التي عصت أوامرها.

هل وجدت أمريكا سلاحًا نوويًا في العراق؟ إنها حجة دخلت تفتش عنها في دهاليز المخابئ السرية للبلاد التي هدمتها رأسًا على عقب للعثور على ما يريدون وليضعوا يدهم فوق ما يطمعون. ولماذا غضت أمريكا نظرها عن كل ما تملكه كوريا وإسرائيل من السلاح النووى ؟

ما حدث في العراق والبلاد العربية هو ما يحدث منذ زمن عند دخول الغازي ليقدم لشعبها المسكين الوعود على أطباق فضية مغلفة بآمال في الحرية والأمان ومستقبل مدهش، بينما ثروات الوطن هي وجبة الطبق الشهية، فهم يرون أننا شعوب لا قيمة للإنسان فيها ما دام قد صمت كل هذا الوقت على طغاة يحكمونه، ومن السهل وقتها أن يأتي المحتل ويوهمك بالحرية التي تنتظرها وتحلم بها، وهو يخطط لبيع وطنك وثرواته من تحت الطاولة، لذلك يؤدي الطريق دومًا لاتجاه واحد، تتحسر الشعوب على زمن ولى !

غالبه النعاس فوضع الكتاب على الطاولة بجوار فراشه. انتابه في هذه الليلة أضغاث أحلام ذهبت به لغرناطة فوجد نفسه فارسًا أندلسيًّا يمتطي صهوة جواده، يطيح بسيفه يمنة ويسرة، يقطع رأسًا من هنا وذراعًا من هناك، حتى اقترب منه رجل وحاول أن يغرس سيفه في قلبه، فاستيقظ مفزوعًا يسمع وقع دبيب الجياد وصهيلها ولا يكاد يرى المكان من الزوابع الترابية التي تخلفها الجياد وراءها.

وقف يتأمل نفسه بمرآة الحمام، شعيرات بيضاء نابتة بذقنه وشعر أشعث وعيون متعبة. كان مظهره يوحي لمن يراه بأنه تخطى الخمسين من عمره وهو بعد على مشارف الثلاثين. أيكون هم العمر الذي تراكم على الروح وترك ظلاله على ملامحه. أم أنها تداعيات مهنته كقاتل مأجور يحيا عمره مرتبكًا وخائفًا بعد أن غادره الأمن ومن قبله الأمان، أما عن الإيمان فمنذ متى لم تطأ قدمه مسجدًا؟ كلما هم بالصلاة لا يستطيع. فكيف له أن يقف مكبرًا إيذانًا بالصلاة بذات اليد التي تزهق الأرواح؟ كيف له عند تلاوة التشهد أن يرفع ذات الأصبع الذي يضغط بها على الزناد ليقنص ضحيته؟ وبالرغم من ذلك فهو حريص على صوم رمضان، ومن حين لآخر يقرأ في المصحف الشريف الذي وضعته له جدته في يده واستحلفته ألا يهجره، أما وقوفه أمام الله في الصلاة فهي مواجهة يصعب عليه أن يفعلها.

أغرق جسده الماء الساخن الذي يصل لحد الغليان ليغسله من الخارج فقط، أما من الداخل فالغبار عالق بجوانب الروح. سؤال واحد يلح عليه: متى سوف ينتهى كل ذلك؟ وإلى متى سيحيا على قيد وهم بأنه يفعل ذلك بدافع الانتقام من قاتل أهله بينما في كل من قتلهم لم يقتله؟ كشريط سينمائي قديم يدور ببطء مرت صور ضحاياه جميعهم بشاشة عقله و وشيش في الصوت يخترقه من حين لآخر، صوت طلقة رصاص. تدور الصور بالأبيض والأسود وتظهر فقط بقع الدماء ملونة بالاحمر .

فجأة وكأن الذاكرة ضغطت على زر الإعادة لتعود به الصور مسرعة وتقف عند مشهد معين. مشهد أجساد أسرته وهي ملقاة هنا وهناك ويحيط بكل منها بركة من الدماء بينما يتكوم على نفسه ويستند بظهره على الحائط وينظر إليهم. يذكر هذه النظرة في عيني أبيه الجاحظتين ويده ممدودة باتجاهه وكأنه يطلب منه الانتقام له... هكذا تراءى له المشهد.

وهو في طريقه إليها بدا متأنقًا كما لم يكن من قبل. كان يوم إجازتها الأسبوعية ولم تكن في انتظاره، كانت خطط أخرى عليها أن تنجزها، وكعادته لم يسبق حضوره اتصال ولكن على كل الأحوال تهللت أساريرها برؤيته ثم سألته:

- أنت.. مبكرًا هكذا! نادرًا ما تغادر الفراش في هذا الوقت، أم تراك بت ليلتك تحلم بي؟

- الحزن سيدتي أكبر محرض على رؤيتك.

فجأة دخلت في تفكير عميق فسألها:

- أين ذهبت؟

- أبدًا.. أحاول أن أفهمك.

- لا داعي. لا تحاولي.

- ولكن عندما يتعلق الأمر بالعلاقة التي تربطنا يجب أن أحاول. هل تأتي لتراني لأدفع عنك أذى الحزن؟

لم يجبها، فكررت عليه السؤال بنبرة تمتزج فيها العصبية واللوم والحسرة:

- هل الحزن وحده هو الذي يأتي بك إلى هنا؟

كان يدير لها ظهره مشغولًا بإعداد فنجان قهوته وبدا الأمر كما لو أنه لا يعنيه.

- وماذا في ذلك؟ عليك أن تسعدي.

- كيف؟ وأثناء سعادتك لا يمكنني العثور عليك؟

وهنا أدار لها وجهه واقترب منها وطوقها من خصرها:

- على العكس هذا دليل على قيمتك بحياتي. عادة نحتاج لمن هم أكثر قربًا لنا لنفرغ حزننا لهم ومعهم، أما السعادة فهي شعور زائف سرعان ما يزول وبإمكانك وقتها أن تعبري عنه بشتى الطرق. بالغناء، بالرقص، بالركض.

وهو يعبث بخصلات شعرها:

- كما أنني لا آتى إلى هنا لتشاركيني حزني فقط. هناك أشياء أخرى جميلة وممتعة أليس كذلك؟

طبع قبلة حانية على جبينها فسحبت نفسها منه بهدوء.

- ولكن بعد مرور كل هذا الوقت على علاقتنا ما زلت أجهل حقيقة شعورك تجاهي.

غادر مقعده للنافذة، توقف أمامها طويًلا. يراقب الحياة بالخارج حركة السيارات وسير المارة في الشارع وكل هذا الصخب، تمنى وقتها أن يكون ذلك الرجل الذي يرتدي معطفًا أزرق ويمسك بمظلته ويسير مسرعًا ليلحق بموعده، أو هذا الشاب الذي يقود سيارة "ستروين" رمادية اللون وما زالت آماله قيد التحقق، أو حتى كالفتى الذي يحمل باقة من الزهور وفي طريقه بها لعنوان ما، حيث سيصنع بهجة على نهار أحدهم. تمنى لو كان رجلا عاديًا له أحلام يسعى لتحقيقها، تمنى لو بمقدرته أن يفرح حقًا ويرتبط بمن خفق لها القلب ويتزوجا ويصبح لديهما أطفال وبيت مؤثث بأناقة بحديقة يحيط بها سياج خشبي أبيض ويقتني كلبًا صغيرًا.

ولكن ذلك الحادث الذي وقع له في وقت ما، وقت قليل كهذه الدقائق القليلة التي نستهلكها في خلع معطف أو ارتداء حذاء أو في صفع الباب وراءنا، هذا الحادث الذي لم يستغرق دقائق معدودات جعله يبقى دومًا على الحافة من كل شيء. هو يحب الناس ولكن لا يقيم علاقات اجتماعية معهم، هو يحبها ولكن لا يستطيع أن يرتبط بها، هو يحب الأطفال ولكن لا يستطيع أن يكون له أسرة وبيت. الحياة نفسها يحبها ولكن في نفس الوقت يخشاها ويحيا على حافة وجوده فيها، يمارس تلك الأفعال التي يحتاجها للاستمرارية، يأكل ويشرب وينام، ويقتل أيضًا يفعل كل ذلك دون أن يخوض في تفاصيل الحياة.

دخل في تفكيره العميق بينما كانت هي لا تزال تنتظر إجابته.

- هل لنا أن نؤجل الحديث في هذا الأمر الآن؟

كانت نهاية السنة، وهو يعشق نهايات السنة في هذه المدينة، فكل إنش فيها يحرض على الفرح والسعادة، تتزين واجهات المحلات بأشجار أعياد الميلاد التي يكسوها الثلج، تضاء الأنوار، تبتسم لك دمية بابا نويل أينما حللت، وتعلن المتاجر الكبرى عن موسم التخفيضات على الهدايا بمناسبة الأعياد، تعود أن يذهب لتلك المتاجر يراقب الناس وهي تختار الهدايا للأهل والأصدقاء، ويخرج كل منهم محمًلا بعدد لا بأس به من العلب الملفوفة بورق الهدايا المزركش، فكان يذهب ليلتقط منهم عدوى الفرح ويستمد ولو قليًلا من بهجتهم التي تنشر ذبذباتها في أنحاء المكان، ووقتها لا بأس أن يشتري هو أيضًا الهدايا لنفسه. اليوم ما عاد الأمر مثل السابق، فهناك أنثى جميلة تقطن قلبه وحياته ويستطيع أن يختار لها الهدايا ويقدمها لها في ورق الحب المزركش.

- هيا ارتدي ملابسك.. سنذهب لشراء الهدايا.

- ولكن أي هدايا؟

- هدايا عيد الميلاد.

لاحظ علامات الاستغراب عليها.

- ما دمنا نعيش هنا فلنشارك أهل المكان سعادتهم وأعيادهم.

يومها تبعثرا في متجر باريس جاليري بطوابقه المتعددة، وعلى العكس ذهبت هي لقسم الرجال بينما ذهب هو لقسم النساء. اختارت له رابطة عنق أنيقة، ولأنه لا يملك خبرة في المشتريات النسائية طلب من البائعة أن تساعده في اختيار عطر ناعم يشبهها. وفي نيته شيء آخر، شيء سيعوضها به عن كل أيام الحرمان الذي سببه لها هو والحياة. كان سعيًدا وهو يمسك بكفها الصغيرة الدافئة ويهرولان معًا وسط زحام المارة.

هل كان يحبها فعًلا؟ كان انجذابه مبهمًا تجاهها، وسبب مجهول يدفعه دفعًا لحمايتها من هذا العالم القاسي الذي يحيط بها. كان يرى فيها أمه التي ذهبت ضحية لغدر وقسوة الحياة ولم يستطع إنقاذها، أحيانا يتملكه شعور بالذنب تجاه أمه دون باقي أفراد عائلته ويتساءل: لماذا قبعت في الخزانة كالأرنب الجبان؟ لماذا لم أخرج إليهم وألقي عليهم أي شيء في يدي؟ ربما وقتها كان في استطاعة أمى أن تفر منهم وتنجو من الموت. كانت هي المرأة الوحيدة التي دخلت حياته بعد أمه فكان يشعر بأنه مسئول عنها وعن حمايتها ليزيل عنه عقدة الذنب، بالإضافة إلى أنها كانت بوابته للعالم الحقيقي، هي الصلة الوحيدة التي تربط بينه وبين الحياة فمعها يشعر بمباهج الحياة ويشعر أنه إنسان سوي قادر على الحب والعطاء، فكانت كالخيط الرفيع الذي يربطه من جهة بماضيه ومن الجهة الأخرى بحاضره ومستقبله.

أثناء مرورهما صادفهما متجر عريق متخصص في بيع الألماس يقف أمام بوابة مروره الإلكترونية حارس أمن مفتول العضلات. كان يتأمل واجهة المتجر الأنيقة التى صممت بما يليق بمحل للألماس في حين كانت مشغولة بمتابعة رجل وامرأة في الجهة الاخرى دخلا معًا في قبلة طويلة لم يمنعهما منها صخب الطريق أو فضول المارة. فجأة وجدته وقد شد كفها للخلف ، كما لو أنه كبح فرامل سيارة مسرعة وعلى إثرها أهتز من يجلس بجواره أهتز جسمها الضعيف ، ثم ذهب بها في اتجاه المتجر. قدم بطاقة هويته لرجل الأمن الذي بدروه ضغط على رقم كودي ففتحت البوابة الحديدية عن باب خشبي آخر، وبعد تفتيش معقد وجدا أنفسهما أخيرًا في الداخل.

كان المتجر واسعًا ومخصصًا كل قسم بذاته. هناك قسم للخواتم وقسم للأقراط وآخر للدلايات وهكذا. استقبلتهما سيدة شقراء في منتصف العمر وسألتهما عن أي قسم يريدان وهي تتفحص بنظرة سريعة هيئة الزبونة التي لا توحي بأن الألماس هو معدنها المفضل، تدل بساطة ملابسها على ذلك، بنطلون من الجينز وسترة جلدية وحذاء رياضي هيئتها بعيدة كل البعد عن هيئة زبونات المتجر، هؤلاء النسوة غاية في الترف والأناقة بملابسهن الكلاسيكية من تصميمات أشهر بيوت الأزياء "برادا – شانيل – ركوباركو" تركضن بالكعوب العالية لأحذيتهن على أحلام البسطاء، وكموظفة محنكة ألقت نظرة على الرجل الذي جاءت في صحبته فلاحظت العلامة التجارية لبيت أزياء "بيار كاردان" على سترة بذلته وبريق الألماس في ساعته، فتأكدت من فحش ثرائه ووقتها فقط كان لا يهم هيئة المرأة ما دام من سيدفع حافظته متخمة باليوروهات.

أجابها:

- نريد قسم الخواتم.

ذهبت بهما لقسم الخواتم، وهناك استقبلهما رجل سمين وقصير تتدلى من عنقه بطاقة تعريفه، وبابتسامة عريضة أمسك بالبطاقة ومدها إليهما وهو يقول:

- مسيو ديان في خدمتكما.

ثم وجه نظره إليها متسائلًا: أى نوع من الألماس تفضلين؟ تبدلت ملامحها ما بين الدهشة والتساؤل. فملأ الحماس الرجل وأخذ يشرح لها وهو يعرض عليها الألماس:

- هل تفضلينه الشفاف – الأسود – الوردي؟

وهي التي لم تقتن يومًا سوى الحلي الفضية، فوحدها التي كانت في متناول محفظتها. لم تكن على دراية بأن للألماس لونًا غير الأبيض.

- كم قيرًطا تريدان حتى أستطيع مساعدتكما؟

كان يحدثهما، بينما علقت عيناه على خاتم لفت نظره، فأشار إليه فسحب الرجل علبته وقدمه له.

أخذ وقتًا طويلًا وهو يتأمل الخاتم، كان بدعة فنية بحق، نحت على شكل فراشة مرصعة أجنحتها بالألوان المختلفة من الفصوص الماسية "وردي، أزرق، أسود، والأبيض".

قدمه لها وهو يسألها:

- ما رأيك في هذا؟

فتأملته مليًّا ثم قالت:

- رائع.

أمسك كفها ووضع الخاتم بإصبعها، كان على قياسها تمامًا.

عدة تساؤلات تدور برأسها. لماذا سيكلف نفسه شراء هذا الخاتم الغالي الثمن؟ نعم أناقته وسيارته وساعته كلها توحي بثرائه، ولكن ما المبرر أن يهديها خاتمًا من الألماس وهو بعد لم يعترف لها بأي كلمة حب واحدة؟ وعلى أي حال بالنسبة لها كانت كلمة حب واحدة أثرى وأجمل من كل الأشياء.

لاحظت أنه لم يسأل الرجل عن ثمن الخاتم وكأن تلك الأشياء لا تعنيه. سلم له البائع قسيمة الشراء ولم يكلف نفسه النظر فيها. توجه مباشرة للخزينة وأنجز عملية الشراء بالبطاقة البنكية الخاصة به.

سلمه البائع الخاتم في علبة من القطيفة الحمراء، وضعها في جيبه وخرجا من المكان. كانت سعيدة وكان سعيدا لسعادتها.

ولكنها كانت تتساءل: لماذا لم يضع الخاتم في إصبعها؟

فجأة انتابتها مشاعر متضاربة ما بين حزن وقلق عندما فكرت أنه ربما اشترى الخاتم لأخرى فهو لم يسألها إن كان الألماس معدنها المفضل أم لا؟ ولكن هل هناك أنثى لا تحب الألماس ! وكذلك لم يدعها تختار الخاتم بنفسها، ولكنها تعلم غرابة شخصيته ومن المتوقع أن يفعل ذلك وأكثر.

في السيارة خيم الصمت عليهما، كل ما تفوه به:

- إنى أتضور جوعًا.

وعرج مباشرة على مطعم مكسيم الأكثر شهرة في هذه المدينة الأنيقة، استقبلهما المتردوتيل بأدب زائد وأوصلهما لزاوية في المكان حيث طاولة لفردين. كان المكان مزينًا بأشجار الكريسماس وتنبعث من أركانه موسيقى هادئة. حضر النادل بهيئته الأنيقة التي هي أقرب لهيئة مدير عام وضع قائمة الطعام أمامهما وغادر قائلًا:

- خمس دقائق وقت كاف؟

اكتفى إياد بإيماءة من رأسه. انشغلت بقائمة الطعام لاختيار طبقها وأخرج هو الخاتم من جيبه وسحب يدها ليضعه فيها وهو يسألها بصوت قريب من الهمس:

- هل تقبلينني زوجًا؟

عقدت الفرحة والدهشة لسانها. ضاقت حدقتا عينيها ثم اتسعتا مرة أخرى وزمت شفتيها ثم ابتسمت. بينما كان يراقب تلك الانفعالات بهدوء كبير، وأخيرًا قالت:

- ولكنك لم تحدثني في هذا الموضوع مسبقًا؟

- أي موضوع؟

- الزواج.

تذكرت المناقشة التي دارت بينهما في الصباح ولم يلمح بخصوص ارتباط أو زواج، اكتفى فقط بأن توغل في صمته أكثر. هو نفسه لا يدرك لماذا فعل ذلك؟ ولكن شعورًا غريبًا اجتاحه ورغبة عارمة في أن يعيش ما بقي له من عمر في هدوء ويمارس دوره كزوج وأب.

- أجمل الأشياء تأتي دون أن نخطط لها كالصدف مثلًا.

- نعم وأنت صدفتي الأجمل.

وضع قبلة على يديها. تأملت الخاتم ثم قالت:

- لم يكن هناك داع لشراء مثل هذا الخاتم باهظ الثمن.

- أتعلمين ، إنه المعدن الأكثر إثارة للآقاويل، هناك معتقد خرافي بأنه عرق يتساقط في نهاية الربيع من كل عام اثر علاقة ما بين الأرض وهي الأنثى والسماء وهي الذكر .

ضحكت بسخرية:

- يا له من خيال! إنهم البشر عندما لا يستطيعون تفسير أمر ما. أمر فوق مستوى تخيلهم.

وضع النادل الأطباق وأكلت هي بشهية مفتوحة وهي تثرثر ولكنه لم يكن يسمعها. كانت الموسيقى التي تصدح في أنحاء المكان حزينة وغامضة، شعر أنها تأتي من داخله، تشوشت وجوه من حوله ويراها تحرك شفاهها ولكن لا يصله صوتها . لم يعد سوى تلك الموسيقى التي تعود كل مرة أبطأ كلما أوشكت على الانتهاء!

في طريق العودة سألته:

- ولكنك لم تجبني؟

- عن ماذا؟

- عما كنت أحدثك عنه منذ قليل.. موعد الزفاف وتجهيزات البيت وهكذا.

- هناك رحلة صيد مهمة، علي أن أنجزها وهي رحلة العمر بالنسبة لي ولا أنوي الخروج للصيد بعدها.

صمت برهة وأضاف:

- عندما أعود منها بإمكانك تدبير كل شيء، سأصبح ملكًا لك وحدك. تأكدي من ذلك.

ابتسمت وقتها. فلم تكن تملك سوى الابتسام.

أمام جهاز الكمبيوتر الموضوع على مكتب في إحدى زوايا منزله كان يجلس، ضوء خافت يتسلل إليه من أباجورة بجواره وحوله عدد لا بأس به من أوراق مبعثرة وعدد من المجلات أغلفتها تحمل صورة واحدة لرجل واحد، إنه نفسه ذات الرجل الذي تعرض شاشة الكمبيوتر صورته. إنه القناص كريس كايل. كانت المرة الأولى التي يختار فيها ضحيته بنفسه. لم يكن يعرف يومًا ضحاياه ولم يلتق بهم مسبقًا، يقتلهم بناء على رغبة أناس آخرين ومقابل مبالغ مالية، ولكن هذه المرة يعرف هدفه تمام المعرفة والتقى به مسبقًا وانتظره طويًلا وستكون العملية الأولى التي لن يتلقى مقابلها عائدًا، وبالرغم من ذلك سيكون عائده أغلى من أي عائد حصل عليه، إنه "الانتقام" وإشباع رغبة ظلت تشتعل بداخله منذ اليوم الذي قتل فيه هذا الرجل أهله . في كل عملياته السابقة كان ينتقم من العالم الذي تملؤه الكراهية ويعم قلوب ساكنيه السواد، عالم يجلس ليضع خطط القتل والموت. نعم يعلم أن أكثر ضحاياه لا ذنب لهم ولكن يكفيه ذلك الشعور بالراحة والتشفي كلما ضغط على الزناد لقنص أحدهم. هناك شيء ما يحدث في طفولة كل منا ويظل عالقًا بنا ومرابطًا لنا يتحكم في مصيرنا، وما أقسى ما حدث في طفولته وأوصله لذلك!

أخذ يصول ويجول في مواقع البحث ليتأكد من أنه حقًا هو الشخص الذي أودى بحياة عائلته، بالرغم من أن قلبه كان يدله عليه، ولكن هذا لم يكن كافيًا خاصة أنه لمحه يومها لعدة ثوان من خلف زجاج النافذة ومنذ ذلك اليوم البعيد احتشد الغبار فوق نافذة الذاكرة وتوجب عليه أن يزيله ليتأكد أنه هو، بالإضافة إلى أنه قناص ومركزه القتل من مسافات بعيدة فلماذا تخلى في هذه المهمة عن القنص عن بعد؟ هل مثلا ليستمتع برؤية هذه الأطفال وهي تنتفض كالأفراخ الصغيرة قبل لفظ أنفاسها الأخيرة؟

قرأ خبر عن حفل توقيع لكتابه الذي صدر منذ عام ويحكي فيه سيرته الذاتية. ارتدى ملابسه على عجل وذهب لشرائه، وفي طريقه كان يتساءل: أي سيرة ذاتية تستحق أن يوثقها في كتاب؟ وترى أي قيمة في حياته ليوجزها بين ضفتي غلاف؟ وما الذي أنجزه سوى حصد الأرواح؟ فيا لقسوتك يا رجل عندما تحشد الصفحات البيضاء للحكي عن بطولاتك في الإجرام والخيبة.

اشترى الكتاب من مكتبة قريبة من منزله وعاد أدراجه وهو يحمله بحرص، صنع لنفسه كوبًا من القهوة، وعلى ضوء الأباجورة جلس ليقرأ ليس كقارئ يتصفح كتابًا ولكن كقاضٍ يحمل أوراق قضية سوف يقوم بدراستها بدقة وتأن ليتخذ قرارًا بالحكم على المتهم، أي كاتبٍ مهما حاول أن يبتعد بحياته عن كتاباته فهناك خيط رفيع يشي به، ومن بين السطور بإمكاننا أن نكتشف أسراره ونتعثر بخطاياه ونعرف عقده وذنوبه. فما بال هذا الكتاب الذي يحكى السيرة الذاتية لرجل كثيًرا ما بحث عنه وعن حقيقة واحدة تقوده إليه. الآن ها هو يقدم له على طبق من فضة كل شيء عنه.

فنجان من القهوة وراء آخر وساعة وراء أخرى ولم يترك الكتاب من يده إلا وقد انتهى منه. عند المعلومات الهامة يقوم بثني الصفحة، اعترف القناص بأنه قتل ما يزيد على 255 قتيًلا وفي كل من قتلهم لم يكن يشغل بال إياد سوى خمسة فقط، وصفحة وراء أخرى يتساءل: هل سيأتي على ذكرهم؟!

أول تصويب طويل الأمد كان عن طريق الخطأ عندما قتل سيدة تحمل دلوًا به ماء تحت عباءتها وظن هو أنها قنبلة، كان يتخذ موقعه من فوق أسطح أحد المنازل ليحمي قوات المارينز وهي تقتحم البيوت، لمح هذه المرأة وهي تناول ابنها – صبي في العاشرة من عمره – دلوًا شك هو أنه قنبلة، في البدء تردد في قتلها ولكن في لحظة ما كان قد قرر أن ينهي حياتهما فقتل الصبي وعندما هرعت أمه باتجاهه صوب إليها بندقيته، وبعدها اكتشف أن كل ما ارتكبته يداهما كان حمل دلو به ماء. كان يحرز تفوقًا كبيًرا في قنص الأرواح وعملية بعد أخرى أطلق عليه الأسطورة ورصدت مكافأت كبيرة لقتله من قبل القوات العراقية وحاول أشهر قناص بالجيش الإسلامي بالعراق الملقب ب"أبو صالح" والذي قام بقنص 645 جنديًا أمريكيًا أن يقتله ولكنه فشل. وصفه البعض ب"الشيطان الرمادي" لأنه لا يخلف وراءه أثرًا وكأنه ليس له وجود.

توقف أثناء قراءة الكتاب عند إحدى الصفحات طويًلا وقرأها مرارًا وتكرارًا ، ثم قام بثنيها بالرغم من أنه لم يكن بحاجة لذلك فقد حفظ كل كلمة كتبت فيها. كان يصف فيها إحدى عملياته التي كلف بها بعد اجتياح الجيش الأمريكي للعراق بساعات قليلة وكانت لمهندس بالطاقة الذرية شارك فيها قوات المارينز في عملها بالقتل بطريقة مباشرة "عند اقتحامي مسكنه كانت زوجته وأولاده ينتظرونه على طاولة الغداء، قمت بقتلهم جميعًا ولم أدع توسلات الأم وصراخ الأطفال يستوقفاني. سمع الهدف صوت طلقات الرصاص هبط الدرج مسرعًا فأطلقت علية وابًلا من الرصاصات وأخيرًا أغرقت الدماء المكان وهذا وحده كاف لإشباع جرعتي في القتل في ذلك اليوم. أما من بقي من أفراد العائلة فكنت أشفق عليه من كل هذه الفوضى التي تركتها خلفي ومضيت. لم يعد شيء بمكانه، بحور من الدماء غطت كل شيء وجثث تكومت الواحدة فوق الأخرى. حقًا سيحتاج جهًدا كبيرًا لترتيب كل ما تركته له من فوضى".

غلت الدماء في عروق إياد أكثر وأكثر حتى كادت تنفجر. أيعقل أن يكون هناك استخفاف إلى هذا الحد؟! أي فوضى التي يتحدث عنها وقد أزهق أرواح أبرياء لا حول لهم ولا قوة. على أي حال بهذا الاعتراف تأكد أنه هو بعينه الفاعل. أغلق قبضتي يديه على غضبه وغيظه. تمنى أن يكون أمامه الآن ليشبعه ضربًا حتى الموت. كشف الكتاب مدى هوس وولع هذا الرجل بالقتل ولم يكن للأمر علاقة بكونه خرج في مهمة رسمية مع جيش بلاده يحاول أن يثبت فيها أنه بطل، ولكن الأمر يرجع لميوله العدائية وكراهيته للعرب كراهية كبيرة وخاصة بعد تفجيرات 11 سبتمبر والتي كانت سببًا أساسيًا لتطوعه في الجيش الأمريكي، لذلك كان ينجز عملياته الواحدة بعد الأخرى بشراسة الحيوانات المفترسة . وكان من السهل من بين صفحات الكتاب ملاحظة أن ما يحمله هذا الرجل بين جنبات الضلوع ليس سوى قطعة من الصخر وربما أشد قسوة. يعترف بأنه لم يعتره يومًا شعور بالذنب أو الحزن، بل على العكس كان يريد التخلص من هدفه بأسرع ما يمكن.

أغلق إياد الكتاب، أشعل تبغه ومضى يتريض في شوارع باريس الباردة، نتف من ثلج كانت تتساقط فتكسو شعره ومعطفه الأسودين. جلس على مقربة من نهر السين ، الهدوء يعم المكان و دخل في تفكير عميق حتى أن رماد سيجارته امتد حوالي بوصة في إصبعه، تساؤل واحد اشتعل برأسه – ها هو الرجل الذي قتل عائلته يعترف بفعلته، لماذا إذن قتل هو كل هؤلاء الأبرياء بينما كان عليه أن يقتله هو ؟ أم هي شهوة القتل التي يتحدث عنها الرجل والتي تستعر بداخله

كـالوحوش الضـارية ولا تكتفـي أبـدًا، دومًـا بحاجـة للمزيـد مـن الـدماء. وكـأن الأرض تـدور بـه، وتتأرجح البواخر يمنة ويسرة بالنهر ويعلو صرير المقعد الخشبيي من تحته وروحـه تكـاد تخـرج من بين جوانبه. صور من حصد أرواحهم، ارتجافاتهم قبل الموت وسكون أجسادهم بعده تمر أمامه ببطء.

جاء صوتها عبر الهاتف ليقطع اشتعال سكونه ويخرجه من كل ذلك. بصوت متهتك حدثها. وهي التي تحفظ صوته تمامًا، إن كانت عيناه تفلحان في إخفاء ما يدور بخلده فعلى عسكهما كان صوته دومًا يشي بفرحة وبحزنه، أحيانًا تأتيها نبراته راقصة على وقع فرحه، وأحيانًا تأتيها حزينة وشجية كمن ترتدي الحداد، وفي أخرى خافتًا ومتهدجًا كرجل تملؤه الرغبة في كل الأحوال كانت مقولة إن العين مرآة الوجه لا تجدي معه.

- ما بك؟

- لا شيء.

كيف لا شيء؟ صوتك منهك وكأنك خارج للتو من مسابقة للعدو السريع.

أخرجه صوتها مما كان فيه وتذكر ابتسامتها التي تفتح على أسنان بيضاء والغمازة الساحرة التي على جانب خدها الأيسر.

- أريد أن أراك.

- الآن؟!

- نعم الآن.

- حسنًا كنت أعد الطعام تعال لنأكل معًا.

طوال الطريق كان يفكر فيها ويفكر أنه أصبح دومًا بحاجة ملحَّة لرؤيتها والحديث معها. يحب طريقة حديثها عندما تتداخل في الجملة الواحدة اللهجة المغربية والمصرية وبعض من الفرنسية.

كانت تتحدث أوَّلا بلهجة بلادها المغربية، وعندما كانت تلاحظ أنه قد بدأ يضيق من حدقتي عينيه في محاولة بائسة لفهم ما تقوله تبدل حديثها للهجة مصرية، وأحيانًا لا تسعفها معرفتها الضعيفة بالعربية في التعبير عن بعض الكلمات فتلجأ للغة البلد التي نشأت وتعلمت بها. اللغة، إنها ثقافة الإنسان ودليل على موطنه ونشأته، وهي حائرة ما بين تعدد الأوطان والثقافات. بين كل ما يمت للعربية بأصول وتقاليد وعادات متزمتة وبين وجودها في هذه البلدة التي تنعم بالحريات والتي يتبع فيها الفرد ما يمليه عليه عقله وقلبه لا أكثر، غير مرغم على العيش تحت أي قيود، كل المطلوب منه أن يحترم القوانين وحرية الآخر وبعد ذلك أي ما يفعله فهو حر فيه. لذلك نشأت متأرجحة بين عادات ترى أنها بالية، ولكن أباها بعقليته العربية الصميمة كان يصر على تقييدها بها كسوار حول معصمها، وكان كل ما يحيط بها من حرية ضد ما يغرسه في عقلها الصغير من واجب المحافظة على التقاليد والمبادئ والحرص على الحلال والابتعاد عن الحرام. فعاشت دومًا كأي مغترب أوربي مشتت بين مسقط الرأس ومسقط الحلم. وطنَين كل منهما يحمل هذا التناقض. لذا حاولت المحافظة على توازنها، لم تدع الأرجوحة تجنح بها لأقصى اليمين أو لأقصى الشمال، خلقت لنفسها منطقة وسطى بين قيود مجتمعها الشرقي الذي لم تسكنه يومًا وحرية المجتمع الذي تسكن فيه.

حتى علاقتها بإياد كانت تقف دومًا عند حدود لا يستطيع أن يتخطاها معها. بالرغم من أن المجتمع الذي تعيش فيه لم يعد يهتم بتلك الأمور، ولكن شرقيتها ودينها اللذين كانت تحاول أن تلتزم بهما يقفان بها دائمًا عند حدود بمثابة الخطوط الحمراء لا تستطيع أن تتخطاها.

استقبله البيت بدفء غامض ورائحة طعام طيبة، وكانت هي بعباءتها المغربية تتدلى منها قلنسوة على الظهر، وبشعر غجري تركته ينسدل خلفها، تفوح منها رائحة عطر شرقية كأميرة خرجت من كتب التاريخ. أخبرها أنها في هذه الملابس أكثر أنوثة وجمَالا:

- تبدين أجمل. ولكن هذه المرة الأولى التي أراك ترتدين فيها هذه الملابس!

- أحيانًا يأخذني الحنين لبلادي التي لم أزرها سوى مرات معدودة من عمري، فتجدني أقوم بطبخ طعامها، أرتدى زيها، أتكلم بلهجتها، أضع عطورها، أتزين بحليها. لأتحول من هذه الباردة فرنسية النشأة إلى تلك مغربية المولد، عربية الأصل، ذات الدم الحار.. أتعلم، أحيانًا أشعر بأني منتج كتب على غلافه صنع في فرنسا وأصل المنشأ المغرب!

بصوت يتكئ على الألم:

- بإمكان ما نرتديه وما نتذوقه أن يشعل الحنين بنا ولكن ليس بإمكانهما إطفاؤه. عزيزتي إنها الغربة، هي البلد الذي كلما فتح أبوابه لضمك إليه ارتجفت بردًا.

- للحنين أعراض جانبية منها إدمان الخيال، النظر للوراء، والحرج من رفع الكلفة مع الممكن والأفراط في تحويل الحاضر مع الماضي حتى في الحب.. تعال معي لنصنع الليلة ماضيًا مشتركًا، إنها أعراض الحنين كما يقول درويش.

- درويش من؟

- الشاعر محمود درويش، معقول لا تعرفه؟!

- ولماذا تستغربين؟ وهل هذا زمن الشعر؟! انظري فيما يحدث حولك، أديرى قنوات التلفزيون على أي قناة إخبارية عربية وأنت تعرفين أنه لم يعد هذا الزمن للشعر.

هزت رأسها بشدة تنفي ما يقوله:

- لا، ليس صحيحًا.. معجزة الحب أنه قادر على أن يحيا على مر العصور، والشعر أيضًا كذلك. ما دام هناك حب فهناك شعر.

- نابليون بونابرت وهو في طريقه بحملته إلى مصر ذهب إلى جنوده فوجدهم يقرءون الروايات والشعر فمنع هذه الكتب عنهم قائلًا: "إنها قراءة لا تليق إلا بخادمات الغرف، وعلى الرجال ألا يقرءوا سوى كتب التاريخ" لذلك أنا أطبق مقولة نابليون ولا أقرأ سوى كتب التاريخ.

ضربته على كتفه مازحة

- على نابليون أن يصمت، فهو الذي كان يذهب للبكاء تحت قدم جوزفين بالرغم من تأكده من خيانتها له!

- إذن دعينا من نابليون وأخبريني ماذا يقول أيضًا شاعرك هذا؟

- يقول: الحنين أنين الحق العاجز عن الأتيان بالبرهان عن قوة الحق أمام القوة المتمادية

أنين الغائب للغائب

والحاضر للغائب

مع قطرة الحليب الأولى

في المهاجر والمخيمات

الحنين صوت الحرير الصاعد من التوت

إلى من يحن إليه في أنين متبادل[1]

بصوت أقرب منه للهمس كرر وراءها: "يورثه الغائب للغائب والحاضر للغائب".

[1] للشاعر محمود درويش بعنوان الحنين في حضرة الغياب.

قالها وكأنه يحدث نفسه، ونفسه فقط. شعرت أن به شيئًا ما، ربما كانت هذه الكلمات أثرت فيه لذلك لم تشأ أن تسأله ما بك؟ قررت أن تبدل له مزاجه بطريقتها الخاصة، وضعت حساء "الحريرة" وطنجرة "الكسكس" باللحم وأدارت أغاني مغربية، أكلا بشهية جيدة، ثم بعد الطعام وضعت صينية عليها إبريق شاي وأكواب من الفضة المنقوشة. غابت لدقائق، وجاءته وهي تربط على وسطها حزامًا عريضًا تتدلى منه الحلي الذهبية، وعلى وقع الدف والقانون وصوت المغني الدافئ الذي تشوبه بحة من الشجن رقصت.

تتمايل بجسدها بخفة ورشاقة وهي بعد في مكانها بينما شعرها الغجري يتمايل معها على وقع غناء مغربي تتداخل فيه الألحان والمقامات الأندلسية، حتى الآلات المستخدمة كانت مزيجًا من البندير والدف والرباب والكمنجة. كان يتابعها من خلف سحابة دخانه فتمتزج الموسيقى بصوت المطرب الشجي مع رقصها لتصنع بها تلك لحالة من الخدر اللذيذ. بالرغم من عدم فهمه للكلمات فإنه كان منسجمًا مع الأغنية التي كانت كندب على شيء ما، وبدلا من تضميد الجراح بالموسيقى ها هي تزيد الجرح فتقًا ونزفًا. قام ليشاركها رقصتها فقد جاءت الموسيقى مطابقة لمزاجه ومفتاحًا لأبواب أحزانه. رقصا معًا حتى التعب وما إن انتهيا حتى تكورا معًا على الأريكة، كل منهما يدفن حزنه في الآخر. وللمرة الأولى يسألها:

- أنت لم تحدثيني عن عائلتك مسبقًا!

ضحكت بسخرية:

- متأخر جدا هذا السؤال، حتى إني كنت أعتقد أن أمري لا يعنيك.

- كيف أمرك لا يعنيني؟! على العكس، كوني لم أسأل من قبل فهذا دليل على أن وجودك هو كل ما يشغلني ولا ألقي بالا لأي شيء آخر.

- دومًا تجيد طرقك المفتوحة للهرب.

ابتسم وهو يهمس لنفسه: نعم أجيدها حتى من أصعب الطرق والممرات الضيقة.

وابتسم أكثر عندما تذكر واقعة هروبه من أضيق الشوارع بالعالم أثناء عمليته ببراغ، وكيف حشر الرجل السمين الذي يركض خلفه فيه ولم يستطع المرور.

ثم تحدثت بنبرة أقل وقعًا من المعتاد:

- جاء أبي لهنا من بلدته المغربية مكناس[1]، وهي بلدة بناها مولاي إسماعيل، وقد طلب بناءها لتكون العاصمة الجديدة لبلاده، وكان له طموح في أن يجعل من تلك المدينة كالعواصم الأوربية، ونجح في ذلك وأطلق عليها "فرساي الشرق" نسبة لقصر فرساي الموجود هنا، والذي بناه لويس الرابع عشر، فأصبحت تجمع ما بين المدينة القديمة والجديدة، وعند خضوع المغرب للحكم الفرنسي اهتم الفرنسيون بها بسبب موقعها الاستراتيجي وجعلوا منها مدينة أوربية.

[1] مكناس هي إحدى مدن دولة المغرب.

ثم تركته لبرهة وجاءت ومعها ألبوم للصور بغلاف وردي اللون. كانت الصورة الأولى في الألبوم تجمعها هي وعائلتها. كانت صغيرة بعيون واسعة ذكية وجدائل شقراء طويلة تقف بين أبويها وعدد كبير من الإخوة بأعمار متدرجة. أزاحت الغلاف السلوفاني الذي يغلف الصورة وسحبتها وهي تشير بيدها على فتاة بجدائل شقراء:

- هذه الصورة هي أول زيارة لي للمغرب وأنا بعد في الخامسة من عمري.

ثم أشارت لبوابة ضخمة على الطراز الإسلامي تقع في خلفية الصورة:

- إنه باب المنصور الضخم المشهور بالنقوش العربية.

ثم عرفته بأهلها وسردت أسماءهم الواحد تلو الآخر وأخبرته ماذا صنعت بهم الحياة وكيف بعثرتهم في أنحاء العالم.

في صورة أخرى لقطت لها بعدها بعدة سنوات:

- أما هذه فكانت الزيارة الثانية لي، كنت أبلغ من العمر الثانية عشرة.

كانت تقف في وسط أشجار الزيتون ترتدي فستانًا قطنيًا أبيض اللون بينما شعرها الفاحم السواد مبعثر خلفها في كل مكان. منحنيات جسدها لم تكن اكتملت، تكشف أنها ما زالت على أعتاب الأنوثة ولم تصعد درجها بعد.

كان يتأملها وهي تسرد عليه تاريخ مدينتها بحماس وشوق وبلمعة في عينيها كطفلة صغيرة تفرجك على الدمى التي تلعب بها:

- هذا بستان الزيتون الذي يملكه جدي، مكناس مشهورة بزراعة الكروم والزيتون، كلما تجولت في المدينة شممت رائحة الكروم وتمد يدك لتقطف عنقوده. كثيرًا ما حدثتني جدتي وقد حدثها أجدادها ممن ترجع أصولهم للأدلس أنهم قدموا لهنا بعد أن تم طردهم من الإسبان عندما احتلوا البلاد، تبعثروا في السفن لجميع أنحاء العالم، ولكن النسبة الأكبر شغلت الجزائر والمغرب وخاصة هذه البلدة التي وجدوا فيها أندلسًا أخرى وخاصة مدينة غرناطة بطقسها وروائحها وبساتين عنبها وزيتونها. استوطنوا بها وتزوجوا لتمتزج الملامح والعادات والثقافة وبمرور الوقت أصبح من الصعب أن تفصل بينهما.

أخذه كلامها لكتابه الذي يحمله معه أينما ذهب، فقد كان بمثابة آلة الزمن بالنسبة له ما إن يفتحه حتى يسافر عبر القرون. كان سيحكي لها عنه، عن هذا الأندلسي الذي يشبهه في كثير من الأشياء، والذي عاش قدرًا مطابقًا لقدره تمامًا وقد عثر عليه صدفة ليحكي له تاريخ حياته ليكتشف كيف بإمكان الأقدار أن تتطابق، ويكتشف أيضًا أنه بالرغم من مرور كل تلك القرون لم يتغير شيء، فكل العناوين المطاطة "عولمة – تكنولوجيا – انفتاح – حريات – حقوق إنسان" هي الوهم بعينه ولا تحمل في طياتها سوى عقائد راسخة متزمتة وقلوب سوداء حانقة لن تتغير أبدًا.

تركها تلهو بألبوم ذكرياتها ولم يشأ أن يخرجها من هذه الحالة الواقعة فيها، فما فائدة أن يحكي لها عن مأساة وقعت من قرون مضت؟!

مدت يدها له بصورة أخرى كانت قد دخلت مرحلة الأنوثة بكامل توهجها، تقف محاطة بصديقاتها، ربما لم تكن أجملهن ولكنها كانت أكثرهن سحرًا وجاذبية. يرتدين العباءات المغربية بعيون واسعة سوداء وتلفهن شعورهن بلون عتمة الليل.

نقلتها الصورة لهناك، للزمان نفسه والمكان نفسه، فأخذت تتأملها وهي تخبره:

- إنها مدينة بكل ما بها يأخذك لأعماق التاريخ، شامخة دومًا كجبال الأطلس وجبال زرهون التي تحيط بها من كل جهة، كلما سرت في شوارعها حكت لك مبانيها، مساجدها ومأذنها زواياها وأزقتها وعادات وتقاليد أهلها عن الأصالة والعراقة.

قرأ في عينيها ولمح في صوتها حنينها لمدينتها فربت على يديها يطمئنها:

- أعدك.. عندما نتزوج سنحمل متاعنا لهناك، سنذهب لأرضنا وأرض أجدادنا، سنشترى بيتًا بمكناس وآخر بالقاهرة وسنعيش ما بين هنا وهناك.

لم تجد تعبيرًا عن سعادتها سوى تطويقه بذراعيها.

ولكن هل يعني ما يقول حقًا؟ نعم كان يعينه، تلك المرأة التي تستكين برأسها فوق صدره وتداعب أنامله خصلات شعرها الهاربة منها إليه.

يشعر بدفء أنفاسها ويسمع نبض قلبها يقول له في كل نبضة "أحبك"، هل سربت حبها إليه وهو الذي لم يشغل باله إلا بحصد الأرواح ولم تعنه أبدًا هذه المشاعر؟! لماذا فجأة حبها كإعصار يجرف في طريقة كل ما يصادفه ويقلبه رأسًا على عقب؟ خططه، معتقداته، ترتيباته.

حتى إنه فكر أن يجمع متاعه ويصحبها معه ويرحلا بلا رجعة ولكن ماذا لو أخبرها أنه قناص محترف؟ ترى ماذا ستكون ردة فعلها؟ هل ستظل تحبه وتستمر في ذلك أم أن حبها له سيتحول لمشاعر أخرى كتلك المشاعر التي يجب أن تكون تجاه قاتل محترف، مزيج من الكراهية والاحتقار؟! فجأة توقف عن العبث بخصلات شعرها وشرد بتفكيره لبعيد عنها، فعلمت أن نوبة التقوقع أصابته مجددًا. وهو صامت كمدينة مهجورة أزاحها برفق من فوق صدره فغادرت بتململ كقطة تغادر مجبرة حضن صاحبها. تناول معطفه من فوق الحامل بجوار الباب ، وكأن كل ما حدث بينهما منذ قليل لم يحدث. قطعت الصمت قائلة:

- هل ستغادر هكذا فجأة؟

- أحتاج بعض الهواء.

- حسنًا، انتظر سأبدل ثيابي وأحضر معك.

- لا أرجوك، أريد أن أكون بمفردي.

ثم اقترب منها وطبع قبلة فوق جبهتها وربت بحنان على رأسها وغادر.

وقفت مذهولة من أمره، كانت تعتقد أنه قد تبدل عن ذي قبل، ولكن ها هي نوبات جنونه عاودت زيارته مجددًا.

بعد أن غادرها ظلت تحمل الأطباق المتسخة للمطبخ وتعيد ترتيب المائدة وهي تفكر، هل حقًا إذا ارتبطا فستكون سعيدة معه وهو يعاني هذه الحالة المتأخرة من التقلب المزاجي. كلما أسعدها مرة أحزنها في مقابلها مرات، يرفعها عاليًا في أرجوحة السعادة ثم فجأة تجده هبط بها في وحل الحزن.

- مؤكد وراءه سر.

هكذا كانت تحدث نفسها وهي تبكي بشدة وتجلي الأطباق والأكواب المتسخة وترصها بعصبية في خزانة الماعون.

جاءها صوت أمها تتحدث عبر آلة الأنسرماشين لتترك لها رسالة فركضت للداخل ورفعت سماعة الهاتف قبل أن تغلق أمها الخط:

- أمي كيف حالك؟

- بخير. وأنت؟

- بخير أمي.

وبحدس الأمهات علمت أن ابنتها ليست بخير أبدًا.

- ولكن صوتك يخبرني عكس ذلك، ماذا حدث أخبريني؟

ثم أخذت في البكاء..

سحبته قدماه لحي مونمارتر[1]، هذا الحي الفرنسي القديم يسير في أزقته المتشعبة، منازل متهالكة تعلق على شرفاتها أصص للزهور، روائح التاريخ تزكم أنفه وبلاطات البازلت كلما طرقها بقدميه شعر بخطى مشاهير قد طرقتها من قبله، إنه حي الفنانين والأدباء كانوا قد سكنوه يومًا أثناء تسكعهم الأول في دنيا الفن.

كان يسير وتسير التساؤلات معه في هذه الشوارع والطرقات الضيقة والمنحدرة، ترفعه معها لمرتفعات الأمل وفجأة تحتم عليه أن يهبط لمنحدرات اليأس، كانت طرقاتها تشبه ما بداخله.

ليس هناك على مرمى البصر سوى كتلة من المباني المعتمة، نافذة وحيدة كانت مضاءة، ربما هو شخص يقرأ أو ينتظر أحدًا، ربما هو رجل في الخمسين من عمره يجلس مرتديًا روبه الدوشمبر، وربما أيضًا تنبعث من جوانب بيته موسيقى هادئة من جهاز جرامافون قديم، موسيقى خافتة تلائم أجواء المكان.

جلس على حافة سور وأشعل تبغه معلقًا نظره على هذه النافذة "تتسلل" إليه موسيقى غامضة وأخذ يفكر:

- هل يخبرها عن حقيقته؟ وهل ستصدق أنه كان يقتل بنية الانتقام ليس أكثر؟ بإمكانه أن يطلعها على رصيده البنكي لتعلم أن الأموال التي يحصل عليها مقابل عمله لم تكن تعنيه في شيء كان يسحب منها فقط لطعامه وشرابه واحتياجاته الخاصة، لم يكن يصرف ببذخ كان بإمكانه أن يقتني أحدث أنواع السيارات ومنزلا صيفيًا في نيس أو الريفيرا ويضع في المارينا يختًا خاصًا يتحدث كل من يراه عن فحش ثراء صاحبه، ولكن هذه الأمور لم تكن تعنيه ولم يسع يومًا لها. سيخبرها أيضًا عن حادث قتل أهله وكيف تراصت الجثث بعضها فوق بعض وكيف أصبح هذا الحادث المأساوي هو دافعه للانتقام! سيخبرها عن تفوقه في الرماية منذ صغره وكيف أنها كانت سببًا رئيسيًا لممارسة تلك المهنة. نعم سيخبرها بكل هذا وسيحكي لها كيف أن القدر تحامل عليه ورتب له حياة لم يكن يومًا يسعى إليها؟! أوليست هي كانت تتمنى أن تعيش في بلدتها المغربية بين أهلها وناسها؟! ما الذي جاء بها إلى هنا وسط أناس لا تمت لهم بصلة قرابه أو صلة نسب؟! إنه القدر الذي يجبرنا على الكثير من الأشياء التي لا نريدها وبدون أن ندري وجدنا أنفسنا مرغمين على العيش فيها.

نعم، سيخبرها بكل شيء، وعليها أن تختار، وسيأخذ لها هذا الكتاب الذي يعترف فيه هذا المجرم بقتل عائلته في صفحة قام بثنيها، على حزنها يذهب إليها بين الحين والآخر لتقوى عزيمته للنيل منه.

وفجأة علا صوته قائلًا: نعم إنه مجرم، قضى على مستقبلي، يحصد النياشين والجوائز مقابل جرائمه في قتل الأبرياء، بينما لم أحصل على نيشان أو ميدالية واحدة مقابل من قتلتهم، هو في نظر المجتمع بطل وأنا في نظرهم مجرم، بالرغم من أن كلا منا يقتل أبرياء لا حول لهم ولا قوة،

[1] حي مونمارتر أحد أحياء باريس الشهيرة.

هو الذي ذهب للعراقيين في عقر دارهم ليقوم بقنصهم دون وجه حق ودون شبهة ما، ولم يكن قنصهم للدفاع عن أرضه ووطنه، لماذا إذن هو يعلق الميداليات والنياشين وأنا لا؟!

أخرج هاتفه المحمول من جيب معطفه واتصل بشركة الطيران وحجز لرحلة أمريكا في الأسبوع المقبل

قرر ألا يخبرها إلا بعد انتهائه من عمليته الأخيرة. كالعادة سيدعها تحيا على وهم أنه في رحلة للصيد. وهذه المرة صيده سيكون ثمينًا، حيث لا ميناء آخر سترسو عنده سفينة انتقامه.

وكعادته عندما يمسه الحزن والحنين دخل كابينة هاتف وضغط رقمًا، رقمًا يحفظه تمامًا، رقمًا قديمًا ما عاد أحد يتذكره وما عاد يوجد في مفكرة أحد، يستمر الرنين ولا من مجيب يتخلل صوت الرنين وشيش وصرير وأصوات متداخلة كما لو أنها أصوات تائهة لأشخاص يبحث بعضهم عن بعض، أصوات ما عاد لها وجود، أصوات تأتي من وراء القبور، وهناك دومًا صوت امرأة يأتي صداه من بعيد، تعيد الكلام نفسه، تعيد النداء نفسه، ولكنه لم يكن يستطيع أبدًا تمييز ما تقول، شيء ما يخبره أنها أمه تحدثه من عالم آخر، ومن زمان آخر، ومن هذا المنزل المهجور...

الفصل الثانى عشر

مر الكثير من الوقت على انتهاء الثورة والوضع أصبح هادئًا عن ذى قبل، فقررت أن أعود مرة أخرى وكان قبل الفجر بقليل من ليلة كالحة بلا قمر دخلت غرناطة، كانت لا تزال المدينة تغط في نعاسها وسكونها، ذبذبات من الحزن العميق يعم أنحاء المكان وشعور بالفزع ينتابني. للمرة الأولى أشعر بأن غرناطة قد ذهبت أو هي في طريقها للذهاب للأبد ولم تعد ملكًا لنا، كل شيء بها تبدل والحزن الذي يعتري الأفئدة والأمكنة توغل فيها فأصبحت كامرأة تتوشح السواد ويغلفها الأسى. أسى على زمن ولى وأسى من زمن قادم.

مع الخيوط الأولى للصباح كنت أطرق باب عمي، لم يكن سواه أحد يمكننى المكوث عنده، فقررت أن أقيم هناك لعدة أيام حتى أتدبر أمري.

على غير العادة كان باب الحديقة مفتوحًا، وكانت خربة وكأن لم يكن هناك أحد ليهتم بها. أصابتني قشعريرة وحدثني قلبى بأن مكروهًا قد حدث. لم يمر وقت طويل حتى فتح لي الباب صبي جميل سألته:

- هل عمي سليم موجود؟

تبدلت ملامح الصبى ما بين الخوف والشك وهو يتساءل من هذا الذي يطرق منزلنا بعد الفجر بقليل ويسأل عن رجل وارياه الثرى منذ ما يزيد على السنوات الثلاث؟

- من أنت؟

- أنا خالد.

وكأن الصبى سمع عني قبل ذلك فقد زال شكه بمجرد أن ذكرت اسمي، وأزاح الباب وأذن لي بالدخول. وعلى بساط من الحصير جلست متعبًا ومشعث المظهر. ودهشت كيف فرشت هذه الأرض بالحصير وهي التي كانت تفرش بسجاد عجمي وأبسطة حريرية؟!

دارت عيني في أرجاء المنزل تبحث عن عائشة، عن رائحتها وعن جدائلها الشقراء ولكن ما من أثر لها. وتساءلت: أتراها تزوجت وذهبت لبيت زوجها؟

حتى امرأة عمي التي اعتادت الاستيقاظ مع خيوط الفجر لم أجدها فسألت الصبي:

- ولكن أين هم أصحاب الدار؟

ابتسم في حزن:

- لقد توفي جدى سليم منذ ما يزيد على ثلاث سنوات وتزوجت عمتي زهرة وسافرت هي وزوجها إلى دمشق ليعيشا هناك. خرجت أمي من السجن ولكنها لم تعد أمي، فمن هول الأحداث التي رأتها تبدلت لامرأة أخرى، ومنذ ذلك الحين وهي تقوم بالليل فزعة تصيح وتصرخ، ويقول البعض ربما أصابها مس من الجنون، أما أبي فقد قبضوا عليه أثناء ثورة البشرات، دخلوا مسكننا

ليلًا يفتشون عنه كالمجاذيب لم يكن أبي وحده الذي يفتشون عنه فقد كانوا يلقون القبض على معظم رجال غرناطة بعدما انتشرت شائعات بأن ابن أمية يعد العدة لاسترجاع غرناطة مرة أخرى وسيدخل للبلاد على رأس قوة من المجاهدين، فما كان من حرس السجن سوى الانقضاض على السجناء ضربًا حتى الموت أو ذبحًا بفصل رقابهم عن أجسادهم، وقتها تم قتل ما لا يقل عن 150 رجًلا جميعهم من تجار وأعيان غرناطة ممن لهم ثقل ووزن في المدينة وكلمتهم تسمع وتنفذ، تم الاحتفاظ بهؤلاء الرجال في الزنازين كرهائن ليضغطوا بهم على الثوار والمجاهدين ليكفوا عن القتال وكان أبي من بينهم، ولم يكتفوا بذلك فبعد قتلهم صادروا ممتلكاتهم وأموالهم ومنها دكان جدي الذي كان يديره أبي.

كان الصبي يتحدث بغصة في القلب جعلت صوته يخرج من بين أحباله الصوتية متحشرجًا ولا يكاد يسمع. منكًسا نظره لأسفل وكأن عينيه ترفض مواجهة ما حدث.

ضاقت بعدها الدنيا علينا. اعتادت جدتي أن تستيقظ مبكًرا تعجن خبزها وتسويه ثم تحمله هي وأمي وتذهبان به للسوق، فالدراهم التي أحصل عليها مقابل عملي عند الإسكافي لا تكفي لتطعمنا "خبز حاف"، لو أنك بكرت قليًلا كان يمكنك أن تلحقهما فقد خرجتا قبل أن تأتي بدقائق معدودة.

أخبرنى الولد بأمر المصائب المتلاحقة ولكنه لم يأت بذكر عائشة فسألته بصوت مبحوح:

- ولكن أين عمتك عائشة؟

- لم تستيقظ بعد، اعتادت أن تغزل الحرير وتصنع منه أقمشة جميلة وتبيعها لنساء الحي اللاتي يتوافدن عليها لشرائه فبعد سقوط ملقة لم تعد هناك أسواق للحرير مثل السابق، وهذا العمل يأخذ منها ساعات طويلة حتى تنجزه.

شعرت براحة وطمأنينة عندما تأكدت أن عائشة قد أفلتت من مكائد القدر ومصائبه.

- ولكنك لم تخبرنى باسمك؟

- أى اسم منهما؟

- اسمك العربي بالطبع.

سعدت عندما علمت أن أهالي الأندلس لن يتخلوا عن عروبتهم يومًا وأن الأجيال الجديدة التي لم تشهد غير الصراعات والهزائم ما زالت تؤمن بهويتها العربية.

- اسمى خالد كما هو اسمك. أطلقت عليّ عمتي عائشة هذا الاسم.

ابتسمت من قلبي وسعدت بهذا الكلام ولكن سؤالا واحدا أخذ يلح علي:

- هل تراها باقية على حبها لي؟ بالرغم من أني خذلتها وتركتها وذهبت، وهي التي كانت متشبثة بي حتى النفس الأخير فيها، فإنها عاقلة لتفهم أني لم أتركها إلا من أجل الثأر لأرضي وكرامتي، واليوم حققت ما أريده وليس هناك من شيء يمنعني من الارتباط بها.

استأذن مني الصبي لكي يلحق بعمله فطلبت منه أن يناولني منشفة لأغتسل. بدأ الفتى يجهز لي الحمام بهمة فملأ دلوًا بالماء من البئر التي تتوسط الفناء وأوقد الموقد وسكب الماء في سطل نحاسي وناولني منشفة نظيفة وعباءة وغادر مسرعًا وهو يخبرني:

- عذرًا يجب أن أذهب الآن، القشتالي الذي أعمل عنده لا يرحم، يعاقبني بالخصم من راتبي عندما أتاخر عن العمل، إلى اللقاء.

كنت أراقبه وهو يضع الخف في قدمه ويركض ركضًا، وفكرت بالدنيا التي لا تبقي أحدًا على حاله، هذا الصبي لولا تلك الظروف التي مرت به لكان الآن ينعم بحياة مترفة وسط أهله وناسه.

أنعمت بحمام لم أنعم به منذ وقت طويل. أزلت كل ما علق بجسدي وروحي من وسخ. كأني كنت أنفض عني كل الرءوس التي اخترقتها بندقيتي وكل الأفئدة التي صوبت رمحي إليها وكل الجثث الهامدة التي كنت أخلفها ورائي وأذهب، بعدما انتهيت من حمامي شعرت بأنني أخف ثقًلا ارتديت العباءة كانت ناصعة اللون ربما كانت لأبي الصبي. خرجت لأتعثر بعائشة في وجهي تمامًا. لم تكن تعلم أن أحدًا غيرها بالمنزل فصاحت عند رؤيتي وركضت للخلف.

- عائشة لا تخافي أنا خالد.

- خالد من؟

- خالد ابن عمك، عائشة أنسيت؟!

- كيف تكون هو وقد جاءنا نبأ قتله؟

قهقهت بسخرية.

- ومن أنا إذن؟ شبحه؟ ولكن من قد أخبركم بذلك؟

- رجل يعمل بالخان الذي كنت تقيم فيه.

- كثيرًا ما تمنيت الشهادة ولكن الله لم ينعم علي بها وأنا أمامك حي وأرزق.

زال خوفها وتبدلت ملامحها لأكثر رقة وجمًالا وأنفرج فمها على ابتسامة واسعة من فرط سعادتها به .

- يا ألله حقًا أنت حي! أحمدك وأشكرك يا ألله. حمدًا لله على سلامتك! ولكن أين كنت طوال هذه السنوات؟

- حسنًا سأخبرك بكل شيء. الحديث سوف يطول وأنا أتضور جوعًا الآن.

هرولت للمطبخ:

- سأعد الفطور.

- انتظري سأعده معك.

كنت أتطلع إليها بشوق وحنين، زادها الزمن نضجًا وجمًالا وزادتها الحسرة حزنًا وبكًاء. لكنها لا تزال تحتفظ بضحكتها الطفولية، تخطو فتهتز خلفها جدائلها التي طالت ردفها. فتحت جرن الدجاج بالفناء وجمعت منه خمس بيضات وضعتها في المقلاة وضعت عليها الكثير من السمن ثم سكبت بعضًا من زيت الزيتون المخزون في الجرة على الجبن وقدمت لي كوبًا فخاريًا مملوءًا بالحليب جلسنا معًا نأكل ونتحدث. حكيت لها كل ما حدث معي منذ ودعتهم ذلك اليوم حتى وجودي هذه اللحظة معها. بكت أحيانًا وابتسمت في أخرى وسرحت كثيرًا في قدري، وبعدما انتهيت من قص كل ما لاقيته من عذاب بصوت أقرب للهمس:

- لا يمكنك تصور ما الذي حدث لي عندما ذهبت للخان وسألت عنك، أخبرني هذا المخبول بأنك اختفيت في ظروف غامضة وتركت كل شيء خلفك، ومؤكد أنك قد قتلت أو زج بك في السجن. ارتديت حدادك ولم أخلعه من يومها.

تحولت نبرة صوتها للعتاب وهي تأخذ الصحون الفارغة للمطبخ:

- لقد تركتني يومًا دون أن توصد باب الأشواق من خلفك. أضرمت النيران في حقول الأمنيات وراءك ثم ذهبت، لأعيش من يومها على قيد طرقاتك على الباب.

اقتربت منها وللمرة الأولى حققت حلمًا طالما تمنيته وضممتها لي في عناق عنيف. عناق بشوق السنوات المؤجلة وبحنين ظل مشتعًلا بين جنبات الروح يومًا بعد آخر وزمن بعد آخر. فتح هذا العناق بابًا مغلقًا للرغبات المكبوتة والمؤجلة، فوجدت نفسي أجتاح بقبلاتي كل شيء بها وهي أمام عاصفة عشقي لم يسعها أن تفعل شيئًا سوى أن تقف مستسلمة، وكما على حين غرة تقف بك عربة تجرها الجياد وهي في طريقها بك لمشوار جميل. أوقفت عربة رغباتي أثناء ركضها مسرعة أمسكت بلجام خيلها فصهل بصوت محموم وتوقف. ودعتها بعدما أخبرتها:

- سأذهب لأتفقد أحوال المدينة وأبحث عن عمل.

ابتسمت وهي تترجاني قائلة:

- سأنتظرك.

أيام قليلة تفصل بينه وبين عمليته الأخيرة. أيام قليلة ويسدل الستار على دوره في مسرحية الحياة، هذا الدور الذي أوكله إليه القدر ليلعب فيه دور القاتل بحرفية شديدة. سيرجع بعدها إياد منصور هذا الرجل العادي الذي يشبه الرجال العاديين يحمل في رأسه أحلام أو أمال البسطاء. حان للحياة أن تعقد معه هدنة تتركه ينعس بدون كوابيس ويستيقظ بدون خوف ويخطو على طرقات العمر دون توجس.

لكن هل حقًا بإمكانه أن يعيش حياته ويلغي الماضي تماما؟ هل من الممكن إلغاء كل ذلك كما لو كان كلمة في صفحة يمكننا إزالتها بممحاة؟ وهل بإمكانه أن يطوي الماضي لدفنه مع تلك الأشياء التي قرر أن يتخلص منها؟

ولو أنه من الصعب نزع صفحات من العمر أو محو ما علق به من أوساخ فإنه على أي حال سيحاول أن يبدأ من جديد. قرر أن يتخلص من كل شيء تمامًا كممثل أنهى تعاقده في المسرحية التي يلعبها. هذه الملابس التي كان يختارها وفقًا لدوره فيها. المعاطف الطويلة السوداء، الأوشحة التي يلفها على عنقه، النظارات الشمسية السوداء والأحذية التي خطا بها مشاويره لتشييع ضحاياه لمثواهم الأخير والأهم من كل ذلك أسلحته وأدوات قنصه. سيتخلص من كل هذا ليعود من رحلته كمن ولدته أمه. سيكون شخصًا اخر ، سيبدأ في ارتداء الملابس بألوانها الزاهية وينتعل الأحذية الرياضية الخفيفة ويبتسم في وجه الجميع وهو يركض على حصى العمر.

لكن ماذا عن كل هذه الأرواح التي حصدها والمحتشدة بداخله؟ كيف له أن يتخلص منها؟ كيف له أن يجمعها في صره ويدفنها في أي مكان؟!

فتح خزينة صغيرة من المعدن المصفح موجودة داخل خزانة الثياب وضغط على الكود السري وأخرج منها عددًا لا بأس به من جوازات السفر وبطاقات الهوية. أخذ يفتح كلا منهما وكأنه يكتشفها للمرة الأولى أسماء مختلفة وجنسيات مختلفة وأعمار وعناوين مختلفة. ومن تراه هو من بين كل هؤلاء؟ أهو إنريكي الإسباني الذي يربط شعره في ذيل حصان؟ أم رينالدو الأيطالي الذي يتناثر شعره الفوضوي من خلفه؟ أم هذا ذو الشارب الخفيف والنظارة الطبية ويدعى جون إنجليزي الجنسية؟

لقد عاش عمره كله متخفيًا داخل شخصيات لم تكن تشبهه يومًا ويتكلم بلغة لم تكن لغته يومًا، فمتى يمكنه أن يتعامل مع الآخرين بهويته الحقيقية؟! متى يكون بإمكانه أن يعلن عن اسمه ويتحدث بلغته؟! أمسك بجوازات السفر جميعها وأوقد فيها النار ثم ألقاها بسلة المهملات.

احتفظ فقط بجواز سفره المصري، هو هويته الحقيقية والتي سوف يدخل بها لأمريكا وينتقم بها من عدوه فمن العار أن ينتقم لأهله بهوية مزيفة.

شعر أنه في حاجة لاستنشاق بعض الهواء استقل سيارته وأخذ يتجول بها دون هدف، كانت الشوارع في هذه الساعة المتأخرة من الليل شبه خالية من المارة والسيارات. كان المطر يهطل ففتح النافذة ليداعب وجهه بينما كان يستمع لأغنية الشاب خالد "عايشة.. عايشة" يردد معه اسمها وهو يخرجه من قلبه لا أكثر. بسعادة من يقع في الحب للمرة الأولى وينبض قلبه به كان يشعر، أنه السبب الذي أعاده للحياة وجعله يشعر بآدميته وتأكد أنه كمثل البشر يحب ويعشق ويحن. وحده حبها كان سببًا ليتخلص من هوياته المزيفة جميعها ويبقي على هوية واحدة. وحده حبها جعله يريد أن يمحو آثار الماضى بإسفنجة ويبدأ من جديد، وفجأة توقفت به عربة أحلامه على أثر ضغط ضميرة على مكابح أحلامة الوردية، وظل يحاصره بالأسئلة هل ستخدع تلك الفتاة البريئة التي أغرمت بك ولن تحكي لها عن ماضيك الإجرامي؟

وبصوت عال كان يجيب:

- لا لن أخدعها. مستحيل سأقص لها كل شيء وعليها أن تقرر!

ولكن أي حب هذا مهما كانت قوته يجعل امرأة ترتبط بقاتل مأجور! مهما كانت دوافعه وراء القتل تلك الدوافع التي هو نفسه يشك فيها، أبدًا لا يوجد مبرر لقتل الأبرياء.

أو ليس كتابه الذي يؤمن به يقول (من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا) فكم من نفس قتلها بغير حق! وأي مصير للجحيم ينتظره ومن عساها ترتبط به وهو القاتل المأجور؟

فجأة أظلمت الحياة في وجهه وتراكمت الأسئلة بعلاماتها الاستفهامية وما من إجابات لها، ولكن كان هناك بصيص من نور يداعب نظره من خلف ظلمات الأسئلة فتمسك به بشدة ولم يدعه يهرب منه، بصيص لضوء خافت في نهاية نفق مظلم، تأكد أنه هو من سيقود خطاه لطرقات جديدة بالحياة.

اهتز هاتفه في جيبه فتناوله وعندما قرأ الاسم ابتسم:

- أهًلا.

خرج صوته بصعوبة منه وكأنه ينزعه نزعًا من صراعه مع نفسه فجاءها صوتًا متحشرجًا:

- هل كنت نائمًا؟

- ابدًا كنت مستغرق بالتفكير

- خير.. أهي مشكلة ما؟

هل هي مشكلة حقًا؟ لو أنها مشكلة كان عليه أن يجد لها الكثير من الحلول هي أقرب منها لمعضلة حاول أن يبدل الموضوع:

- لماذا لم تنعسي للآن؟

- كنت أقرأ رواية وأحداثها شيقة حتى إنها منعتنى النوم.

- عن ماذا تحكي؟

- رواية تدور أحداثها عن ارتباط شابة مغربية بشاب فرنسي وبالرغم من أن الفتاة عاشت حياتها في فرنسا فإنها كانت متمسكة بعادات وتقاليد مجتمعها الشرقي ومن هنا يحدث صدام فكري وعقدي فيفترقان.

- مؤكد لم يكن حبًا. الحب قادر على أن يهزم كل شيء أليس كذلك؟!

- هناك حواجز لا يستطيع الحب اختراقها.

ها هي تنفي أن الحب قادر على هزيمة كل شيء. عندما يتعلق الأمر باختلافات في العقيدة والثقافة، فما بالك عندما يتعلق الأمر بالقتل؟ هل يمكنها وقتها أن تغفر؟!

أدار ضفة الحديث لوجهة أخرى:

- غدًا بعد انتهائك من عملك سأنتظرك في رستوران " لابلكون".

- حسنًا عند الثالثة والنصف ظهرًا.

- إلى اللقاء.

- إلى اللقاء

كان يتابعه متسول من متسولي باريس. واحد من هؤلاء الذين يمكنك أن تتعثر بهم كلما رحت أو جئت، متسولون فرنسيون ومن جنسيات مختلفة ولكل منهم طريقته في التسول، من يلاحقك طالبًا صدقة ومن يتبع طرقًا أكثر تحضرًا كل ما عليه أن يجلس مكانه واضعًا صندوقًا أمامه وكثيرًا ما تصادف مغنيًا أو عازفا على آلة موسيقية وربما فرقة كاملة تقدم عروضها وأمامها صندوق لجمع التبرعات، وتعد تلك الطرق لممارسة التسول أكثر متعة وأناقة. للتسول فنونه أيضًا.

ولكن هذا المتسول لم يكن يتبع أيا منها، فهو يجلس وسط كومة من القاذورات والنفايات بملابس رثة وذقن منذ الدهر لم يحاول تشذيبه.

- ليس هناك من حب. هناك فقط وهم يسمى الحب!

اندهش إياد بتدخل الرجل السافر ولم يلق له بالًا، فمن الجائز جدًا أن يكون مخمورًا.

ثم أعاد الرجل عبارته ولكن هذه المرة بصوت أكثر صياحًا:

- يا رجل، ليس هناك من حب.. هناك وهم يسمى الحب!

وهو الذي لم يكن يثيره أكثر من تطفل الآخرين عليه، لماذا لم يثره تطفل هذا الرجل؟ فهو لم يكتف بالتنصت لحديثه ولكنه أخذ في قول الحكم. أخذ يفكر في كلماته "ليس هناك من حب. هناك فقط وهم الحب". هل حقًا لا يوجد حب؟ وحتى إن كان الحب خدعة كما يزعم هذا الرجل فحسنًا دعنا نعش في وهمه.

اقترب منه أكثر ونظر طويًلا إلى وجهه كانت ملامحة تدل على أنه عربي مشرد من الذين يمكنك أن ترتطم بهم في محطات المترو أو على جنبات الطريق. يجلس متدثرًا بغطاء صوفي نحت وبره الزمن. يعقد شعره في جديلة سميكة، وبلحية طويلة مشعثة. لم يهتم الرجل باقتراب إياد منه اكتفى بأنه أشاح بوجهه إلى الجهة الأخرى. فجأة اشتدت الرياح الباردة وتحولت نتف الثلج لكرات صغيرة منه فرفع الرجل غطاءه الصوفي ليغطى به وجهه ورأسه.

- يمكنك أن تجلس بالسيارة لتنعم ببعض من الدفء.

رفع الرجل نظره ببطء وتأمل إيادًا طويًلا ولبى الدعوة كأنه كان ينتظرها فانتصب فظهر قوامه الفارع النحيف.

نفض قاذوراته عنه وهندم ملابسه المهلهلة وباستحياء جلس على المقعد المجاور لإياد. من راديو السيارة أعلن مذيع النشرة الجوية أن الثلج لن يتوقف طوال هذه الليلة.

فاحت رائحة الرجل في السيارة مؤكدة أن جسده لم يلامس الماء منذ زمن ففتح إياد جميع النوافذ ولم يبال بثلوجة الطقس وعندما تحركت السيارة سأله بنبرة صوت خشنة:

- إلى أين؟

- إلى بيتي.

منذ وقع نظره على هذا الرجل شعر أنه تعرف عليه في زمن ما وأن هذا الوجه قد رآه مسبقًا.

وضع إياد بطاقة ممغنطة في الجهاز لتفتح ذراع إلكترونية وتسمح له بالدخول لمقصف السيارات الواقع أسفل البناية ثم استقل المصعد للطابق التاسع، كل هذا والرجل يتابعه دون نقاش أو حديث وكمن ينتظر مصيره بنفس راضية. هيئة إياد الأنيقة وسيارته الحديثة لم تثيرا شكوكه ولكنهما أثارتا تساؤلاته. ماذا يريد رجل مثله من متسول؟ هل يطمع مثلًا في اليورهات التي حصل عليها نتيجة تسوله؟ ربما هو من الشواذ جنسيًا ويريد إقامة علاقة معه، ولكن ما الذي سيغريه في متسول برائحة عفنة ويمكنه إقامتها مع الشواذ المنتشرين في النوادي الخاصة بهم.

اصطحب إياد الرجل مباشرة للحمام وهناك فتح صنبور الماء الساخن و اعطى له منظفات ومطهرات خاصة بالجسم وطلب منه استعمالها ثم ناوله كيس قمامة وأخبره أن يلقي فيه جميع ملابسه وبدلًا منها ناوله ملابس داخلية جديدة لا تزال مغلفة وبنطلونًا وقميصًا ومعطفًا من الصوف. فتح الرجل فمه مندهشًا ولكنه لم ينبس ببنت شفة.

تركه إياد وذهب للمطبخ. أعد الحساء الجاهز الصنع، سكب أكياس البودرة المجففة في إناء من الماء المغلي وأخرج من الثلاجة شريحتين من اللحم نصف المطهو أضاف له الخضروات الطازجة ثم وضعه بالميكروويف ليكتمل نضجه. سمع صوت ماكينة حلاقته الكهربائية تعمل فشعر ببعض من المضض ولكنه زال سريعًا فهو يملك منها الكثير وقرر أن يمنحه الماكينة التي استعملها وتساءل – لماذا قرر الآن حلاقة ذقنه؟ وكم أخذ من الوقت في الاغتسال؟ نظر إياد للساعة فوجد أنه قد مر أكثر من ستين دقيقة، ابتسم وهو يقول: لقد نضج الطعام ولم ينظف هو بعد!

ولكن، أي تهور هذا لأصطحب متسوًلا لمنزلي؟! فماذا لو كان لصًا أو قاتًلا؟ "قاتل"؟ أخذ يضحك بسخرية.

فجأة وجد أمامه رجًلا تجاوز الستين بقليل بوسامة شرقية وقوام فارع يقف أمامه. وكأن ملابسه وقد صنعت خصيصًا له. ابتسم له قائًلا:

- من يراك الآن صعب أن يصدق أنه أنت هذا الرجل الذي كنته قبل ساعة. انظر كل ما كان ينقصك بعض من الماء والصابون لتعود إليك مرة أخرى إنسانيتك.

هنا نطق الرجل للمرة الأولى منذ دخوله للمنزل:

- وكيف تحكم على الإنسانية؟ هل الإنسانية مجرد وجه نظيف وملابس أنيقة؟ الإنسانية أعمق من ذلك بكثير. الإنسانية.. إنها الروح النقية الخفيفة والروح متعبة ومثقلة لا قوة لها أن تقف لتغتسل وترتدي أناقتها وتتعطر.

وبنبرة أكثر همسًا:

- الروح تعبة يا بني.

كان يتحدث الكثير من العربية والقليل من الفرنسية، بل كان يترجم الكلمات التي ينطقها بالفرنسية إلى العربية ليؤكد على عروبته. كانت لهجته العربية يعرفها إياد فكثيرًا ما سمعها.

- هل أنت عراقي؟

- نعم أنا من أكراد العراق.

ثم أضاف وهو يجلس على مائدة الطعام بالمطبخ في مقابلة إياد:

- وأنت مصري، أكاد أجزم بذلك.

- غريبة! كيف عرفت؟! لماذا لم تعتقد أني من دول المغرب مثَلا؟

- للمصريين وقع على الروح مختلف. وقع من السهل أن تتعرف إليه من وسط آلاف من البشر.

ابتسم إياد:

- إذن هيا نأكل قبل أن يبرد الطعام.

لم يستعمل الرجل ملعقة ليتناول بها الحساء بل احتضن الصحن بين يديه وتناول منه مباشرة وهو يصدر صوتًا مزعجًا. أثارت تلك الطريقة ضيق إياد وأقنع نفسه أنه لن يصطحبه ليعلمه فنون الإتيكيت فليأكل كما شاء، وكأنه عرف ما يدور بخلده فقال:

- أستطيع استعمال الشوكة والسكين. لكني منذ زمن طويل تجردت من عادات فرضت علينا وقررت أحيا بفطرة الطبيعة. تلك القوالب التي جلس البعض سنة وراء أخرى وزمنًا وراء آخر يجرون تجاربهم ليضعوا في النهاية النفس البشرية داخل أنبوب محكم الإغلاق من الممكن والمسموح واللائق وغير اللائق. بهذه القواعد والقوانين هم يريدون أن يسطوا على عفويتنا ويجردونا من بساطتنا ليس أكثر، لذلك حطمت هذا الأنبوب وخرجت منه.

وبنبرة أكثر علوًّا:

- يضعون لك أسلوبًا متحضرًا ويخططون لقتلك بأبشع الطرق الحيوانية.

لاحظ نبرة الألم في كلامه والحكمة التي يتمتع بها وتيقن أن نظرته له لم تكن مخيبة قط، وكان من الواضح أن وراءه سرًا لكنه لم يكن بحاجة لمعرفة سره بقدر متعته بهذه القناعة الخاصة والغريبة التي يؤمن بها. كان يمسك بضلع اللحم المشوى ويقضم منها بملء فمه فتذكر وقتها الإنسان الأول. إنسان الغاب الذي كان يعيش ويحيا على فطرة الطبيعة. وكأنه يريد أن يرجع بعقارب الزمن ويتحدى كل شيء ليعيش بفطرة إنسان الغاب!

- من جلس لقرون طويلة يبتكر لنا ما نرتديه وما نأكله ويخترع لنا وسائل مواصلات غاية في الراحة والرفاهية ووسائل تسلية وترفيه نسي في كل ذلك أن يخترع للعالم السلام ويضع له أسس

ومبادئ الحب والود على العكس كانوا يخترعون وسائل الراحة والترفيه وفي الوقت نفسه يفاوضونك على أسعار أحدث ما اخترعوه من قنابل عنقودية وانشطارية وصواريخ عابرة للقارات وطائرات مفخخة بدون قائد. من فوق الطاولة يسوقون لك الموضة والأناقة ومن تحتها يبيعون لك الدمار والخراب، ولكن لا تقلق فهما أيضًا على أحدث صيحات الموضة.

كان يسمع له دون أن يقاطعه أو يناقشه. سأله الرجل:

- ولكن هل أنت صحفى تغطى موضوعًا عن التسول العربى في باريس أم كاتب، وفضولك هو الذي جعلك تصطحبنى إلى هنا ربما أكون إحدى شخصيات رواياتك القادمة؟

انتهى إياد من طعامه أو بالأحرى كلام هذا الرجل جعله يفقد شهيته وأشعل تبغه من نوع السيجار الرفيع الذي اعتاد أن يدخنه:

- لا هذا ولا ذاك، أنا مجرد إنسان حاول مساعدة إنسان.

قهقه الرجل بسخرية:

- في باريس مشردون بعدد شعر رأسك. هذا معناه أنك لو اصطحبت كل يوم مشردًا لبيتك ووفرت له حمامًا وملابس نظيفة ووجبة عشاء شهية ستنفق عمرك كله دون أن تفرغ منهم.

- لا.. مؤكد ليس هذا بالضبط ربما لأنك أثرت فيَّ بشكل ما.

أعد إياد فنجانين من القهوة وأثناء رشفاتهما سأل الرجل:

- من أى مكان بالعراق أنت؟

- أنا من "حلبجة". أشك أنك سمعت عنها.

كررت تلك الكلمة نفسها داخل نفس إياد وأوصلته هناك لنقطة بعيدة من الزمن عندما سمع تلك الكلمة من أبيه ذات زمن.

- اسم غريب حقًا.

- إنه تصغير لكلمة " حلب " كان أحد الولاة العثمانيين واليًا على حلب ثم ولى على مدينة "شهرزور" تلك المدينة التي أعجب بها وأسماها حلبجة وهناك قول آخر أن حلبجة كلمة فارسية ذات شقين "عجب – جا" ومعناها مكان لفت النظر أطلقها عليها أحد قواد الفرس عندما خطت قدماه فوق المدينة للمرة الأولى.

ثم أكمل قائلًا:

- تلك البلدة الصغيرة لم يسمع عنها قبل السابع عشر من مارس لعام 1988 كانت قرية هادئة على أهلها الذين لا هم لهم سوى العمل لكسب قوت يومهم، يبدأ يومهم من أذان الفجر وينتهي عند العشاء وما بين الفجر والعشاء الجد والعمل لا أكثر. شاء القدر أن يجعل جغرافية هذه البلدة أحد

أسباب هلاكها وهلاك أهلها، ففي حرب الخليج الأولى دخلت كموقع للنزاع بين إيران والعراق وفي يوم لا شمس له ضربت البلدة الصغيرة بالهجوم الكيميائي ليقتل على الفور أكثر من 5000 شخص ويعيش الباقون ما بين الإصابة والألم. لقد تمت إبادة جماعية لتلك البلدة ومن لم يمت يومها عاش حياته بمرض عضال أو مات في السنوات التي تلتها من تأثره بأمراض مزمنة على رأسها سرطان الرئة.

فجأة أشاح الرجل بوجهه لبعيد وهو يقص على إياد تلك الذكرى وكأنه يرفض أن يواجهه فيرى الألم الكامن في عينيه.

- كانت الحرب بين إيران والعراق على أشدها ولم تكن بلدتنا الصغيرة طرفًا في نزاع ولكننا كنا نستمع لدوى الصواريخ ونقرأ في الصحف والجرائد عما يدور على مقربة منا. حتى وضعت إيران يدها على قريتنا الصغيرة وبالرغم من ذلك استمرت الحياة في شكلها الاعتيادي كنت أعمل معلمًا للغة العربية في إحدى مدارس البلدة التي لايسكنها سوى الأكراد ولي منزل جميل تحيط به حديقة صغيرة بها شجر الزيزيفون والياسمين وفي وسطها فسيفساء للمياه من القيشاني الملون. في الأيام الحارة كان أطفالي يركضون حولها ويرشون بعضهم بالماء، ومن نافذة المطبخ كانت أمهم تراقبهم وهي تعد الطعام. كانت الحياة مشرقة وجميلة.

ودون سابق إنذار في ظهيرة أحد الأيام أراد العراق وضع يده والسيطرة على المدينة الهادئة فلم يجد أمامه طريقة إلا أن يضربها بالكيماوي. انتشرت في الجو رائحة الشواء واستنشقها الأطفال والكبار ثوان معدودة وأكثر أهالي البلد قد خروا صرعى دون أن يعرف أحد ما الذي حدث تحديدًا وما هذه الرائحة التي تنتشر في الجو، يدخل الجميع دون استثناء في نوبة طويلة من السعال يحمر الوجه ويصابوا باختناق، ثوانٍ ويتيبس الجسد ويفقدوا الحياة. ركضت كالمجنون لأطمئن على عائلتي وفي طريقى كنت أجد الجثث تقع من كل صوب وجهة وكأن يوم القيامة قد قام حتى ذهبت للمنزل لأجد أطفالي وزوجتى قتلى. كان المشهد كأحد مشاهد أفلام الرعب وكأن الآية الكريمة التي قيلت في أهل الكهف قد تمثلت وقتها (وتحسبهم أيقاظا وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبًا) فجأة تجمدت الحياة كمشهد سينمائي قد توقف عند لقطة معينة لخطأ ما في الشريط. ذهبت إلى المطبخ لأفاجأ بزوجتي وهي تمسك السكين بيد وباليد الأخرى جزرة وقد تيبست تمامًا، ابني الصغير يرقد بجوارها وهو يمسك بذيل فستانها كعادته دائمًا وحول البركة كان بقية أطفالي الخمسة جثثا هامدة وهم يمسكون بمسدساتهم المائية. أنا الوحيد الذي نجا من أسرتي ولا أعرف هل هذا من حسن حظي أم من تعاسته؟!

صمت الرجل فجأة، فأى كلمات أخرى ممكن أن تقال؟

تأكد إياد أن هذا الحديث كاف، ليذهب بالرجل لما هو فيه، متشرد يهيم على وجهه بالشوارع والطرقات، ربما هو أيضًا كان من الممكن أن يواجه مثل هذا المصير لو لم يسر في الطريق الذي قاده إلية قدره. الاستسلام للحزن يصل بنا لأقصى حالات الجنون والاكتئاب التي قد تفضي للانتحار ولو بعد حين، أليس ما يفعله هذا الرجل بنفسه هو انتحار؟

كل منا لاقى نفس المصير. شاهد عائلته جثثًا هامدة، والآن ها نحن، كل منا هائم على وجهه يدفع ثمن إجرام ارتكبه مجرم آخر.

أخرج الرجل إيادًا من أفكاره مستكمًلا حديثه بنبرة تتكئ على الألم

- تضاربت الأقوال فيمن وراء الحادث العراق أم إيران؟ وكل منهما كانت تشيح بالتهمة بعيدًا عنها وتدفع بها للآخر وأخيرًا وبعد الكثير من الجهد والبحث صرح دكتور "جان باسكال زاندرز" رئيس مشروع الحرب البيولوجية بأن العراق هو وراء ما حدث بالرغم من وجود أدلة تشير إلى أن إيران متورطة أيضًا ولكن تورطها كان بشكل جزئي.

دون أن يستأذن مد يده لعلبة السيجار الموضوعة على الطاولة وسحب واحدًا وأشعله ثم أخذ نفسًا عميقًا وأخذ يسعل بشدة ولم يمنعه سعاله من استكمال الحديث، فخرجت الكلمات متحشرجة وغير واضحة:

- في رأيي أنا الجاني الحقيقي ليس هو صدام أو علي حسن "أحد رجال صدام والمشهور بحسن الكيماوي والمسئول عن هذه العملية" الجاني الحقيقي هو الدول التي كانت تناصر العراق وإيران وسمحت لهما باقتناء أسلحة الدمار الشامل وليس ذلك فقط، كل عقل مدبر وكل عالم وقف وراء إنتاج هذه المبيدات لقتل البشر هو شريك في ذلك الجرم.

"كل عقل مدبر وكل عالم هو شريك في ذلك الجرم".. هده العبارة أخذت تتردد على مسامعه، وتتمدد بصدى صوت الرجل.

نعم الرجل على حق ولكن إذا كان على حق فما الذي يفعله أبوه في العراق؟ ألم يذهب هناك، لينضم لصناعة تلك الأسلحة من الدمار الشامل؟ ترى هل أبوه له يد في ضرب تلك القرية الكردية؟ وهل كان أحد الجناة المتسببين في ذهاب أطفال الرجل لنعوشهم ثم المصير المحتوم له، ليتخذ من إحدى الزوايا في أحد شوارع باريس سكنًا حيت تمتد أيدي الإحسان له؟!

وإن كان أبوه له يد في ذلك حقًا، فهل دبر الله له جزاءً مماثًلا، أليس الله بممهل وليس بمهمل؟

أسئلة وتساؤلات أخذت تذهب وتجيء به في شتى الاتجاهات جاء بها هذا الرجل معه. لماذا أتى به عنده؟ هل ليستيقظ على حقيقة كان يغفلها أم كان يريد إغفالها؟ ألم يعلم مسبقًا أن أباه عالم كيميائي انضم لصناعة اليورانيوم في مصانع صدام حسين، ولماذا لم يشغل نفسه بالتفكير ولو لمرة واحدة لمن ستوجه هذه الأسلحة؟

استيقظ من أفكاره ونظر حوله فلم يجد الرجل. ذهب يبحث عنه في أنحاء المكان فلم يجده، لقد ذهب بعدما ألقى له بالحقيقة التي منذ أن سمعها دخل في تفكير عميق، منعه حتى من الانتباه للرجل عندما أخبره وهو يهم بالخروج:

- سأغادر أشكرك على الضيافة والطعام.

عندما جلس مساء أمام جهاز الكمبيوتر، ليبحث في مواقع البحث عن تلك المأساة، وليعرف أكثر المزيد من الحقيقة وجد نفسه يغلق الجهاز لم يكن يريد أن يثنيه شيء عن قراره مهما كانت تلك المعلومات التي سيحصل عليها، لقد وجد أهله يقتلون أمامه، الواحد تلو الآخر، وسوف ينتقم لهم من الجاني الذي أصبح له وجهة وعنوان.

كان يخطو قدمًا باتجاه قراره الذي اتخذه عند عودته من مهمته سيكون إيادًا جديدًا، إيادًا آخر. لذلك أنهى عقد إيجاره للمنزل، وضع ملابسه في حقيبه كبيرة، جمع أوراقه الهامة في حقيبة يده ثم وضع أسلحة مختلفة الأشكال والألوان، والتي داوم على استعمالها على مدار سنوات عمره مع هوياته المزيفة في حقيبة أخرى، سحب اللوحة الوحيدة التي كانت تزين الجدار وهي للفنان الفرنسي (ديغا) مشهد لراقصات البالية أثناء تدريبهن، و وضع تمثال الباليرينا الصغيرة في جيب سترته وألقى نظرة سريعة على أنحاء المكان، يودعه فيها بنظره، وغادر دون اصطحاب شيء آخر كان يكفيه ما جمعه. في المصعد تذكر أنه لم يقم بذلك المشهد الذي طالما شاهده في الأفلام عندما يقوم البطل اثناء رحيله بسحب صورة فو توغرافية تجمعه مع أفراد أسرته من فوق الطاولة ويتأملها كأنه يراها للمرة الأولى ثم يأخذها ويمضي بها.

عندما ترك منزلهم في بغداد إثر تلك المأساة التي حلت به لم يغادر يومها وبصحبته شيء سوى الحزن وذكرى أليمة ظلت دومًا متأبطة ذراعه، ولا يعرف حتى ما مصير تلك الصور التي كانت متناثرة هنا وهناك له ولأفراد عائلته. الدماء يومها لم تترك مساحة ولو صغيرة إلا خضبت بها، فمؤكد تلك الصور صبغت بدماء الأشخاص التي في زمن سابق كانت التقطت لهم. كذلك لم يسعفه وقته ولا عمره وقتها في جمع ملابس عائلته وأشيائهم الخاصة وتكفل بهذه المهمة دكتور نعمان، فتصدق بالملابس لإحدى الجمعيات الخيرية وجمع بعض الأوراق الهامة والكتب في صندوق وأعطاه له ولكن هذه الأشياء الخاصة جدًا والتي لا تعني أهمية إلا لصاحبها كمفكرة والده الخاصة ودفتر ذكريات أمه والرسائل العائلية وكروت المعايدة والتهنئة، فترى أي مصير كان لها؟!

وقتها كان عمره أصغر من أن يكترث بجمع تلك الأشياء ويحتفظ بها معه، على أي حال ما الحاجة في أن يحمل معه بعضًا من الصور وهو المثقل بوجوههم وأصواتهم وكل ما يخصهم أينما كان وأينما ذهب وكأنه حمل يأبى أن يغادر.

توجه للبنك ووضع الأوراق الخاصة والمهمة التي يحملها على مدار عمره "شهادة ميلاده – شهادات تخرجه – شهادات تقدير – وبطاقات مصرفية مختلفة" في خزينته الخاصة هناك. ذهب بعدها لهذه الزاوية التي يجلس فيها هذا الرجل وسط كومة من القاذورات، تناول الحقيبة التي بها ملابسه وعندما اقترب منه اكتشف أن مشردًا آخر من زنوج إفريقيا يجلس مكانه. سأله عن الرجل الذي كان يفترش ذلك المكان أمس؟

- لا أعرف فربما ذهب. عندما جئت لم أجد أحدًا هنا غير القاذورات وهذه الكتب.

عدد من الكتب مرصوصة أرضًا تناول أحدها كان باللغة الكردية فتأكد أن هذا ما حمله معه من بقايا حياة سابقة. تذكر عندما قال له هذا الرجل:

" أعيش كدرويش متصوف لا نهج لي سوى الزهد في كل متع الحياة".

وهل كانت الملابس في الحقيبة وعلاماتها التجارية التي تعلن عن أنها من أرقى وأغلى بيوت الأزياء الباريسية والأيطالية من هذه المحلات التي تشع أناقة وإضاءة وتتعثر بفخامتها أينما ذهبت في أنحاء باريس ستعنيه في شيء وهو الذي زهد الدنيا وما فيها. وهؤلاء الذين يحرصون على ارتداء هذه الملابس الباهظة ويكفيهم فخًرا وقتها أنها تحمل علامة المتجر، هل فكر أحدهم يومًا أنه يرتدي ما هو أثمن منه؟! فأجسادهم التي تتدثر بها متألقة ومتعطرة ستتلاشى يومًا وستكون وجبة تتقاسمها بشهية الديدان والذباب، بينما هي ستظل معلقة بأناقة في الخزانة مرحبة بالزبون الجديد لا غضاضة بالنسبة لها أن تمنح نفسها له، إذا حدث ووضع يده بجيبها ستصطدم بتذكرة لزيارة متحف مثًلا أو لفيلم سينمائي كان قد قطعها احدهم في زمن سابق ، زمن صنعت فيه هذه التذكرة فرحته ومؤكد لن يهتم بها زبون المعطف الجديد، ربما باستخفاف سيتطلع فيها ويدهسها بحذائه ويمضي في طريقه. منح إياد الحقيبة الجرارة الأنيقة التي تحوي ملابس لا تقل عنها أناقة للمتشرد الآخر قائًلا:

- في هذه الحقيبة ملابس يمكنك استعمالها.

وترك الرجل مذهوًلا من أمره وهو يعبث في الحقيبة محاوًلا فتحها.

كان لا يزال في سيارته وبصحبته الحقيبة التي تحوي الأشياء الأخطر والتي تشغل مساحة من الذاكرة ولكن للأسف هذه المساحة ليس في استطاعته أن يلقي بها أو يمنحها لأحد. إنها حقيبة الأسلحة والذخيرة وإن أفلح في التخلص منها، فكيف سيتخلص من الأرواح التي قنصها بها؟

بصحبة الحقيبة على مقعد خشبي أمام نهر السين جلس يفكر في سريان هذا النهر باتجاه مصبه منذ قرون من الزمان، يحمل في جوفه الأسماك والكثير من مكتئبي باريس الذين اتخذوا من هذا النهر وسيلة للتخلص من حياتهم ليس فقط لأنها الطريقة الأسهل في الانتحار ولكنها الأكثر أمانًا لحفظ سر هؤلاء الذين يفضلون الذهاب صوب العالم الآخر دون أن يدري أحد لأي الطرق هم ذهبوا، ويظلون يبحثون عنهم ويتساءلون، تراهم ما زالوا في عالمنا هذا أم غادروه؟! تنشر صورهم تحت عنوان خرج ولم يعد يثير اختفاؤهم التساؤلات ليس للأهل والأصدقاء فحسب، ولكن لكل من يتطلع للصورة في الجريدة، ربما أصاب هذه الفتاة مكروه وربما ترك هذا الشاب المنزل وهرب من أم متسلطة وأب عصبي المزاج، وهل ترى هذه المرأة دبرت خطة للهروب مع عشيقها؟

قرأ كتاب عن الأنهار والحوادث والكوارث المرتبطة بها، ذكر الكاتب في أحد فصوله حادثتين وقعتا في نهرين على قدر كبير من التشابه، والنهران جمعهما قدره بهما، نهر النيل يجري ماؤه في وطن جاء منه ولم يسكن فيه ونهر السين الذي يجري في وطن يسكنه وليس منه.

وقع الحادث نهر النيل عام 1946 كانت مصر وقتها واقعة تحت الاحتلال البريطاني والحكم الملكي، خرج طلاب جامعة القاهرة ليتظاهروا أمام مقر الحاكم بقصر عابدين، وكان عليهم المرور على جسر عباس، طلبة جامعيون وشباب ثوريون، خرجوا للمطالبة بالحرية ويندون بالاحتلال، فخرجت عليهم قوات الأمن وحاصرتهم فوق الجسر من الاتجاهين، وللتخلص من تلك الأفواه التي تصرخ منادية بالحرية أصدر "فيتز باتريك" محافظ الجيزة وقتها أمًرا لقوات الأمن

أن تفتح الجسر الذي كان تصميمه يسمح بقسمه لنصفين، وفجأة يسقط هؤلاء الطلبة في هوة سحيقة لنهر عميق.

هكذا بمنتهى القسوة تم التخلص منهم، مات منهم من مات وعاش متدثِّرا بألم الظلم والطغيان من بقي على قيد الحياة.

أما في باريس فقد خرج المئات من الجزائريين الذين يعيشون هناك ، ينددون بما ترتكبه فرنسا من انتهاكات في الجزائر الواقعة وقتها تحت الاحتلال الفرنسي وأثناء مرور المظاهرة من فوق جسر ميرابو خرجت عليهم قوات الأمن الفرنسية لتقتلهم بالرصاص فاخترق أجسادهم وألقوا بجثثهم في عمق النهر في مشهد هو القهر بعينه ولكن هل كانوا على هذا القدر من التفاؤل ليعلنوا العصيان ويقفوا للمطالبة بالحرية والتنديد بالاستعمار الفرنسي من فوق أرض المحتل نفسه؟!

بعد حادث نهر النيل طفت على سطح المياه الدفاتر والأوراق التي كان يحملها الطلبة أملًا في مستقبل مشرق بينما في نهر السين فقد طفت أحذية الموتى وغطت صفحة الماء لتقوم قوات الأمن بمد الشباك لاصطيادها، كانت مقلوبة في وجه من تخلص منهم وكأنها في تحد سافر ممن قتل صاحبها. إنهما ذات الحادثتين، الغرض منهما واحد: تكميم الأفواه التي تطالب بالحرية والعدل والمساواة، والمتهم فيهما هو الأجنبي الذي في اعتقاده دائمًا أن العربي لا حقوق له، وبقانون الغاب يحق له أن يستبيح أرضه وعرضه.

فجأة دون أن ينظر حوله ليرى إن كان هناك أحد يشاهده التقط الحقيبة من بين ساقيه واقترب من سور النهر وألقى بها، وبثبات مضى في طريقه وابتسم عندما سمع وقع ارتطامها القوي، بالنهر أخيرًا شعر بخفة لا مثيل لها بعدما تخلص من الأشياء التي كانت تثقل كاهله وروحه.

ها هو يسير في الشوارع بلا مأوى وبلا ثياب ودون هويات شخصية متعددة أو بطاقات بنكية تثقل محفظته الجلدية ، يسير بصحبة نفسه لا أكثر وتداعبه صور المستقبل الجديد. أيام قليلة هي التي تفصله ما بين قبل وبعد. ولكن ما السر في هذا الشعور الغريب الذي يعتريه، تذكر كلام هذا الرجل الزاهد في الحياة الذي اصطحبه لمنزله عندما أخبره بأن هناك سعادة في أن تعيش هائمًا على وجهك دون قيود أو ارتباطات، دون أن تنتظر أحدًا أو أن يكون أحد في انتظارك، سعادة في أن تستسلم تمامًا لقدرك وتترك له مقود الحياة.

كان يسير على طول الأرصفة من طريق لآخر ومن شارع لآخر دون أن ينتظر شيئًا ودون أن يخلف وراءه شيئًا بوسعه أن يقطع نهر السين وأن يضل طريقه باتجاه أحياء أخرى ومدن أخرى، كل همه وقتها هي اللحظة التي يعيشها وفي ذلك تكمن سعادته.

تعجب من هؤلاء الذين يدونون المواعيد في دفاترهم ربما قبل شهرين من الموعد المحدد هل حقًا لا يدركون أن الزمن يتمدد، حتى يصير راكدًا، وهؤلاء الذين يشترون شهادات بنكية يكون شرطها عدم الحصول على أرباحها أو قيمتها إلا بعد عشرات السنين ووقتها يحق لهم الحصول على مضاعفات المبلغ فهل يجهلون مثًلا أنه في لحظة ما بعد غلق الباب خلفهم من الجائز جدًا أن يصبحوا في عداد الأموات؟! يا لهم من أغبياء! ما قيمة أن تحيا عمرك في انتظار الغد؟!

فاللحظة التي تمتلكها اقتنصها وقرر اقتناص اللحظة، فأدار مقود السيارة في اتجاه عكسي لبيت عائشة.

حدثها هاتفيًا وطلب منها أن تجهز نفسها، فسيمر عليها ويذهبان للعشاء في أحد المطاعم. عند ناصية الطريق وقف ينتظرها، لمحها وهي قادمة من المرأة الأمامية للسيارة كانت تخطو بدلال، ترتدى سروًالا من الجينز الضيق على سترة حمراء جلدية وتلف شالًا من الصوف حول رقبتها بينما تطلق لشعرها العنان من حولها. هلت معها رائحة عطر مثيرة وعند مصافحته لها شعر بيدها كقطعة من الثلج.

- يا أله! كفك تكاد أن تتجمد.

- نسيت أن أرتدي القفازات.

حضن يدها الباردة في دفء يده ليمنحها بعضًا منه وابتسم وهو يقول: هناك مثل مصري يقول:

"بارد اليد، دافئ القلب".

أزاحت خصلة شعرها عن وجهها وابتسمت قائلة:

- ليس دافئ القلب فقط، يمكنك أن تقول: قلبه يشتعل حبًّا.

فجأة تولدت به رغبة في تقبيلها فاقترب منها واضعًا عدة قبلات سريعة خاطفة الواحدة تلو الأخرى وسألها:

- إلى أين تحبين أن تذهبي؟

- معك لا فرق بين مكان وآخر. متعتي هي أن أبقى معك حتى إذا بقينا هنا في السيارة واكتفينا بتناول السندوتشات.

سرح في كلامها الذي يؤكد له أنها تعشقه بجنون ومؤكد ستغفر له إن أخبرها حقيقته ثم هز رأسه بقوة وكأنه يريد أن يخرج منها هذه الفكرة.

"لا لا لن أخبرها وما الجدوى من ذلك. اتخذت قرارًا بعدم قيامي بهذا العمل مجددًا كما أني سأقطع كل شيء يربطني به" ثم يعلو صوت آخر في رأسه "ولكن من حقها أن تعرف ماضيك وعليها هي أن تحدد ماذا تريد"... لاحظت هي أنه دخل في تفكير عميق.

- إياد.

- نعم.

- أين ذهبت؟

- أبدًا كنت أفكر في مستقبلنا.

- دعنا نفكر معًا ولكن أخبرني هل تحدثت مع أسرتك بشأن زفافنا؟

- أسرتي!!

ردد متسائلًا:

- نعم أسرتك.. أمك وأبوك إخوتك وهكذا.

بنبرة أكثر خفوتًا:

- ليست لي عائلة!

- أيوجد أحد ليست له عائلة؟! يمكنني أن أقتنع أنه ليس لك معارف أو أصدقاء إنما عائلة هذا أمر صعب تصديقه؟!

- مؤكد كان لي ولكن جميعهم قتلوا في حادث منذ زمن بعيد.

فوجئت بكلامه وانتظرت أن يواصل الحكي ولكنه كالعادة اكتفى بهذا القدر دون الخوض في تفاصيل لو كانت مرتبطة برجل آخر، رجل ذي طباع عادية مؤكد كانت ستعرف عن حياته كل شيء ولكن ها هو وعن طريق المصادفة يخبرها أن أسرته قتلت جميعها وهل هذا شيء يخفى!

ألم يشعر يومًا بأنه بحاجة للفضفضة معها عن هذه المأساة؟ وما قيمتها إذن في حياته إن لم يكن يشاركها أفراحه وأحزانه؟! مزيج من مشاعر خيمت عليهما، الحزن والألم والتساؤل، تأكدت أن هذا الحادث وراء طباعه الغريبة.

أمام مطعم صيني شهير صف سيارته..

- ولكنك لم تسألني إذا كنت أحب الطعام الصيني أم لا؟

مازحها قائلًا:

- من وقت قصير أخبرتيني أنه لا فرق بين مكان وآخر المهم أن نكون معًا ابتسمت قائلة:

- نعم قلت لا فرق بين مكان وآخر ولكني لم أقل بين طعام وآخر!

- كنت أعتقد أنه ليس هناك من أحد لا يحب الطعام الصيني وعلى أي حال إن كنت لا تشتهينه فلنذهب لمكان آخر.

- لاداعي لذلك هيا بنا.

المكان بالداخل كان يبعث على الدفء، تنبعث من أرجائه الموسيقى الصينية بالإضافة لرائحة شهية يصعب مقاومتها.

سألته:

- ولماذا في اعتقادك أن كل الناس تشتهي الطعام الصيني؟

- لو تنتبهين لمذاقه فستجدينه يشبه الحياة التي نعيشها. هو مزيج ما بين الحادق والحلو، فجأة يلسعك الحادق ثم تستمتعين بطعم متأخر للذة الحلو فيزيل ما علق بلسانك منه ومجددًا يهاجمك الحادق مرة أخرى وهكذا. مثلما الحياة تتنوع بين الحادق والحلو.

- فلسفة أيضًا.

واصل كلامه:

- الصين اكتشفت مطبخها مِوخرًا فلم تكن من البلاد الرائدة في فنون المطبخ كفرنسا – إيطاليا – إنجلترا، لذلك صنعت طعامها على مهل وعلى حنكة وفلسفة خاصة فيما يدور حولها من أحوال العالم ومن أهواله أيضًا فقدمت لك طبقًا مشابهًا للحياة به الحلو والحادق معًا في قضمة واحدة.

- في الحقيقة عند تناولي الطعام لا أفكر في كل ما تقوله وأحيانًا أخرى لا أتعب نفسى في معرفة مكونات الطبق. كل ما يهمني أن ألبي نداء الجوع داخلي لا أكثر.

حضر النادل فطلب لهما:

- لفائف من سبرنج رولز المحشوة، وطبقين من اللحم بصوص السويت آند ساور.

ثم أخبرها أن عليها أن تتناول الطعام بهدوء وببطء ووقتها ستفهم ما يعنيه.

ابتسمت وهي تخبره:

- أفضل الطعام الهندي لما له من مذاق حادق دائمًا يشبه حياتي، فهذا الحلو الذي تتحدث عنه لم أعرفه من قبل.

- حقًا! كنت أعتقد أن حياتك لا ينقصها شيء فأنت امرأة جميلة وناجحة بعملك، تسكنين في منزل أنيق في أجمل مدن العالم وتملكين الحرية الكافية.

- للأسف عادة ما يحكم الناس على المظاهر ولا يهمهم أن يعرفوا أكثر مما تراه العين. لقد جاءت أسرتي منذ زمن لفرنسا جاءت محكومة بعادات وتقاليد بالية ليس لها وجود هنا وبالرغم من ذلك فقد ظلت حريصة عليها. كعدم الاختلاط بالناس وعدم ارتداء ملابس كاشفة ومنع الرجوع للمنزل في أوقات متأخرة. أبي كلما شعر بمدى الحرية من حوله كان يحاول أن يحبسنا أكثر في زجاجة محكمة الغلق. كيف لك أن تعيش وسط مجتمع متحرر ولا تمارس حريتك؟ تراهم من حولك يصولون ويجولون في عوالم من الحرية وتجد نفسك مقيدًا لا يحق لك أن تفعل هذا أو ذاك! كثيرًا ما تشاجرت معه وطلبت منه العودة لوطنه ليعيش هناك بعاداته وتقاليده المتزمتة التي نشأ عليها وأسأله: "ما الذي جاء بك إلى هنا إذن؟".

رشفت من كوب الماء عدة رشفات وتابعت حديثها وربما كانت هذه المرة الأولى التي يشعر بأنها يعتريها الأسى.

- حتى أنهيت تعليمي الثانوى بتفوق وكان على أن أترك مدينة ليون وأحضر لباريس لألتحق بالجامعة في البدء رفض أبي فكرة العيش بمفردي ولكن أمام إصراري وعنادي وافق على مضض، وفرت لي الجامعة غرفة في منزل تسكنه طالبات مغتربات وهناك كان علي أن ألتقى فتيات من مختلف الأشكال والألوان. لم يمنعهن تحررهن أن يصطحبن أصدقاءهن الذكور للبيت وإقامة العلاقات معهم وتدخين المخدرات بمختلف أشكالها، وبالرغم من كل ما كان يدور حولي كنت ثابته على ما تربيت عليه.

وضعت النادلة الصينية الأطباق وابتسمت فضاقت عيناها أكثر . صاحت بعد أن فشلت في تناول الطعام بالعصي الخشبية.

- ولكني لن أستطيع استعمال تلك الأداة.

- الأمر بسيط انظري.

كان يحاول أن يشرح لها كيف يمكنها استعمالها، وهنا ضحكت بملء فمها وهي تشير بيدها بما يعني النفي.

- لا تحاول، لا أستطيع.

- إذن تناوليه بالشوكة والسكين، لا تزعجي نفسك.

أشار للنادلة وطلبهما منها.

- ثم.. هيا أكملي حديثك.

أخذت نفسًا عميقًا وعدلت من جلستها استعدادا لمواصلة الحكي، بينما يقظت ملامحه انتباهًا لما سوف يسمعه. الأمر كان أشبه بتلك الاستراحة أثناء العرض السينمائي، البعض يخرج ليدخن أو ليجري اتصالا هاتفيًا والآخر يذهب لشراء الذرة والحلوى، ثم على الجميع العودة مجددًا لاستكمال الفيلم وكأن تلك الدقائق التي مرت لم تمر.

- وقتها كنت أملك من الحرية ما أشاء. لم تكن هناك عين ساهرة لمراقبتي وإذا بالقيم والمبادئ التي أحملها معي بمثابة الحماية لي من كل ما يحيط بي. وقتها أيقنت أن الحرية ليست أن تكون حرًّا ولكن ما الذي يمكنك أن تفعله بحريتك؟! تلك الفترة بحياتي كانت بمثابة تحدٍّ لأثبت لنفسي أنني قوية وقادرة على مواجهة العالم وحدي، فتاة بريئة لا تمتلك سوى قوت يومها ومناهجها الدراسية، فكان علي أن أدرس وأعمل وفي نهاية اليوم أتكيف مع أمزجة فتيات على قدر كبير من الجنون والتهور، اشتغلت في تلك المهن المناسبة للطلبة، والتي لا تحتاج يوم عمل كاملًا أو تقيدهم وتحكمهم بمواعيد أو تتطلب شهادات خبرة وما إلى ذلك. تنقلت من العمل كنادلة في أحد صالونات الشاي ألبي طلبات الزبائن المصاحبة لكوب الشاي " كرواسان – أكليير شكولا ودائمًا

كانت عبارة المزيد من السكر آنسة" كان الشغل مرهقًا، خاصة أن صالة الشاى دائمًا مكتظة بالزبائن، بعدها بعدة أشهر وقع نظري على إعلان صغير في صفحة وظائف خالية كتب ما بين قوسين "مطلوب مرافقة لكلب" في البدء أثار الإعلان سخريتي، كنت أسمع عن مرافقة لمسن أو عجوز ولكن لكلب! كان الأمر مثيًرا حقًا، وبدافع فضول لا أكثر اتصلت على الرقم برفقة الإعلان وذهبت لأقابل صاحبة الكلب. كانت سيدة عجوزًا من طبقة ارستقراطية ولكنها رحيمة. تفهمت أموري وألحقتني بالعمل كمربية لكلبها، كان عليِّ الذهاب لها ثلاث مرات خلال اليوم لأصطحب كلبها للتريض وقضاء حاجته مرة في الصباح ومرة عند العصر وأخرى مساء. كان الكلب من نوع البوكسر الضخم عندما اسحبه من طوقه تكاد ذراعي تنخلع مني وأظهر كم أنا ضعيفة ويبدو كما لو أنه هو الذي يسحبني وراءه ولست أنا، ولكني أحببته وأحببت هذه السيدة وأحببت عملي أيضا، أحببته لأني كنت أشعر في نظرته بمدى حبه وحاجته لي، وأحببتها لأنها كانت تعاملني بلطف وود كما لو أني حفيدتها أو ابنتها وأحببت عملي لأنه كان يدر على يوروهات كثيرة آخر كل أسبوع. كانت تحرص السيدة على وضعها في مظروف أبيض وتكتب عليه بخط رشيق "مع الشكر" حتى في الإجازات الصيفية والعطلات السبوعية التي كانت تقضيها ما بين باريس ونيس كانت تصحبني معها. كانت أيامًا جميلة حقًا عندما يدير السائق الراديو طوال الطريق على أغاني إديث بياف القديمة والحزينة وكانت هي تغني معها وتبكي، ثم فجأة قررت السفر لأمريكا لتقضي البقية الباقية من حياتها مع ابنتها هناك، قضيت معها عامين وأوجعني حقًا رحيلها، ليس لكرمها معي ولكن لتعلقي بها وبالكلب، هكذا هم دائما يختفون من حياتك.

بعدها التحقت بالعمل كمربية لطفل عند زوجين، أرعى لهما طفلهما فترة بعد الظهر، الزوجة كانت مدللة لدرجة تثير الأعصاب. لم تحاول حتى أن تسألني عن اسمي أو تنظر لي، فقط كانت توجه لي الأوامر، والزوج متعال ولديه تقلبات وأهواء طفل مدلل يحجز ملعب الكرة طوال اليوم لأنه لا يحب أن يلعب أحد فيه وطاولة باسمه تحجز يوميًا في أشهر ناد ليلي بالمدينة ولا يحب أن يشغلها زبائن آخرون حتى لو لم يكن سيذهب للسهر هناك، كان من صفوة المجتمع ثريًا وينحدر من أسرة عريقة، لذلك كان يعتقد أنه فوق القوانين وفوق كل الاحتمالات وطفلهما لم يكن يختلف عنهما، كان عامي الجامعى الأخير وعلي أن أتحمل تقلبات مزاجهم وأوامرهم حتى أنهيت سنوات الدراسة بتفوق وحصلت على وظيفة معلمة في مدرسة ومترجمة في السفارة المغربية بدوام غير كامل، وخلال سنوات قليلة استطعت أن أحقق ما تمنيته. اليوم أصبح لدي عائد مادي كبير يلبي جميع احتياجاتي ومنزل جميل لأول مرة يؤسس على ذوقي وليس على ذوق الآخرين، اخترت لون جدرانه وديكوره وأغطية فراشه وفقًا لمزاجي الخاص، والأهم من ذلك لم أعد ألبي طلبات أحد.

كان ينصت لها بإمعان وعندما انتهت سألها:

- وأسرتك؟

- عندما حملت حقيبتي وغادرت لباريس كنت أشعر باستياء شديد تجاه أبي وتزمته في التمسك بكل ما يمت إلى ماضيه من عادات وتقاليد وقررت الاعتماد على نفسي، لكن مع الوقت تأكدت أنه لولا حرصه على تربيتنا على العادات التي نشأ وتربى عليها لما أصبحت بما هي عليه اليوم.

لذلك بعد فترة ذهبت إليه وقبلته وشكرته على حسن تربيته لي، فوحدها كانت زورقي الذي أوصلني لشط الأمان من وسط بحر هائج الأمواج.

لا يعرف ما الذي أوصله هناك عند أعتاب مهمته القادمة وخطورتها. هذه المهمة غير مضمونة العواقب، فخصمه هذه المرة مختلف عن كل مرة، إنه من أشهر قناصي العالم، يكفي أنه كان يطلق عليه الأسطورة من هول أفعاله، فإن أخفق في قتله فسيكون هو القتيل لا محالة. شعر بحزن عميق من أجلها ومن أجل ما قد يسببه غيابه لها وخاصة أنها عانت في حياتها بما يكفي. إنها تألمت من سفر السيدة العجوز بلا رجعة، فما باله إذا لم يسنح له قدره بفرصة للرجوع، مؤكد ستظل تردد بحزن وحسرة عبارة "هكذا هم دائمًا يختفون من حياتك"، احتار هل يخبرها حتى تعلم في حالة عدم عودته أنه لم يتخل عنها؟

هذه الأفكار والهواجس التي انتابته خلفت على ملامحه شعوًرا بالحب تارة والخوف تارة أخرى. كان يخربش بالعصا الخشبية في صحنه بطريقة عصبية، ولاحظت هي كل ذلك فسألته:

- ما بك؟

- عائشة اسمعى جيدًا سأسافر في مهمة عمل على قدر كبير من الأهمية والخطورة أيضًا. إذا لم يحالفني الحظ وأرجع مرة أخرى فتأكدي أن مكروهًا ما قد حدث لي وأني لم أتخل عنك أبدًا.

هزت رأسها وهي تبتسم بسخرية واستنكار قائلة:

- مؤكد أنك تمزح!

- لا يا عائشة.. أنا لا أمزح.

هنا تخلت عن هدوئها قائلة:

- وأي مهمة تلك! أنا حتى لا أعرف ماذا تعمل. هل يمكنك – ولو لمرة – أن تتخلى عن غموضك وتخبرني؟

شعر بأنه في حاجة ملحة لتبغه، لذلك أشعله بالرغم من تعليمات المطعم بعدم التدخين. لم يكد ينفث من سيجارته عده أنفاس حتى حضر مدير المطعم مسرعًا وطلب منه أن يطفئها فورًا أو يذهب ليدخنها بالخارج.

لم يكترث إياد لنبرته الحادة وأطفأها بلا مبالاة بعد أن نفث منها عدة مرات متلاحقة في حين اعتذرت هي للرجل معللة بأنه لم يلاحظ أنه ممنوع التدخين، معالم الاستياء ظهرت على ملامح الرجل فغادر دون الاقتناع بحجتها.

- سأخرج لرحلة صيد نوع معين من الأسماك. نوع نادر الوجود ويصعب صيده. سنذهب بعيدًا غرب البحر الأسود في مكان خطر حيث يوجد هذا النوع من الأسماك .

- ولكن هل الصيد مهنتك أم تمارسة كهواية؟

- الاثنان معًا....

فكرت أنه يصطاد تلك الأنواع الغالية من أسماك التونة الأنشوجة والتي تباع للمصانع وتصنع منها معلبات تسوق في المتاجر وربما هذا سبب ثرواءه.

- ولماذا تعرض نفسك للخطر في سبيل صيد سمكة؟

ربت على يديها ليطمئنها

- لا تقلقي يا عائشة، سأحاول أن أعود سالمًا، أعدك بذلك.

طلب الحساب بينما ظلت في حالة من الذهول من كلماته. في طريق العودة لم تترك يده كف يدها الصغيرة، ودعها بحضن عميق شعرت وقتها حقًا أنه ربما يكون الوداع الأخير، فدفنت نفسها داخله لأطول ما يمكن من الوقت وسحبت نفسها وهي تسأله:

- متى موعد رحلتك؟

- اقتربت. سأهاتفك بين الحين والآخر.

وظلت كلمة احترس لنفسك – التي قالتها وهي تودعه بنبرة حزينة ومخنوقة – يتردد صداها في مسامعه.

أنهى إجراءات الإقامة في الفندق الذي نزل فيه بعد تركه للشقة وطوى بعضًا من الأمتعة في حقيبة هاند باج صغيرة وتخلى عن أناقته هذه المرة وسافر مرتديًا بنطلونًا من الجينز وحذاء رياضيًا.

كانت المرة الأولى التي يسافر فيها لأمريكا ولم يفكر مسبقًا في السفر لتلك القارة التي اكتشفها كولومبس ظنًا منه أنه اكتشف الهند وعند عودته لإسبانيا عرض على ملكته وملكه كنوز القارة التي اكتشفها، كان من ضمن السلال التي احتشدت بالطيور والحيوانات الغريبة فتيات وفتيان من الهنود الحمر سكان القارة الأصليين بملابس غريبة ولون بشرتهم الداكنة ولغة كانت بمثابة لغز لهم. خرج جميع أهالي البلد ليشاهدوا المخلوق العجيب الذي عثر عليه كريستوفر كولومبس.

لم تعنِ له كلمة أمريكا يومًا ذلك البريق الذي يراه فيها الجميع وعكس الناس ظل دومًا يعتقد أن أمريكا بلد بلا تاريخ وقارة بلا أصول يسكنها مواطنون مختلطو الأجناس متعددو الهويات والأشكال والألوان بلد قامت على صراع الحضارات، بلد تؤمن بحقوق المواطنة والحريات والديمقراطية، في حين تسفك دماء وتكمم أفواه وتكبت حريات دول أخرى. بلد قوتها فيما تملكه من أسلحة أكثر فتكًا.

لقد رأى بنفسه عند اجتياح الجيش الأمريكي للعراق، كل هذا الخراب الذي صنعوه في لحظات قليلة من دخولهم البلاد وكأن القيامة قد قامت هناك. الدبابات التي انتشرت في شوارع بغداد، الجنود الأمريكان بزيهم المقيت وملامحهم القاسية الغليظة، العنجهية والتعالي في تعاملهم مع الجميع ظالما أو مظلومًا، بريئًا أو مدانًا. مواطنًا عاديًا أو مجرمًا عتيدًا والدماء ورائحة الجثث

التي خلفوها وراءهم في كل مكان... أصبح هناك حاجز بينه وبين كل ما هو أمريكي وقاطع كل الحضارة التي تقدمها لنا.

كانت الرحلة طويلة ولم يكن أبدًا من هؤلاء الذين ينعسون في الطائرة فوضع سماعات الأذن في رأسه ليستمع لسيمفونية الفصول الأربعة وكالعادة امتدت يده للكتاب الذي لم يفارقه في سفرياته منذ عثوره عليه لينهل من عسل أحداثه وربما من مرها...

الفصل الثالث عشر

ذهبت أتجول في حي البيازين. بيوت خربة وشوارع مقفرة خاوية من ساكنيها الذين تركوها ورحلوا. توقفت أمام أحدهم كانت غصون الزيتون مثمرة في حديقته ولكن ليس هناك يد لتنالها؛ فاليد التي كانت قد وضعت بذرتها لم تعد هناك الآن لتجني ثمار ما زرعته، فتساءلت بحسرة:

- من صاحبك يا دار وأين ذهب سكانك؟

ولم يجبني سوى بكاء الجدار وشحيبها، فتركت المنزل وعرجت على دارنا في هذه المرة لم أشعر بحزن كبير عند رؤيتها، فقد جئت يسبقني فرحي وفي نيتي أن أخبر الأرواح الساكنة فيها أنني أخيرًا قد ثأرت لهم. القفل الحديدي للباب أكله الزمن وصدئ، ما إن مددت فيه عصًا رفيعة حتى فتح. أزحت البوابة الحديدية فزأرت كمن تطلق زغاريدها. منذ متى وهي مغلقة على حزنها؟ منذ متى وهي تنتظر وقع خطى لأصحاب البيت؟

الحديقة كانت خربة، مكسوة بأوراق الشجر اليابسة وبعض من العشب النابت نما بين فواصل الصخور وما زالت الياسمينة تطل من بين الخراب. الفسيفساء تحولت لمرتع للقاذورات وفضلات الطيور. قضى الحريق على كل شيء، وأصبح المنزل بقايا حطام، ولكن منذ دخلته وكأن الحياة بتفاصيلها قد عادت إليه.

يمكننا أن ننثر بخيالنا الحياة في أنحاء المكان، ها هي قطع السجاد العجمي تفرش في أنحائه والمقاعد الأندلسية الوثيرة المبطنة بخيوط من القطيفة المشغولة توزع في أرجاء الصالة، ومن المطبخ تنبعث روائح الطعام والحلوى الرمضانية. أختي بقوامها الممشوق تقف لتعد المائدة، بينما أمي تنهر الخادمة لتلكُّئها في وضع الزيت لإشعال السراج. يتسلل من السرداب صوت تراتيل وتواشيح دينية، نظرت لأجد جمعًا من الرجال يرتدون البياض، يجلسون في حلقة يتوسطهم أبي، بوجهه الأبيض الذي يشع نورًا وإيمانًا مبتسمًا كعادته، بين أصابعه مسبحته الخشبية التي لم تغادره يومًا، وأخواي يجلسان بمحاذاة بعضهما ينشدان.

- الآن بإمكانكم أن ترقدوا بسلام لقد ثأرت لكم.

نطقتها وأنا أغلق ورائي الباب وتصفر في وداعي رياح خريفية باردة. أخذتني بعدها قدماي لنهر شنيل وجلست في مقابلته أتحدث معه:

- ما الذي حدث؟ لم تعد تلك المدينة مدينتنا. يومًا بعد آخر تنسل منها عروبتها، خلعت رداءها وارتدت رداء آخر لا يليق بها أبدًا.

لماذا فعلت ذلك؟ أخوفًا من غشم حكامها الجدد وظلمهم؟ أم أنها تتوق لخلع ردائها القديم واستبدال الجديد به؟! أم هو انتقام ممن لم يصنها؟ جاوبني يا نهر. أنت هنا منذ آلاف السنين، تركض في اتجاه مصبك، ومؤكد تعرفها أكثر مني، فأنت شاهد على كل ما حدث هنا. تعلم من ذهب ومن جاء، ومن الظالم ومن المفترى عليه. ولكن النهر أبى أن يجاوبني.

في بيت عمي استقبلتني زوجته بفرحة غامرة ثم جلست تقص علي أحوالهم التعسة، وكيف تبدل حالهم من حال لآخر بين عشية وضحاها.

اقتادوا زوج نائلة للسجن بدون تهمة تذكر وبعدها بعدة أيام حدثت المذبحة. دخلوا كالكلاب المسعورة يذبحون جميع السجناء ومنهم رجال لا حول لهم ولا قوة ولا دخل لهم بالسياسة، كل ما هنالك أنهم علية القوم وتجار لهم وزن وثقل وكلامهم له تأثير كبير على أهل المدينة. إنهم يريدون أن يقضوا على ماضينا ومستقبلنا. وليس هذا فقط، بعد قتلهم صادروا أملاكهم، حاولت أن أخبرهم أن دكان العطارة هو ملك لوالد زوجته، ولكنهم لم يسمعونني. إنه الموت وخراب الديار معًا.

قتل زوج نائلة والخراب الذي حدث لهم أضاف لها سنوات فوق عمرها، وكساها الحزن صمتًا، هي التي لم تكن تتوقف عن الكلام. أعدت عائشة مائدة شهية لهذا اليوم ترحابًا بي وأخبرتني:

- لقد جهزت لك حجرتك الملحقة بالحديقة أم أنك ستذهب هذه المرة أيضًا؟

- لا. هذه المرة جئت ولا أنوي الذهاب.

هذا حقًا ما كنت أنويه. في تلك الليلة قررت أن أتزوج بعائشة، يكفي ما مر من زمن على فراقنا. لو أنني كنت تزوجت بها قبل ذهابي للجهاد كان لي أولاد الآن يفوقوني طولًا ولكن هل تقبل الارتباط برجل لا بيت ولا عمل له ولا أوراق حتى تضمن له حق البقاء في المدينة؟ أعلم أنها تحبني كثيرًا ربما هذا يمنعها أن تهتم بهذه الأشياء.

وهل أكون أنانيًا لو تزوجتها وحرمتها من حياة كريمة ستجدها مع رجل آخر؟ لم أنعس هذه الليلة، أتقلب ذات الشمال وذات اليمين والفراش كأنه نار مستعرة من تحتي. انتظرت حتى لاح الفجر ولمحت زوجة عمي ونائلة وهما يخرجان ويحملان معهما سلة من الخوص ممتلئة بالخبز والكعك فاحت رائحتهما الشهية بالمكان أثناء خبيزهما، لم يمر الكثير من الوقت وخرج خالد ليذهب لعمله في دكان الإسكافي والآن لم يعد سوانا في المنزل يفصلني عنها بعض خطوات وطرقات باب، كانت جميلة عندما فتحته لي، وهي للتو مستيقظة من النوم، باغتها بالسؤال:

- عائشة.. هل تقبلين الزواج مني؟

ابتسامتها كانت علامة الرضا والقبول. زوجة عمي كانت كريمة لم تسألني عن مهر أو بيت، اكتفت بأن وضعت يدها فوق فمها وأطلقت الزغاريد، حتى وهي تزغرد كانت تحاول أن تخفض من فرحها حتى لا يسمعها أحد، فطقوس الاحتفالات يعاقب عليها بالموت، أهناك أكثر من ذلك ظلمًا.

ذهبت لصديق قديم لأبي يملك دكانًا لبيع الأقمشة في سوق القيصرية المشهور ببيع الحرير الذي يأتي من ملقة والبشرات، وللأسف أصبح السوق خاويًا من حريره ومن الزبائن، لم تكن سوى عدة دكاكين صامدة في وجه الزمن ومصائبه وطلبت منه أن يساعدني في إيجاد عمل، ابتسم قائلًا:

- أتعلم.. لقد أنهكني العمر وأصبحت غير قادر على مواصلة العمل والوقوف طيلة اليوم ألبي طلبات الزبائن وكلما استعنت بأحد اكتشفت أنه غير أمين وكنت أفكر جديًا في بيع الدكان ولكن حمدًا لله، أستطيع الآن الاعتماد عليك في إدارة الدكان، ومؤكد لن أجد أكثر منك أمانة وخلقًا، يكفي أنك ابن صديق غال، ومؤكد ورثت منه تقواه وإيمانه.

سعدت كثيرًا في ذلك اليوم، فقد زالت العقبة الأولى في الحصول على عمل، أما عن شراء مسكن للزوجية فقد أخبرتني زوجة عمي أنه لا داعي له، فالبيت كبير وبإمكاننا مشاركتهم إياه. أخيرًا فاحت رائحة الفرح في أرجاء المكان الذي ساده الحزن لسنوات طويلة وكأن زوجة عمي كانت تنتظر أن يطرق الفرح بابها لتعد له مائدة تليق به. خبزت الفطائر والحلوى وصنعت شرابًا من الفواكه والورود وأخذت توزعه على ما تبقى من جيرانها، وبين وقت وآخر تزفر بحسرة وتقول لابنتها:

في زمن آخر كنا ذهبنا بك للحمام مع نساء الحي وسط قرع الدف وزغاريد النسوة، ولكن حتى الحمامات الشعبية المتنفس الوحيد لنساء هذه المدينة أمروا بإغلاقها فهم يريدوننا أن نعيش في كمد وحزن.

وبالرغم من ذلك رفضت هذه المرأة أن تفوت أيًّا من طقوس الفرح التي وعت ونضجت عليها فضربت بالقوانين عرض الحائط ودعت النسوة لإحياء طقوس الحمام في بيتها، فأحضرت لوفًا وصابونًا وعجنت الحناء بزيت اللوز والمسك ووضعتها في سطل نحاسي كبير ليكفي جميع النسوة. ذبحت ديوكها الرومية ووضعتها في القدور الكبيرة، وأشعلت المواقد وجاءت نساء الحي بما لذ وطاب من صنع أيديهن وبعض من الهدايا.

وقفت عائشة عارية كريشة في مهب الريح بين يدي البلانة التي أخذت في فك جدائل شعرها الواحدة بعد الأخرى. شعرها الكستنائي الذي تخطى ردفيها. ها هو للمرة الأولى ينحل من عقده ويطوق ظهرها وخصرها. وحان أن يعلن عن فرحه. بدأت المرأة في نزع شعر جسمها صاحت عائشة متألمة ثم سريعًا استسلمت ليد المرأة التى أخذت تسكب الماء الساخن رأسها بينما يعلو صوتها بأغاني الفرح. دلكت لها أمها جسدها بزيت اللوز وعطرتها بالمسك والعنبر فكانت كالملاك كلما مرت فاحت منها الروائح الطيبة، وأخيرًا ارتدت ثوب زفافها الحريري الذي غزلت خيوطه بنفسها وطرزته بفصوص من اللؤلؤ وخرج النجف. كان وجهها مبتسمًا وعيناها تبرقان بوميض من السعادة المقبلة عليها. سعادة لطالما قضت وقتها في انتظارها منذ أن كانت طفلة التاسعة التي تعلقت بصبي يتيم يشغل حجرة بسيطة ملحقة بحديقة منزلهم. كانت هي من تهتم به، تنظف له حجرته وتغسل له ملابسه وتنتظره كل ليلة لتقدم له وجبة العشاء الساخنة.

تركت النسوة بالدار يجهزن عائشة لزفافها وذهبت للمزين حتى أقص شعري وأهذب من ذقني، أخبرته أنها ليلة زفافي فابتهج وأغلق باب دكانه علينا وطلب أن أهبط معه درجًا حلزونيًا مخفيًا وراء جدار، من يراها لا يشك أبدًا أنها باب يفتح ويغلق. هبطنا عدة درجات ثم مشينا في ممر ضيق وطويل، قادنا لبركة من المياه يوضع تحتها أهزيج كبير لتسخينه، بينما هناك غرفتان فقط للاستعمال وأغلقت بقية الغرف.

أجاب المزين عن تساؤل لم أسأله:

- هذا حمام أبي الذي ورثه أبًا عن جد، بعد أن جاء أمر إغلاق الحمامات، رفض أبي إغلاقه واضطررنا إلى أن نقوم بتلك الخدعة. أخبرنا عددا قليلًا من الزبائن الذين نثق بهم، يأتون إلى هنا بحجة أنهم يريدون حلق شعورهم ويتسللون للداخل، لو لم تخبرني أن عرسك اليوم لما كنت أطلعتك على هذا السر، يعز على أن يكون اليوم هو زفافك ولا تتحمم حمام العمر.

ابتسمت في وجه الشاب الذي حافظ على إرث أبيه وأجداده ضاربًا بقوانين القشتاليين عرض الحائط.

- اليوم زفاف هذا الرجل الذي من الواضح أنه ليس له أهل ولا سند، دعونا نحتفل به.

صاح يخبر الرجال الذين يشغلون المكان، كانوا بأعمار متفاوتة، هناك من كان يستحم، وهناك من سلم نفسه ليد المدلك، ومنهم من كان يجلس مهمومًا محسورًا، ولكن عندما سمعوا خبر زفافي لم يتوانوا عن المباركة لي وتهنئتي.

استسلمت ليد الرجل الذي يقوم بجميع أعمال الحمام من نظافته، لتكييس وتدليك الزبائن. قام أولًا بفرك جسدي بلوفة خشنة بقوة ثم طلب مني أن أغتسل في البركة وأخيرًا قام بتدليكي لأشعر بعدها بأني استعدت قوتي وشبابي. جلب الرجل الدف الذي كان يستعمل في وقت سابق في إقامة الحفلات وقام بالدق عليه بنظام وحرفية، ثم غنى أحد الرجال بصوت شجي بينما الآخرون أخذوا في التصفيق بإيقاع منتظم، سحبني المزين من يدي لأشاركه الرقص فقمت معه. شرعت ذراعي، شددت قامتي ورفعت قدمي عن الأرض وأخذت في الدوران مرات ومرات وأنا أدق الأرض بقدمي. أعلو وأهبط، ألف وأدور وأرقص وأرقص على أنغام الدف وغناء الرجل وإيقاع تصفيقهم القوي، ويدور الزمن بي وتدور الوجوه معي وأبكي وأبكي وأنتحب.

***

هنأتهم الإذاعة الداخلية بسلامة الوصول لمطار وروث الدولي وأعلنت أن درجة حرارة الطقس 40 درجة مئوية ونسبة الرطوبة 70 بالمائة والساعة الواحدة وخمس عشرة دقيقة ظهرًا. في هذه المهمة لم يخطط لشيء مقارنة بمهاممه السابقة التي كان كل شيء بها منظمًا لأقصى درجة. في هذه المرة أَوْكَلَ كل شيء للقدر.

أنهى إجراءات الوصول واستقل "تاكسي". تردد في البدء عندما سأله السائق لأين؟ فهو تحديدًا لم يكن يعرف وجهته. طلب منه أن يأخذه لفندق في وسط المدينة.

فنادق تلك المنطقة باهظ الثمن. هناك إن شئت فنادق أخرى أقل تكلفة ولكنها تبعد بعدة كيلومترات.

- لا بأس. دعنا في الفندق باهظ الثمن.

وهو يراقب الطريق من نافذة السيارة بدت له المناظر كما شاهدها في أفلام رعاة البقر الأمريكية. مساحات شاسعة من الحقول على جانبي الطريق. تخيل مطاردة ما في هذا الحقل الفسيح ما بين مجموعات من الكاوبوي يجلسون فوق ظهور الخيل بستراتهم الجلدية وأحذيتهم ذات الرقبة العالية ويضعون قبعاتهم الشهيرة ويرفعون مسدساتهم في الهواء. لم يصادف كاوبوي بعد، ولكن كل شيء بهذه المدينة يشي بهم. وخاصة تلك الإعلانات والملصقات التي تزدحم بها الشوارع والطرقات بمنتجات ومتاجر وعلامات تجارية تحمل اسم الكاوبوي وتتخذه شعارًا لها.

أخيرًا قد وصل الفندق بعد رحلة شاقة ومتعبة، وقف بجسده تحت الماء الدافئ لينفض عنه عناء السفر ثم رقد منهكًا على الفراش. حاول أن يجد مبررًا ليكون هذا الفندق غالي الثمن فكل شيء به كان عاديًا وغير متكلف. ذبابات من السعادة تحلق في أنحاء روحه أخيرًا، وقد استطاع أن يكون قاب فوسين أو أدنى من الرجل الذي قتل عائلته، وهو الذي ظل ينتقم منه في كل الأرواح التي أخذ في زهقها، واليوم ها هو بشحمه ولحمه والأهم منهما كانت روحه على بعد خطوات قليلة منه. استسلم لغفوة سريعة استيقظ منها فزعًا كمن فاته موعد امتحانه أو موعد هام سيقرر مصيره حيث لا وقت للنوم. ارتدى ملابسه على عجل وذهب. طلب من إدارة الفندق أن توفر سيارة خاصة له فوعده الموظف أنها ستكون جاهزة بعد عدة ساعات.

ثم سأله الموظف:

- الآن يمكنكك استخدام ليموزين الفندق؟

هز رأسه نافيًا.

- لا، أفضل التريض.

الساعة قاربت على الخامسة عصرًا. المدينة منظمة وهادئة كما لو أنها تغط في قيلولتها. حرارة الجو مرتفعة والرطوبة عالية فزاد ذلك من إحساسه بالاختناق. دخل أول كشك للهاتف صادفه،

واتصل بالدليل وطلب منه رقم هاتف وعنوان كريس كايل. لحظات قليلة والرقم والعنوان دونا في مفكرته الصغيرة. استقل بعدها "تاكسي" وطلب منه أن يأخذه للعنوان الذي حصل عليه.

يقع المنزل على أطراف المدينة في تجمع سكني خاص محاط بسياج عالٍ وله بوابة دخول خاصة، ومن الواضح أن أثرياء المدينة يقطنون فيه لما يتمتع به من خصوصية ورفاهية.

كان يتخفى تحت نظارات شمسية وكاب من الجينز، يضع في أذنيه سماعات مشغل الموسيقى وينطلق بسرعة، وساعده في ذلك الحذاء الكاوتش الذي كان يرتديه ، مظهره لم يكن يوحي سوى أنه أحد المتسكعين.

وكعادته كان يستمع لسيمفونية الفصول الأربعة التي يحتفظ بها على جهازه المحمول للموسيقار الإيطالي فيفالدي، فقد كانت ونسًا له في كل مهامه. ألف فيفالدي تلك السيمفونية عام 1723، وتنقسم لأربعة مقاطع كل مقطع لفصل معين. وتحاكي تلك المقطوعة عوامل الطبيعة المختلفة مثل نسمات الهواء والرياح الشديدة والعواصف. لم يكن من عشاق الموسيقى الكلاسيكية ولم يحبها يومًا، ولكن مصادفة قادته للاستماع لموسيقى انطونيو فيفالدي، مصادفة لم ينسها يومًا وكلما اشتغلت الموسيقي بصوت الكامنجات الحزينة هلت عليه هذه الذكرى. سافر للبندقية حيث وكلته المنظمة بمهمة هناك، وفي يوم تنفيذها أبلغته أن المهمة ألغيت. قرر وقتها أن يبدل رحلته من رحلة عمل لأخرى سياحية يتجول في أنحاء المدينة القديمة حتى صادف في طريقه متحف أوفيزي للفنون التشكيلية، كانت مجموعات السياح تحتشد في طوابير طويلة أمامه. شيء ما جذبه ليقف بنهاية الطابور. لم تستهوه اللوحات الفنية؛ لذلك لم يكن يطيل النظر إليها، يمر من أمامها مرور الكرام، ولم يحاول أن يجهد نفسه بتأمل أو بفهم. ينتقل من لوحة لأخرى كما ننتقل من أمام واجهة محل لأخرى، ونحن نتسكع في الشوارع التجارية دون نية للشراء. حتى كانت زاوية منسية في نهاية الردهة وتحت إضاءة خافتة وضعت لوحة صغيرة الحجم قياسًا باللوحات المعروضة بالمتحف. ألوانها باهتة وتحتاج للكثير من الترميم، ومن الواضح أن إدارة المعرض لم تكن تعني بها كما أنها عكس لوحات المتحف لم تستوقف أحدًا أمامها، ربما لحالتها الرديئة أو لعدم شهرة الفنان الذي وقع أول حروف اسمه في ذيل اللوحة بخط يكاد يقرأ. في البدء ألقى نظرة سريعة عليها وأدار ظهره مغادرًا ليجد نفسه يلتفت إليها مجددًا وكأنه انتبه لشيء ما لمحه في الثانية الأخيرة. موضوع اللوحة كان غريبًا حقًا ومثيرًا للدهشة ولا يمكن التقاط تفاصيله من اللمحة الأولى.

كان مشهد اللوحه لقاعة موسيقية تعج بجمهور يجلس في الصفوف ويصغي بانتباه للموسيقى التي تعزفها الأوركسترا. المسرح يتصدر المشهد الأمامي، يقف المايسترو أمام النوتة الموسيقية بينما الأوركسترا تتكون من حوالي عشر فتيات لا يظهر منهن سوى ذيول ثيابهن البيضاء المتدلية وأحذيتهن من قماش الستان اللامع المطرز بالفصوص البراقة ومعقوفة من الأمام على طراز تلك الحقبة الزمنية في حين تنسدل الستارة الحمراء للمسرح وتخفي الجزء الأعلى من الفتيات وتحجب رؤية ملامحهن. اللوحة بشكل عام يسودها إحساس بالحزن وتخيم عليها الكآبة. الألوان مظلمة وباهتة وكأن من رسمها قد سرب كل شحنات الكون السالبة لهذا العمل. دقق النظر في اللافتة الموضوعة أعلى اللوحة مدون الحرف الأول من اسم الفنان وعنوان اللوحة وتاريخ رسمها. أرّخت اللوحة لعام 1707 واختار لها صاحبها عنوان فتيات الرحمة.

إذاً مر على رسم تلك اللوحة أكثر من أربعة قرون وهذا يفسر حالتها المزرية، فمن الواضح أنه لم يجر عليها أي تجديد أو ترميم منذ رسمها، ولكن ما المقصود برسم هذا المشهد الغريب؟ ومن هن فتيات الرحمة؟ وهل كان لهن وجود حقًا في زمن سابق؟ أم اللوحة من وحي خيال الفنان؟ ذهبت وجاءت به الأسئلة واستغرب أن مجرد لوحة قد أثارت انتباهه لهذا الحد وفجرت فيه كل هذه التساؤلات. ذهب لمكتب الاستقبال الواقع في بهو المتحف. استقبله الموظف السمين بابتسامة واسعة ووقف لمصافحته. أخبره إياد بأن هناك لوحة يريد الاستفسار عنها، ودون أن يسأله عن أي تفاصيل رفع سماعة الهاتف واتصل برقم وبعدما أنهى مكالمته أخبره:

- أمينة المتحف ستكون هنا خلال دقائق لتجيب لك على كل تساؤلاتك.

في حين كان يجلس في انتظار سيدة في أرذل العمر تعقد شعرها الرمادي لأعلى وتضع على عينيها نظارات بعدسات مقعرة وبهيئة كلاسيكية قديمة خابت توقعاته عندما اقتربت منه امرأة جميلة مفعمة بالحياة والحيوية، تمتلك جاذبية إيطالية وقوامًا شهيًا بابتسامة ساحرة صافحته وعرفته بنفسها:

- فرانشيسكا، أمينة المتحف وأستاذة تاريخ الفن بكلية فلورنسا للفنون الجميلة. كيف يمكنني مساعدتك؟

المفاجأة أخرسته وألجمت تفكيره حتى أنه نسي ما الذي كان يريده. لاحظت هي ذلك فابتسمت قائلة:

- أي لوحة تحديدًا هي التي شدت انتباهك؟

بدون أن يجيبها قاد خطاها لهناك وأمام لوحة فتيات الرحمة توقفا. لمعت عيناها السوداء الواسعة ببريق الدهشة وهي تخبره:

- غالبًا نحن نتطابق في المزاج فهي من أحب اللوحات لي. منذ عملي هنا لم تستوقف سوى القليل من الناس لا يتعدى عددهم أصابع اليد الواحدة بالرغم من جمالها حتى أني أعتبرها أجمل مقتنيات المتحف.

ثم أخذت تتأمل في اللوحة وكأنها تشاهدها للمرة الأولى، في البدء أخذت تشرح له شرحًا أكاديميًا عن الألوان وضربات الفرشاة والمتيفات وما إلى ذلك.

ابتسم هو.

- عذرًا، ولكن كل ما يهمني هو أن أعرف لماذا يسدل الستار عن النصف العلوي للفتيات ويخفي وجوههن!

أشارت بيدها على المايسترو وسألته:

- أتعرف من هو؟

ابتسم..

- مؤكد لا.

- حسنًا هذا الموسيقار الإيطالي أنطونيو فيفالدي.

في الغالب كانت تنتظر منه أن يندهش عند سماع الاسم ولكنه لم يبد أي اندهاشة وكأنه لم يسمع هذا الاسم من قبل وحقًا كان ذلك.

- إنه مؤلف ايطالي وعازف كمان شهير ألف حوالي اربعمائة سيمفونية واشهرها هي (الفصول الأربعة)

ثم أشارت بيدها في الهواء على صوت الموسيقى الذي ينبعث في أنحاء المكان.

- أنصت.. إنها هي ذات المقطوعة، الذي لا يعرفه الكثيرون عن فيفالدي أنه بدأ حياته كراهب ولكنه مع الوقت شعر بالضجر من ذلك فترك الرهبنة وعمل في مشفى الرحمة وهو مركز ينظم حلقات موسيقية للأطفال اليتامى كمعلم لآلة الكمان. في عام 1705 كلف بتعليم الفتيات وتلقينهن أصول عزف وأداء الكونشرتو. كون فرقة تسمى "فتيات الرحمة" وهي فرقة من الفتيات الموهوبات ولكن للأسف أصبن في طفولتهن بالجدري لانتشاره في البلاد وقتها، شفين منه ولكن للأسف ترك المرض على وجوههن التي أصبحت مشوهة بشدة؛ لذلك لم يجد الموسيقار وسيلة أخرى ليقدم بها هؤلاء الفتيات الموهوبات للجمهور إلا من خلف الستار.

- يا الله، وأي ظلم هذا!

- ظلم!

- نعم ظلم. يكفي أنهن لم يشاهدن الجمهور وهو يصفق لهن تحية على هذه الموهبة وأيضًا سلبت منهن متعة التفاعل ما بين الفنان والجمهور.

- عذرًا لا أوافقك الرأي. هؤلاء الفتيات كن مشوهات بشكل كبير ومؤكد سيخلف هذا شعورًا بالاستياء لدى الجمهور ووقتها لن يحدث تجاوب من أي نوع، بل من الجائز جدًا أن الجمهور يغادر القاعة.

- وأي خواء هذا!

- لا تنس أيضًا جمهور هذا النوع من الموسيقى في هذه الفترة الزمنية، هم علية القوم من الأمراء والنبلاء وهذه الطبقة الأرستقراطية لا تتقبل القبح نهائيًا.

- ولكن موهبتهم كانت قادرة أن تحول القبح إلى الجمال!

عندما يئست منه:

- عليك إذًا أن تركب آلة الزمن وتذهب لتقنعهم بذلك، ربما تفلح!

- من الواضح أيضًا أن هذا كان رأي الفنان الذي رسم اللوحة؟

لليوم لم يعرف خبراء الفن من الفنان الذي رسم اللوحة، وقد كان أمر اكتشافها غاية في الغرابة. اكتشفت صدفة أثناء الحرب العالمية الثانية. كان منزل الموسيقار فيفالدي قد تحول لمتحف يضم مقتنياته و أصابته قذيفة أثناء الحرب حطمت جزءًا كبيرًا منه، ليكتشفوا أثناء عملية ترميمه هذه اللوحة بقبو المنزل مخبأة هناك. على أي حال يرجح الكثيرون من مؤرخي الفن أن تكون اللوحة من رسم الموسيقار نفسه، فهي تفتقر إلى الموهبة وهذا واضح جدًا في توزيع الإضاءة وضربات الفرشاة وكأن من رسمها لم يكن يعنيه إلا أن يوثق بها حدثًا ما ويخلده للزمن. كما أن الحروف التي اكتفى الفنان أن يوقع بها هما الحرفان الأولان من اسم الموسيقار. على أي حال، لولا اكتشاف تلك اللوحة لظلت مجموعة فتيات الرحمة في طي الكتمان فقد عانى خبراء الموسيقى والفن حتى توصلوا لمعرفة هوية هؤلاء الفتيات.

قالتها وابتسمت وهي تسأله:

- هل هناك لوحة أخرى تريد أن تستفسر عنها؟

- لا، شكرًا.

عندما همت بالمغادرة استوقفها قائلًا:

- هل تشاركينني الاحتفال بفتيات الرحمة؟

اتسعت عيناها دهشة فأضاف.

- دعينا نحتفل بموهبتهن ونرد لهن جميل إبداعهن ونطرقع الكئوس في نخبهن.

ابتسمت. ولم ينس أبدًا هذه الليلة التي قضاها بصحبة فرانشيسكا.

ومن يومها كانت موسيقى فيفالدي هي رفيقة دربه في لحظات صحوه ونومه وفي لحظات سكونه وجنونه.. وأيضًا في لحظات قتله.

- ولكن هل يعقل أن النوع من الموسيقى الراقية يجذب قاتلًا محترفًا؟

دهس تبغه بحذائه الكاوتش وهو يتساءل ويجيب على نفسه:

- ولم لا؟ أكثر رجال الحروب وحشية كان يميل بعضهم لأكثر الفنون رقيًا والبعض الآخر كان يمارسها. نابليون بونابرت أثناء اجتماعه مع قادة الجيش لترتيب الخطط الحربية كانت يده تنبش بكلمات الغزل والغرام لزوجته جوزفين وبعد موته جمعت تلك الرسائل ونشرت في كتاب يعد الأكثر شهرة لرسائل الحب في العالم. الرجال الذين أشعلوا العالم بالحرب العالمية الثانية هم أنفسهم كانوا يجلسون ليطفئوا نارهم بالألوان المائية "ثيودور – تشرشل – روزفلت". نيرون كان يتجول في أنحاء قصره ويعلو صوته بالغناء ليقينه أنه لو لم يكن إمبراطورًا فسيكون مغني أوبرا محترفًا. هتلر وصل له خبر وجود الحلفاء على أبواب ألمانيا، بينما كان في مناقشة حامية حول

الرسم والموسيقى، وتعج الخزائن الأمريكية السرية بلوحات من توقيعه ترفض أمريكا تسليمها لورثته، حتى تنفي عنه أنه كان يومًا مبدعًا أو رسامًا، وفي سيرته الذاتية التي دونها بكتاب "كفاحي" كان أسلوبه الأدبي مميزًا، ولولا الحرب القتالية التي خاضها لربما كان اليوم أديبًا شهيرًا. وفي عالمنا العربي ألف صدام حسين روايته الرومانسية "زبيبة والملك" وأجاد تفاصيلها تمامًا كما كان يجيد حبك خطط القتل. والقذافي الذي كثيرًا ما أبكى العالم وأضحكه، ألم يؤلف كتابًا في الفلسفة أطلق عليه الكتاب الأخضر ليتناوب عليه تارة لقب الرئيس وتارة لقب الفيلسوف. وكأن هناك صلة خفية ما بين الشر والإبداع عند هؤلاء، فكلما توغلوا أكثر في شرورهم تفانوا في إظهار حسهم الإبداعي ليصنع هذا التوازن داخل نفسه البشرية ويقنعها ولو كذبًا أنه إنسان يملك بعضًا من الحس والشعور.

قهقه قائلًا:

- وبذلك لا يضر أن تقتل وأن تستمع لموسيقى فيفالدي!

***

ظل يبحث في أرقام المنازل حتى وجد الرقم المدون في مفكرته منزل من طابقين يحيط به سياج حديدي عال يمنع رؤية الفناء ، ويغطي الدور الأرضي منه أشجار الحديقة المتلاحمة الأغصان و في الدور العلوي كانت النوافذ جميعها مغلقة. البناء الهندسي للمكان يشي بجمود صاحبه وغلاظة طباعه، لم يكن به أي حس فني بقدر ما كان قطعة صلبة من الأسمنت شكلت لتكون بيتًا بأضلاع وزوايا حادة، وتساءل هل البيوت أيضًا تشبه أصحابها؟ فجأة فتح باب الجراج إلكترونيًا وخرجت منه عربة سوداء ماركة شيفروليه رباعية الدفع، تقودها امرأة في منتصف عمرها تقريبًا، لينغلق مرة أخرى الباب بعد مرور السيارة مسرعة، في هذه الأثناء كان إياد يقف متخليًا عن حذره ومتسمرًا أمام منزل الرجل الذي طالما بحث عنه فارتبك عند مرور السيارة وحتى لا يلاحظه احد انحنى يعقد رباط حذائه. وبحذر رفع بصره ليشاهد امرأة جميلة، ملامحها ليست أمريكية، ذهبية البشرة وبشعر أسود غجري وطويل، كانت تشبه بطلات المسلسلات المكسيكية التي كانت تعرض على شاشة التلفزيون مدبلجة بالعربية الفصحى والتى كانت امه تهوى مشاهدتها .

أخذ يسير على طول الأرصفة في ذلك المكان المنعزل، يسوده شعور بالقلق و الكآبة. الغابة المحاط بها المكان، الشوارع المقفرة، البنايات المعتمة. حدث نفسه "لا داعي للقلق، عليك فقط أن تختبئ في هذا الحي لتكون على مقربة من هدفك". فجأة ساوره شعور بالتعب، كما أنه كان يتضور جوعًا فعاد أدراجه مرة أخرى.

دخل يتناول البيتزا وأفكاره مشتتة ما بين أن يدخل وينقض على جميع من بالبيت ويردهم قتلى كما فعل كريس في زمن سابق وبين الاكتفاء به وحده، وعلى أي حال لم يستطع أن يمسك بفكرة واحدة.

في اليوم التالي أخبره الموظف أن إدارة الفندق وفرت له سيارة بتقنية الجي بي إس حتى يتسنى له أن يعرف الطرقات. كل ما عليه أن ينطق باسم الطريق حتى يطلعه صوت ناعم لسيدة وعلى وجهته. تمام الثالثة ظهرًا كان يقف بالقرب من المنزل تحت ظل شجرة وافرة الأوراق تخفيه، وبإمكانه من هذا المكان أن يكشف المنزل بوضوح.

اعتاد على الصمود فترات طويلة يراقب هدفه، فلم يشعر بملل وخاصة أن هذه المرة الهدف ليس كأي هدف. توقف أتوبيس مدرسة ونزل منه طفلان لوَّحا لأصدقائهما داخل الأتوبيس، ثم ضغط الولد كودًا سريًا على شاشة إلكترونية وبعد ثوان فتح الباب. مؤكدًا أن الهدف يستعين بجهاز أمني عالي الجودة وفائق التقنية فهو من أكبر قناصي العالم صيتًا. في الظاهر هو يعمل في الجيش الأمريكي ومؤكد هناك أعمال أخرى أكثر تسترًا، هذه الأعمال التي يلجأ أصحابها لرجال على قدر كبير من الحنكة والمهارة ليخلصوهم من أشخاص محددة ومن أجل هذا لا يترددون أن يدفعوا مبالغ كبيرة مجرد ذكر أرقامها كاف لأن يوقف قلب أحد.

الحي الذي يسكنه وأنواع السيارات المتراصة في جراج المنزل، كل ذلك يشي بثراء فاحش، ثراء صعب أن يكون قد حصل عليه فقط من وظيفته في الجيش الأمريكي! فجأة ظهرت عربة سوداء

رباعية ونزل سائقها منها ليضغط كود فتح البوابة وبمجرد أن رآه عرفه. إنه هو بجسده مفتول العضلات وخطوته المنفرجة والثقيلة ولكأنما صاحبها في طريقة للانقضاض على فريسته. بشعر أشقر مائل للأحمر وبشرة بيضاء يكسوها النمش وشارب ولحية شقراء. لا يعرف وقتها ما الذي حدث له، فما إن رآه حتى زادت ضربات قلبه وشعر بضيق في التنفس وشعور بالغيظ الشديد تملك منه. تمنى أن يهرع نحوه ويظل يصوب له اللكمات حتى يقضي عليه ضربًا. ثوان معدودة وبلع مدخل الجراج السيارة ليوصد الباب مرة أخرى. اكتفى بهذه المعلومات التي حصل عليها اليوم من مراقبته وقرر أن يرجع أدراجه.

كان يتوجب عليه أن يعبر الطريق للضفة الأخرى حيث بوابة الخروج، وأثناء ذلك مرت سيارة بسرعة مفرطة كانت على وشك أن تصطدم به، لولا كبح سائقها المكابح في الوقت المناسب. دوى صوت احتكاك المكابح بشدة على الأسفلت وتوقفت السيارة. كانت هي المرأة التي شاهدها بالأمس، ترجلت بعصبية من السيارة واتجهت إليه وصاحت به قائلة:

- ألا يمكنك حتى النزول للاعتذار! ألم تتخيل مدى الكارثة التي كانت سوف تحدث لو لم أنتبه لك في الثانية الأخيرة؟!

دومًا يراقب ضحيته ويقوم بمهمته بالغموض الضبابي ذاته الذي يأتي ويذهب به، ولكن تلك السيدة لم تكن لتسكت وربما تقوم بالاتصال بالشرطة؛ لذلك غادر سيارته ببطء وثقة.

- أعتذر لك. على أي حال لم يحدث مكروه.

بينما واصلت هي الحديث بصوت حاد:

- ولكن كان سوف يحدث.

أجابها بهدوء

- ولكنه لم يحدث!

كان يخفي وجهه تحت النظارة الشمسية والكاب يغطي رأسه فنظرت له بريبة:

- ولكن من أنت؟ هذه المرة الأولى التي أراك في الحي. هل أنت في زيارة لأحد؟

- وهل يعقل أنك تعرفين كل سكان الحي وأقربائهم وأصدقائهم؟!

كان لها عيون كبيرة بلون العسل تتكاثف حولها الرموش، وشعرها الممدوج يتطاير يمنة ويسرة اجابته بنبرة تسودها الثقة والدلال

- غالبًا.

- حسنًا. أنت على حق تلك المرة الأولى التي أزور فيها هذا المكان، لقد انتقلت للمدينة قريبًا وكنت أبحث عن شقة للإيجار وأعجبني هذا الحي الهادئ، أيكفيك هذا؟!

وقتها تبدلت ملامحها وابتسمت وهي تخبره:

- حقًا. أهلًا وسهلًا.

واقتربت تصافحه وهي تعرفُّه بنفسها قائلة:

- السيدة مونيكا كايل.

- أنطونيو بلادينو.

- ومن أي بلد أنت؟ انتظر دعني أخمن. ربما أنت إسباني.. إيطالي؟

- أصبت ، أنا إيطالي.

- بسهولة يمكنني اكتشاف ذلك. لكنتك الإنجليزية غريبة نوعًا ما، هكذا الإيطاليون عندما يتحدثون الإنجليزية. على أي حال أملك شركة عقارات يمكنك أن تقول هي الأشهر في المدينة، وأستطيع أن أوفر لك طلبك، عليك فقط أن تخبرني به.

ثم ذهبت إلى السيارة وأحضرت بطاقة شخصية من حقيبتها وناولتها له وهي تقول:

- إذا احتجت منزلًا فلا تتردد، اتصل بي، وسألبي لك طلبك على الفور.

سحب البطاقة من يديها وابتسم وهو يخبرها:

- سوف أفعل.

- إلى اللقاء.

- إلى اللقاء.

جلس ينفث من تبغه في أحد المقاهي التي تطل على ساحة واسعة، وهو يتابع الطيور التي تحتشد عند النافورة بالميدان ويفكر، ترى هل خيبت تلك السيدة خططه بظهورها فجأة وتعرفها عليه؟ أم أنها قد سهلت عليه المهمة؟ فمن خلالها يمكنه معرفة الكثير عن هدفه، ولكن منذ متى وهو يظهر لأحد؟! عليه تقبل الامر فهذه العملية مختلفة عن كل عملياته السابقة، و هدفه مختلف، إنها محطته الأخيرة بالرغم من أنه كان من المفروض أن يكون هو محطته الأولى. كل المحطات التي ساقه قدره إليها كانت في رحلة الوصول لهذا الرجل لا أكثر. ظل دومًا يساوره شعور كما أنه يترقب وصول شخص ما بمحطة القطار يقف يطالع الوجوه التي تمر أمامه، يتناقص عددهم واحدًا وراء الآخر فينتابه شعور بأنه لم يحضر أبدًا، وها هو فجأة يطل عليه من المقطورة الأخيرة من القطار. إذًا سيستغل تلك الفرصة التي جاءت له على بساط سحري تشبه هذه المرأة في سحرها الغامض ، هذه المرأة التى صوبت كلماتها بسرعة وعصبية كمن تصوب رصاصتها الواحدة تلو الأخرى وسرعان ما تبدل كل ذلك لضحكة ممتلئة بالأنوثة والدلال وهي تقول:

- حقًّا.

يا لها من امرأة تتقن جميع الأدوار مرة واحدة! جمالها يكمن في أنها تبدو ممكنة وطيبة، وما هي إلا صعبة ومغرية. لا يعرف لماذا قاده تخيله إلى هناك على فراش يجمعها مع زوجها؟ وفكر كيف أنه لا يناسبها، مثل تلك النمرة لا يلزمها قناص تعود أن ينقض ضحيته من مسافة وعلى عجل، هي تحتاج لصياد ماهر يجيد فن الترويض فيروضها مسبقًا ثم يقوم بقنصها ببطء وتروٍّ.

أخرج بطاقتها من محفظته وما إن أمسكها حتى هل عطرها عليه فابتسم. قرأ ما دون عليها من بيانات، "مونيكا" اسم يشبهها في موسيقاه ومن الواضح أن شركتها كما قالت من أكبر شركات العقارات في المدينة، فقط دون على البطاقة خمسة عناوين مختلفة للفروع المنتشرة في جميع أنحائها. دفع الحساب ووضع البطاقة في جيبه ومضى.

تأنق في هذا الصباح وقام بالاتصال بها، أخبرته مديرة مكتبها أنها في اجتماع سوف ينتهي خلال نصف الساعة، وستعاود الاتصال به حينها.

رن هاتفه المحمول وجاءه صوتها المدلل.

- من المتحدث؟

- أهلًا مسز مونيكا. أنا الشخص الذي كان سوف يتسبب بالأمس في كارثة لا تحمد عقباها.

رنت ضحكتها في أذنه.

- أهلًا.. كيف حالك؟

- أريد مقابلتك لنتحدث بأمر المنزل.

- حسنًا مستر أنطونيو، ولكن هذا الأمر ليس من اختصاصي، سوف أدلك على أكفأ موظف بالشركة، وأعدك أنه سوف يقوم باللازم.

- ولكن اسمحي لي بالمرور على مكتبك لإلقاء التحية والاعتذار عما بدر مني أمس.

- إن كان مرورك لإلقاء التحية فأهلًا وسهلًا بك، أما إن كان للاعتذار فلا تشغل بالك، فقد نسيت ما حدث.

- حسنًا لنجعل مروري لإلقاء التحية.

- وأنا في انتظارك. كم يلزمك من وقت لتأتي؟ فجدولي اليوم مزدحم.

- في الحقيقة أنا لا أعرف المسافة من الفندق الذي أقيم فيه لشركتك حتى أني أجهل أين تقع؟

- لا تقلق فأنت في الجوار. شارع واحد ستقطعه يمكنك أن تصل في غضون ربع ساعة على أقصى تقدير.

***

كان يتحايل على نفسه وعليها وعلى الظروف لمقابلتها، وربما تلك كانت الخطوة الأولى في ترويض تلك النمرة. فكر أن يصطحب معه باقة من الزهور، ولكن هل لنمرة شرسة مثلها أن تعجبها باقة من الزهور؟ سيكون من اللائق أكثر أن يهديها غزالًا صغيرًا تتسلى بمطاردتها له. وحيث إن الوقت والمكان لن يسعفاه لجلب ذلك الغزال فسيختار لها باقة من الزهور. ذهب لمركز تجاري كان قد تناول طعامه في أحد مطاعمه بالأمس وأثناء تجوله لفت نظره متجر للزهور، يعرض نوعًا من الزهور الغريبة لم يكن قد رأى مثلها مسبقًا. صاحبة المكان على دراية كبيرة بأنواع الزهور المختلفة ولم تستغرب عندما طلب منها نوعًا مختلفًا ليقدمه لامرأة مختلفة الطباع. تملك ما يكفي من الأنوثة والإغراء؛ في المقابل هي على قدر كبير من الشراسة. ابتسمت السيدة وقدمت له زهرة برية وأخبرته أنها هجين من زهور متنافرة تنتج هذه الزهرة الوحشية والنادرة، ومؤكد سوف تروق لهذه الشخصية التي وصفها لها.

وصل لناطحة سحاب تشغل شركتها أحد طوابقها.كان المكان مزدحم ويعج بالموظفين والزبائن والحركة فيه لا تتوقف.

استقبلته مديرة مكتبها الزنجية بدهشة، وأطالت النظر لباقة الزهور بيده. أخذت في تأمله من شعره لأخمص قدمه ثم رفعت سماعة الهاتف وهي تسأله عن اسمه. رددته بعدها ببطء وكأنها تنطق كل حرف فيه على حدة وتظهر علامات الاستغراب على وجهها. أخبرت رئيستها على الهاتف أن مستر أنطونيو يريد مقابلتها، ولحظات قليلة كانت تسبقه بخطواتها العسكرية تقود خطاه لمكتبها، فلاحظ أردافها الممتلئة وهي تهتز خلفها في جونلتها الواسعة.

استقبله بريق عينيها الذي ومض بمجرد رؤيته. كانت جميلة وتبدو أكثر وقارًا في الملابس الكلاسيكية التي ترتديها وأكثر إغراء وهي ترفع شعرها وتعقده في شكل ذيل حصان تنثر بعضًا من خصلاته على جبهتها، بينما يتدلى قرطها الماسي من أذنيها فيزيد من فتنتها. قدم لها باقة الزهور. اندهشت وسألته:

- ما أجملها! ولكن ما نوع تلك الزهرة؟ للمرة الأولى أشاهدها.

- هي هجين من مجموعة من الأزهار المتنافرة نتج عنه هذا النوع النادر، وأرى أنها الزهرة الأنسب لك؛ لأنها تشبهك كثيرًا.

- يا لرومانسية الرجل الإيطالي! تعرف.. لطالما حلمت أن أرتبط بإيطالي.

ثم ضحكت فظهرت كم تملك شفاهًا مغرية. تركت مكتبها وذهبت بباقة الزهور إلى طاولة بمنتصف الغرفة حولها أريكة على طراز أمريكي ومقعدان. جلست على الأريكة وانشغلت برص الزهور في المزهرية ثم قالت، وكأنها انتبهت لوجوده:

- تعال لنجلس هنا.

جلس في مقابلتها تمامًا يتأملها. تنورتها القصيرة تظهر جمال ساقيها.. وتبرز مقدمة صدرها من فتحة قميصها الأبيض الذي تركت زره الأول مواربًا ثم وبحركة سريعة فكت ربطة شعرها ونثرته حولها لتضخ جمالًا وأنوثة. هذه الأنوثة التي تفرض نفسها عليك مهما حاولت أن تدعي أنك غير مبال. أنوثة غير متكلفة خلقت مع الأنثى ولم تسع أو تبحث عنها في عيادات وصالونات التجميل، إنها الفطرة الأنثوية في الحركات والسكنات. وكان لأنوثتها عطر فواح وها هو يطغى على كل العطور بالغرفة ويتسلل ببطء إليه ويتمكن منه.

- ما أقوى عطرك سيدتي!

لم تفهم ما يقصد. نثرت شعرها بدلال من على كتفها وأجابته بثقة:

- Very Sexy by Victoria Secret.

ابتسم، حتى في اختيارها العطر اختارت عطرًا يشبهها في اسمه، ذهب تفكيره في اتجاه عائشة الأكثر رقة وبراءة والتي تحرص على وضع العطور بروائح الطبيعة، يتذكر أنه في أحد اللقاءات الأولى من تعارفهما كانت تجلس على مقربة منه وتزكم أنفه رائحة الشاي الأسود فسألها:

- هل تعدين الشاي؟

دخلت وقتها في نوبة من الضحك وأخبرته أن رائحة عطرها مستخلصة من زهرة الشاي الأسود وفي وقت لاحق كانت تضع عطر جيرلان لرائحة الأرض بعد المطر، كل منا يختار عطرًا يشبهه.

برشاقة ذهبت لطاولة في زاوية الغرفة وضع عليها جهاز صنع القهوة، صبت لهما كوبين وسألته:

- حليب.

- لا، أفضلها سادة.

- ولكن أخبرني، ماذا تعمل هنا؟

- أملك توكيلًا لعلامة تجارية كبيرة في الأجهزة الطبية، وأقوم بجولة حول العالم لتسويق الأجهزة للمستشفيات والمراكز الطبية.

- وكم من الوقت ستقضي هنا؟

- لا أعلم تحديدًا، ولكن إقامتى لن تطول.

- ولماذا تريد أن تستأجر منزلًا إذا كانت إقامتك لن تطول؟

- أنوى فتح مقر للشركة هنا بالولاية، وسوف أزور البلد على فترات.

- أنت هنا بمفردك أم مع عائلتك؟

- ليس لى عائلة.

ابتسمت وبغنج سألته:

- كيف تركت الإيطاليات رجلًا بوسامتك يفلت من تحت أيديهن؟

كانت تغازله. عينها تفضحها وتعلن عن رغبتها فيه بصراحة ودون مواربة وربما سربت له بعضًا من تلك الرغبة.

- حسنًا أنطونيو لا تقلق ستحصل على المسكن الذي تحلم به.

توجهت لمكتبها وطلبت رقمًا، وفي أقل من ثوان حضرت الموظفة عرفتها به وأمرتها قائلة:

- اهتمي به ووفري له ما يريده.

انتظرت حتى خرجت الموظفة ثم سألته:

- ما رأيك لو تناولنا العشاء اليوم أم لديك مواعيد؟

- كل المواعيد يمكنها أن تلغي.

ابتسمت.

- في الثامنة في مطعم "روي روجرز" قريب من فندقك بإمكانك الوصول إليه مشيًا. أتمنى ألا تكون نباتيًا لأنه من أشهر مطاعم المدينة في إعداد طبق "الاستيك البقري".

ضحك بصوت عال.

- لا تقلقي أنا من أكثر آكلي اللحوم شراهة على وجه الارض. سأكون هناك في تمام الثامنة.

ابتسم وهو يغمز لها بإحدى عينيه فبادلته الابتسام.

غادر المكان بعدما أعطى للموظفة مواصفات الشقة التي يريدها. طلبت منه أن يمنحها مهلة يومين وسوف توفر له منزلًا مناسبًا. في طريق الرجوع كان مشتتًا في كل الاتجاهات، ظهور هذه المرأة في حياته وعلاقتهما والمهمة التي عليه إنجازها ليعود أدراجه ثانية.

بإمكانه أن ينجز المهمة في أسرع وقت، كل ما يتطلبه الأمر هو مراقبة الهدف عدة أيام، ثم يختار بدقة مكان القنص، ويتخلص منه للأبد، ولكن ثمة شعور مختلف كان يراوده. شعور بأن يقتله عن كثب وجهًا لوجهه وهو يخبره أنه جاءه خصيصًا حتى يثأر لأهله منه وبالرغم من مرور كل تلك السنوات لم ينس أن يثأر لهم ولكل الأبرياء الذين أزهق أرواحهم. ربما هذا الأمريكي لا

يعرف ماذا يعني الثأر عند الصعايدة، ولكن مؤكد وقتها سيعلم هذا. ولذلك ليس هناك أي داعٍ ليشعر بالقلق من علاقته بمونيكا، فهي سوف تصل به لما يطمح له.

في تمام الثامنة كان يجلس على طاولة في المطعم الذي دلته عليه. المكان من حوله صمم على طراز "الكاوبوي" الموسيقى المكسيكية تصدح فيه، صور رعاة البقر معلقة في كل مكان. قبعاتهم وأحذيتهم تزين الحوائط. كل ما بالمكان يحرض على جنون حياة البرية.

ثم طلت. فاح عطر أنوثتها ليطغي على صخب المكان. ترتدي فستانًا قصيرًا بلون جلد النمر، وتطلق شعرها مبعثرًا وراءها. لمحته فسبقت خطواتها النادل الذي كان يقودها لطاولته. مدت يدها لتصافحه فانحنى يقبلها. كان هو أيضًا شديد الوسامة هذا المساء في بذلته الكتانية بلون السماء وقميص أبيض ترك أزراره مفتوحة ليظهر عشب صدره الغزير.

وضع الجرسون قائمة الطعام وابتسم وغادر.

- حدثيني عن نفسك وعن أسرتك، مونيكا لي شوق لأعرف كل شيء عنك؟

لمعت عيناها ببريق الفرح، فها هو رجل شديد الوسامة تكن له الكثير من الإعجاب، يريد أن يعرف عنها كل شيء.

حكت الكثير عن طفولتها وعلاقتها بأبيها وأمها وأخواتها ومقاعد المدرسة وزملاء الدراسة. يظهر أنه ينصت بإصغاء، ولكنه لم ينتبه لكلمة مما قالت، ظل مشتتًا ما بين جمالها الذي كان أكثر ضجيجًا من حديثها ومن عطر أنوثتها الصاخب الذي كان يتحرش به. فكان مشغولًا بهما عنه ولكنه أنتبه جيدًا عندما قالت:

- بعد تخرجي في الجامعة تزوجت من كريس ضابط بالجيش الأمريكي، تعرفت إليه في إحدى الحفلات وانجذب كل منا للآخر وأنجبت طفلين، دونا في الحادية عشرة وجون في التاسعة.

ثم صمتت فحاول أن يغريها بالحكي ليحصل منها على المزيد من المعلومات، مثلما رجل الأمن يحاول أن ينزع منك اعترافًا بينما يظهر متواطئًا معك.

- ولكن لا أتخيل امرأة مثلك زوجة لرجل عسكري!

ضحكت بسخرية قائلة.

- ستندهش أكثر عندما أخبرك أنه "الشيطان الرمادي" أكبر قناص أمريكي في حرب العراق ألم تسمع عنه؟

- لا في الحقيق لم أسمع عنه.

- لقد نشر كتابًا مؤخرًا يحكي السيرة الذاتية لحياته ويوثق فيه عدد الأرواح التي قام بقنصها، وخاصة أن الجيش الأمريكي منحه الكثير من الأوسمة والقلادات العسكرية.

- في الحقيقة لا أستطيع أن أقتنع بأن امرأة مثلك تملك كل هذا القدر من الرقة والنعومة تعاشر قاتلًا محترفًا.

وكأنه أزاح تلك القشرة الجليدية من فوق حافة الذاكرة لتتعمق في ذكرياتها أكثر

- عندما التقينا كان شخصية مرحة وجذابة ولا أخفي عليك أثارتني فيه شجاعته وقوته وبريق بذلته العسكرية أيضًا. الأمور كانت تسير بيننا على ما يرام حتى سافر للعراق وشارك هناك في كل المعارك الرئيسية، واشتهر هناك بمهارته في القنص حتى أن الجيش العراقي وجماعات الجهاد هناك عرضت مكافأة قدرها 20000 دولار لمن يمسك به أو يقتله، تضاعفت بعد ذلك مع تضاعف قتلاه حتى وصلت إلى 80 ألفًا من الدولارات ولكنه كان أمهر أن يمسك به أحد.

أضافت بعد نفس عميق وهى ترج كوب البيرة بيدها:

- بعد انتهاء الحرب ورجوعه للمنزل وكأنهم استبدلوا به شخصًا آخر هناك.. شخصًا حاد الطباع قاسي الملامح. قلما يتحدث ونادرًا ما يضحك. لا أعرف هل القتل والخراب تمكَّنا من روحه؟ أم هو ذنب الأبرياء الذين قتلهم، وقد سلطت أرواحهم عليه لتنتقم منه؟

ثم أخذت من الشراب جرعة كبيرة لتساعدها على بلع ألمها.

- وكيف تتحملين ذلك؟

- لقد زادت بيننا الهوة. أصبحنا قليلًا ما نلتقي، وخاصة بعد أن ترك العسكرية وأنشأ عملًا خاصًا به. مؤسسة "كرافت" ، هي مؤسسة خاصة توفر لروادها تدربيات على الرماية وإطلاق النار، وتقدم خدمات أمنية وحماية خاصة للأفراد والشركات على أعلى المستويات. إضافة لذلك فهو عضو نشط في جمعية "فيتكو" وهي جمعية خيرية أسست مشروعًا يسمى "الأبطال" لتوفير لياقة بدنية منزلية بالمجان. وتعمل على مساعدة قدامى المحاربين ومصابي الحرب، وخاصة الذين يعانون من "فوبيا ما بعد الصدمة" وهي العقدة نفسها التي يعانيها بسبب الأحداث القاسية والمشاهد العنيفة التي تعرض لها هناك، فالكوابيس لم تغادره ليلًا هذا إذا حالفه الحظ ونام!

وضع الجرسون الأطباق التي طلبتها هي بناء على معرفتها السابقة بما يعده هذا المطعم من أكلات. فطلبت لهما ستيكًا مشويًا والذرة المسلوقة، وبطاطس مهروسة، وأضافت – وهي تفرد منشفة الطاولة وتستعد للأكل:

- تخيل عندما قرأت كتابه الذي يحكي فيه سيرته الذاتية وكأني كنت أقرأ قصة حياة شخص آخر. شخص لم اعرفه أو التقيت به يومًا. وأتساءل: هل هو حقًا الانسان الذي أحببته وتزوجته؟

- ألهذه الدرجة؟

رددت بأسى:

- نعم وأكثر.

- يمكنك أن تغضي بصرك عن كل ذلك وتتباهي بأنك زوجة بطل نال أعلى الأسمة.

- أبدًا. هذا الشيء لا يهمني، بالعكس منذ عودته من حرب العراق وقد أصبح شخصًا آخر. ماذا صنعت له بطولاته؟ إنه مصاب بفوبيا ما بعد الصدمة، ومحتشد بالشك والتوجس، لم يعد إنسانًا سويًا على الإطلاق. مهما كان الإنسان قويًا وقاسيًا لا يستطيع عقله أن يغفل مشاهد القتل التي ارتكبها ولا هولاء المساكين الذين وضعهم القدر في طريقه.

دخلت في صمت عميق، ابتسم هو:

- عذرًا، لأن الأمسية أخذت هذا المسار الحزين.

- لا ذنب لك، فالحديث هو الذي ذهب بنا لهناك. لكن أخبرني إلى متى سوف تمكث هنا؟

- حقًا لا أعرف حتى الآن. لكن من الواضح أن أقامتي ستطول بعض الوقت.

قالها بمغزى واضح، فهمته هي، فتبادلا الابتسام.

- وهل أعجبتك المدينة؟

- للاسف حتى الآن لم أتجول فيها، ولكنني من الواضح أني قد وقعت في غرامها، وخاصة تلك الروح المكسكية التي تسكنها وتسكنك. تبدلت نبرة صوتها الحزينة لأخرى أكثر حماسًا وهي تخبره:

- أبي مكسيكي، وجاء هنا منذ صباه. اشتغل في أعمال كثيرة حتى كون ثروة لا بأس بها، وتعرف على أمي وأحبها وتزوجا، لأحضر أن لهذا العالم نصف مكسيكية ونصف أمريكية. لا أستطيع أن أتخلى عن خبز التورتيا وصوص التشيلي الحار.

- منذ أن وقعت عيني عليك وقد خمنت أنك مكسيكية، ملامحك تشي بذلك.

- وإذا تعرفت على أكثر فستتأكد أن ليس ملامحي فقط ولكن طباعي أيضًا. سرب لى أبي عشق كل ما هو مكسيكي.. طعام، موسيقى، أغان، عادات وتقاليد ومؤكد الميزكال.

ثم فجأة تحدثت بالمكسكية وقالت:

- واللغة أيضًا.

- ولكن ما هي الميزا.... هذه؟

ضحكت وكررت الكلمة وراءه ببطء وكأنها تعلمه إياها.

- "الميزكال" إنها نوع من التكيلا المكسيكية تصنع من عصير زهرة الصبار، وتخمر بعد ذلك بأن تدفن تحت الأرض لفترات طويلة. طريقة صنعها طويلة ومتعبة، ولا يجيدها إلا عدد قليل من سكان المكسيك الأصليين، فهي طريقة متوارثة أبا عن جد لعائلة تشتهر بصناعتها، وفي النهاية

جرعة صغيرة منه يمكنها أن تذهب بك لبعيد وتدخلك عوالم التيه واللاعقل فهو مشروب قوي جدا.

في هذا المساء أدار مقطوعة الشتاء من سيمفونية الفصول الأربعة، يأتي صوت عزف الكامنجات فيها كما هو الأنين، ولا يعرف لماذا انتابته مشاعر اشتياق جارفة لعائشة؟ طيفها تلك الليلة لم يغادره. انجذابه تجاه مونيكا ولَّد عنده شعورًا بالذنب من أجلها ، ولكن هو يعلم أن انجذابه لمونيكا غرائزي بحت، فأينما حلت يمكنها أن تشعل فتيل شهوته، طمأن نفسه بأن هذا النوع من الانجذاب لا يلبث أن يزول. عدا ذلك فحبه لعائشة لا يستطيع أحد أن يتقاسمه معه. فهي لم تترك أى مساحة شاغرة في روحه وقلبه يمكن لأحد أن يتسلل منها.

الآن هو يعلم تمامًا أين يقيم الهدف ومكان عمله ومواعيده، لا ينقصه شيء، ليرتب عملية قتله، فجلس يرتب لها على وقع الموسيقى، تعلو فيشدد حماسه وتخفت فيسرح لهناك.

استقبل صباحه برسالة وصلت له على البريد الإلكتروني من عائشة، ما إن سمع رنين جهازه يخبره بها حتى شعر برذاذ من الفرح يغلف روحه، كتبت له إنها اشتاقت له كما لم تشتق من قبل وأنها تحيا على قيد انتظاره. كان رده عليها أشد شوقًا. شوقًا غير متكلف أو مصطنع، لقد كان يشعر بكل كلمة يكتبها.

في الحادية عشرة ظهرًا أخبرته موظفة المكتب بأنها وفرت له عددًا من الشقق مطابقًا لمواصفاته وحددت له موعدًا ليذهب ويلقي نظرة عليها.

اختار منها واحدة على مقربة من مسكن الهدف، تطل إحدى شرفاتها الجانبية عليه وتكشف المدخل والفناء، لذلك لم يتردد في اختيارها. وقع عقدها مع الموظفة بهويته الإيطالية "أنطوينو" وأنهى إقامته في الفندق وانتقل للمكان الجديد.

كانت الشقة تشغل الدور العلوي لبناية من دورين تحيط بها حديقة، فرشت على الطراز الأمريكي، هذا الطراز الذي لا يميل إليه. فلا دفء فيه أو حميمية وخاصة اللوحات التكعيبية المعلقة على الجدارن، ذلك النوع من الفن الذي يكرهه. لم يفهم يومًا أن يرسم فنان لوحة هي اللغز بعينيه، لا دخل لها بفكرة الفنان، فهي تتاح لكل مشاهد أن يفهمها ويفسرها بالطريقة التي تحلو له. لم يكن ذلك غريبًا على نوع من الفنون، وجد نتيجة لحرب عالمية عنيفة أرخت ظلالها على شعوب العالم، ولم يكن بوسع فنان هذا الفترة أن يجلس ليرسم مشهدًا طبيعيًا أو امرأة جميلة وسط كل هذا الخراب الذي يسود الروح، لذلك اتجهت مجموعة من الفنانين إلى إنشاء المدرسة التكعيبية، ومؤسس هذه المدرسة هو جورج براك فنان شارك في الحرب، وعمل بعدها معالجًا نفسيًا للجنود الذين تعرضوا لصدمات عصبية عنيفة، وذهبوا على إثرها للمصحة النفسية فابتكر طريقة للعلاج لتناسب تلك المرحلة الصعبة. يمنح المريض قلمًا وورقة ويطلب منه أن يرسم ما يدور بمخليته بلا قيد أو شرط، وليس بالضروري أن يتقن ما يرسمه. يكفي أن يرسم ما يشعر أنه يدور بعقله، وبعدها يقوم بتحليل تلك الرسومات أو الشخبطات، ومنها يصل لنوع الإصابة، ومن هنا جاءت فكرة هذا الفن، فهو ما يلقي به العقل من أفكاره المنهكة على الورق ويختلف تفسير تلك الأفكار من متلق لآخر.

ذكره هذا بكلام مونيكا عن العقدة التي يعاينها زوجها عقدة ما بعد الصدمة، ولكن أي صدمة تلك لرجل ميت القلب يقتل ثم يقتل بدون شفقة أو رحمة. بالرغم من شعوره الجارف بالتخلص منه اليوم قبل الغد والآن قبل بعد قليل، فإنه كان يريد أن يسأله إن كان يتذكر تلك العائلة التي تخلص من أفرادها الواحد تلو الآخر، والأطفال الأبرياء الذين لا حول لهم ولا قوة؟ وترى ما الذي ارتكبوه ليقوم برميهم بوابل من الرصاص؟ بقبضة يده صفع الجدار وتناول النظارة المكبرة وسلطها على منزل كريس ليمنح نفسه بعضًا من الارتياح محدثًا نفسه: "ها هو على بعد أمتار قليلة منك. اليوم أو غدًا أو بعد غد سيصبح في عداد الأموات بعدما تقتله بيدك وتشفي غليلك منه فلم الغيظ إذن؟!".

أثناء مراقبته المنزل فتح باب الجراج وخرجت السيارة الفورد السوداء، من الواضح أنهما في طريقهما لحفلة ما. مونيكا ترتدي فستان سهرة أسود، ويبدو هو مفتول العضلات في بذلته. فكرة سريعة مرت به. ماذا لو يدخل المنزل الآن ويقوم بقتل طفليه وتركهما له جثتين هامدتين مخضبتين في دمائهما؟ ليتسنى له أن يحرق قلبه عليهما ثم يتخلص منه لاحقًا بعد أن يجعله يعيش مرارة الأحزان والحسرة معًا. لكن منذ متى وهو يقوم بقتل أطفال لا ذنب لهم؟ هز رأسه بقوة وكأنه ينفض الفكرة عنها "لا لا.. لا أستطيع أن أفعل ذلك"، ثم مرة أخرى يحدث نفسه قائلًا: "يا للعجب! قاتل وتتصف الشهامة" إنه صراعه مع النفس الذي لم يشف منه يومًا. فتح الثلاجة وسحب منها علبة مثلجة من مشروب الطاقة، ارتشفها على عجل وارتدى ملابسه وذهب. أخذ يتجول في ارجاء المكان وسط جموع من البشر مختلفي الأشكال والألوان، ولكن تغلب عليهم الملامح المكسيكة، فقد هاجرت إلى هنا أعداد كبيرة من سكان المكسيك تزوجوا وتناسلوا وتكاثروا، اندمجت الجينات فنتجت عنها ملامح مختلطة وتغلب على معظمها الملامح المكسيكية، ملامح الهنود الحمر السكان الأصليين لهذه القارة التي اكتشفها كولومبوس بعدما أبحر بثلاث سفن بعد حصوله على موافقه ملكة إسبانيا - وقتها – للإبحار للهند، ليحصل من هناك على الذهب اللازم لتمويل إسبانيا في حربها ضد مسلمي الأندلس، وعندما وصل لأمريكا ظن أنه وصل للهند عن طريق الغرب، وقتها رأى سكان القارة الأصلين ببشرتهم السمراء المائلة للحمرة فأطلق عليهم الهنود الحمر.

في الصباح اتصلت به مونيكا على هاتفه المحمول لتهنئه على مسكنه الجديد وتدعوه لحفل عيد ميلادها.

- ولكن مونيكا أعفيني من تلك الدعوة. خاصة أني لا أعرف أحدًا من الحضور.

- يكفي أنك تعرفني وأنا صاحبة الدعوة وصاحبة عيد الميلاد، أم هي ذريعة حتى لا تقدم لي الهدية؟

رنت ضحكتها العالية في أذنه ولم تدع له فرصة أخرى للكلام. أنهت المحادثة بعدما أكدت عليه:

- غدًا في السابعة مساءً سأنتظرك.

تحير، ما الذي يفعله؟ ولماذا يأتي طريقه لهذا الرجل ممهدًا ومفروشًا بالزهور؟ فمنذ أن وطئت قدمه هذه الأرض وكل شيء تكفل القدر بتنظيمه وتقديمه له على طبق من فضة، لذلك قرر اقتناص تلك الهدايا القدرية. ساعات معدودة وسيلتقي بهذا الرجل وجهًا لوجه، ولكن هل سيستطيع حقًا أن يقابله دون أن ينقض على رقبته لينتزع منه روحه؟ كيف له أن يبتسم في وجهه وهو يصافحه ويعرفه بنفسه؟

كانت روائح الشواء تنبعث من حديقة الفيلا التي زينت بأناقة مترفة كما هي صاحبتها. البالونات تزين الأشجار، موسيقى الهاوس برتمها الاعتيادي تصدح في أنحاء المكان. نساء متأنقات في عريهم ورجال متدثرون بثرائهم: يا للعجب! فها هو يدخل لمسكن هذا الرجل من بوابته الرئيسية

ويكون هو بنفسه في استقباله مع زوجته! كان تمامًا كما شاهده في الجرائد والمجلات ضخم الجثة، أحمر الوجه والشعر بملامح حادة وباردة، وكمن تمر بك الذاكرة في لقطات خاطفة تأخذك معها للوراء عند سنوات طويلة مضت وتتوقف بك هناك. وجد نفسه بحديقة منزلهم بالعراق وقد تحولت الموسيقى لصوت طلقات من الرصاص، وجوه المدعوين ملئت بالوجوم والفزع، وطوق المكان بالشريط الاصفر اللاصق، وينقل رجال الإسعاف الجثث لسيارة الإسعاف، حتى البالونات الحمراء تحولت لبقع من الدماء. لوهلة شعر بأن المكان كله يدور به ولا يستطيع أن يصلب طوله، ولكنه كان عليه أن يتماسك حتى لا ينفضح حاله، فجاهد نفسه. دخل مع الرجل في محادثة طويلة عن أحوال العالم وأحداثه والأزمات الاقتصادية العالمية. سأله كريس وكأس الفودكا في يديه، بينما اليد الأخرى كانت في جيب سرواله.

- ولكن ماذا تفعل في أوقات فراغك؟

- لا شيء.. أتجول في أنحاء المكان أو أخلد للنوم.

- حسنا أملك معسكرًا للرماية والتدريب على إطلاق النار. لماذا لا تحضر؟ أم أنك لا تهوى ذلك؟

- على العكس كثيرا ما تمنيت أن أتدرب على الرماية، ولكن لضيق الوقت لم يحدث.

- انتظر.

غاب دقائق وعاد مجددا وبيده بطاقته الشخصية.

- هنا عنوان المعسكر يمكنك أن تجدني هناك يوميًا من العاشرة صباحًا.

كانت مونيكا توزع ابتسامتها على الجميع ومن الواضح أنها ضربت العدد القياسي في الحصول على الهدايا، ظهر ذلك بوضوح من الطاولة الطويلة التي وضعتها على مدخل الحديقة ليترك المدعوون هداياهم عليها، كل هدية مغلفة في علبة أنيقة وملحق بها بطاقة باسم صاحبها.

ازدحمت الطاولة بالهدايا لحد أن الخادمة قامت بمساعدة السائق بوضع طاولة أخرى بمحاذاتها. لمحته واقفًا وحيدًا بعدما اعتذر كريس له وذهب لاستقبال أصدقائه فأسرعت إليه.

- لماذا لا تنضم لبقية المدعوين؟

- عذرًا من الصعب أن أتحدث مع أحد لا أعرفه!

- ولكنك لست من هذه المدينة ولا تعرف أحدًا بها، وتبدأ في إطلاق مشاريعك ويلزمك أن توسع دائرة علاقاتك، وأغلبهم هنا من أكبر رجال المال والأعمال في المدينة، ومعرفتك بهم ستفيدك كثيرًا.

ثم وبدون تفكير سحبته من يده وهي تقول:

- سأعرفك على مستر جيمس براون هذا العجوز بسيجاره الثمين.

ولكنه توقف فجاة وسحب يده من يدها بشيء من العصبية قائلًا:

- مونيكا.. أرجوك أنا في حال لا تسمح لي بالتحدث مع أحد الآن. ربما عليك أن تدبري لنا موعدًا في يوم آخر.

استغربت من تصرفه وتبدلت ملامحها:

- كما تحب. فقط أريد أمنحك صحبة حتى لا تشعر بالوحدة.

وضع يده في جيبه وأخرج علبة من القطيفة بها خاتم من الألماس كان قد جلبه بمناسبة عيد ميلادها. كانت الهدية غالية الثمن ولكنها لا تغلو على القدر، فهو الذي أهداها له مسبقًا عندما وضعها في طريقه ذلك اليوم، فالهدية كانت للقدر وليس أكثر، بالإضافة إلى أنه عرفها بنفسه على أنه رجل أعمال شديد الثراء ومن غير اللائق أن يجلب هدية لا تكون على قياس ثرائه.

انشغلت في فتح العلبة ثم صاحت عند رؤيتها الخاتم.

- يا أله ما أجمله!

اقتربت منه ووضعت قبلة بين عينيه، لفحه عطرها الصارخ وغطى شعرها المنساب كشلال وجهه، فشعر بموجة من الإثارة تجتاحه. وبمكر أنثى طالما أغرت الرجال وتعلم سحرها عليهم لاحظت ذلك فابتسمت بخبث.

- لعل علي الذهاب الآن فأنا حقا أشعر بالتعب.

- كيف يمكنك الذهاب دون أطفئ شمعة عيد الميلاد؟ لا، أرجوك إنه فأل سيئ.

- اعذريني، فأنا متعب حقًا.

- إذن تعال معي سأقوم بإطفائها الآن.

لم تنتظر أن يجيبها، سحبته من يده وسارت إلى الطاولة التي توسطت المكان وبها الكعكة المكونة من عدة أدوار متدرجة، بينما قامت بالتصفيق فنظر إليها الجميع.

- حان موعد إطفاء الشمع.

اقترب الجميع وأحاطوا بها. يقف زوجها بمحاذاتها من الجهة اليمني وأولادها من الجهة اليسري، فانزوى هو بعيدًا حتى انتهى الجميع من غناء:

- عيد ميلاد سعيد.

ثم انطلقت الصواريخ بجميع الأشكال والألوان لتنير السماء في استعراض جميل صنعته لها شركة متخصصة في استعراضات السماء النارية. تمني لها عيد ميلاد سعيدًا وقبل يدها ومضى.

***

لم يكن يريد أن يظهر أكثر في أنحاء المدينة. وخشي أن يتورط مع هذه المرأة في شيء يفسد خطته، فقرر أن ينهي مهمته بأسرع وقت. ذهب للمعسكر في الصباح الباكر في وقت كان متأكدًا أن كريس لم يأت بعد.

عندما سأله موظف الأمن عن اسمه وسبب وجوده. أخبره أنه صديق لمستر كريس، فقام الموظف بالاتصال بالرجل وأخبره بأن أحدهم يسأل عنه فأخبره كريس أن يسمح له بالمرور.

أخذ يتجول في المكان وكعادة عينيه تعملان ككاميرا فوتوغرافية تلتقط وتسجل كل ما يراه. تجول ما بين الممرات والدهاليز وذهب لساحة التدريب على إطلاق النار وعرج على غرف تبديل الثياب.

في المساء جلس يضع خطته وقرر أن ينفذها صباحًا.

أثناء ذلك تلقى اتصالًا هاتفيًا من مونيكا وأحبطها عندما أخبرها:

- سأسافر لإنجلترا في مهمة عمل عاجلة.

- كم ستمكث؟

- لا أعرف حتى الآن، ربما أسبوعًا أو أكثر.

- سأشتاق إليك. ما رأيك لو مررت عليك مساء اليوم لنقضي بعض الوقت معًا؟

- آسف مونيكا لا أحب طقوس الوداع!

- ولكن أي وداع! سنقضي بعض الوقت فقط.

كان يعلم تمامًا ماذا تعني بـ"سنقضي بعض الوقت"، يعلم أيضا أنها قادرة على أن تهبه متعة بقدر انجذابها إليه. لثوان معدودة ذهب وجاء به تفكيره خاصة أنه سينال من شرف الرجل أيضًا، ولكنه رفض الفكرة بالرغم من أن إقامة علاقة معها من أكثر الاشياء التي يريدها، وفى الوقت نفسه من أكثر الأشياء التي يرفضها، كما أن كريس - عاجلًا أم آجلًا - سيكون في عداد الأموات، فما قيمة أن ينال من شرفه إذن!

- ألو.. هل ما زلت على الخط؟

- رحلتي في السابعة صباحًا وأحتاج قسطًا وافرًا من الراحة.

- حسنًا كما تريد.

وجد في صوتها بعضا من الأسى، ولكن أي أسي هذا أمام المفاجأة التي يعدها لها وستكون في انتظارها؟!

جمع ملابسه وغادر المنزل بعدما تأكد أنه لم يترك أى خيط وراءه. ذهب لفندق قريب وقام بحجز غرفة وأجرى اتصالًا هاتفيًا بالخطوط الفرنسية ليحجز تذكرة. أخبرته الموظفة أن أول رحلة لفرنسا ستقلع في الثامنة من مساء اليوم فوافق على الفور.

حمل سلاحه معه وذهب للمركز. استقبله موظف الأمن بابتسامة عريضة على عكس استقباله له بالأمس، كان هناك بعض الشك والريبة تجاهه ترجمت لعدائية في تصرفاته معه، ولكن الآن وقد زال كل هذا ها هو يستقبله بترحاب ويخبره أن مستر كريس في ساحة التدريب.

أضفي ذلك الكثير من الراحة والاطمئنان عليه. دومًا المرور من رجال الأمن يعد بالنسبة له خطوة مهمة وصعبة في إنجاز مهامه، وعليه أن يخطط لها بالكثير من الدقة، لأنه بفشلها قد تفشل المهمة كلها أو لا تنفذ مطلقًا وبنجاحها يكون قد قطع شوطًا كبيرًا في نجاح مهمته.

لم يتجه لمكان كريس في ساحة إطلاق النار بل ذهب مباشرة لغرفة تبديل الثياب. كان متأكدًا أنه سيدخلها عاجلًا أم آجلًا ليحصل على حمام بارد بعد تمرين عنيف في هذا الطقس الحار. انزوي في زاوية ما، لا يكشفه أحد منها وظل منتظرًا يراقب قدومه. بعد الكثير منه الوقت سمع جلبة وثرثرة وضحكات بصوت عال قادمة في اتجاهه. لمح كريس قادمًا بصحبة رجل آخر وعلى الفور دخل كل منهما ليغتسل. انتابته مشاعر محبطة عندما فكر أن قدومه برفقة صديقه وخروجهما معا سيفشل خطته، ولكن الأمل رجع له مجددًا عندما أنهى صديقه اغتساله على عجل وبدل ثيابه وخرج مسرعًا وهو يصيح قائلًا:

- كريس لقد تأخرت على لورا. يجب أن أغادر الآن لألحق بها. فأنت تعرف أن أكثر ما يثيرها هو عدم احترام المواعيد. إلى اللقاء ونلتقي غدًا.

أجابه كريس بصوت تتداخل معه ذرات الماء المنساب على جسده:

- مسكينة فهي لم تكتشف بعد قدرتك الفائقة في إهمال المواعيد. إلى الغد إذن.

ابتسم إياد بسخرية عندما سمع ذلك وهمس: "انتظر يا رجل فلن يكون هنالك من غد، وعليك أن تودع صديقك الوداع الأخير!" وبينما كان كريس واقفًا تحت دش ينعم بالمياه الباردة. أحكم إياد إغلاق باب المكان الذي خلا من الجميع وضرب باب الحمام بقدميه فما إن رآه كريس حتى صاح قائلًا:

- أنت!

- نعم أنا. آسف إن كنت قطعت خلوتك.

- ولكن ماذا تريد؟ ألا يمكنك أن تنتظر بالخارج حتى أنتهي؟

- ولكنى أريدك هكذا عاريًا كما ولدتك أمك!

ضاقت عينا كريس وقال له:

- ولكم هل أنت شاذ جنسيًا؟ أم ماذا؟

قهقه إياد بسخرية:

- أرجوك لا تسئ فهمي، أنا هنا لأقتلك فقط، و لا أطمع في أكثر من ذلك. هكذا أنت، لا واقي من الرصاص تتدثر به، ولا بندقية تصوبها باتجاه أحد ولا رصاص تدافع به عن نفسك. أريدك هكذا عاريًا إلا من خوفك، لتشعر ولو لمرة واحدة مدى الفزع الذي شعر به الأبرياء العزل الذين صوبت رصاصاتك إليهم.

- هل تمزح معي؟ أم ماذا؟

قهقه إياد بصوت عال:

- نعم بالطبع أمزح معك والآن سأتركك لتستمتع بدشك.

أدار ظهره تمويها له ثم استدار بقوة وباغته بطلقتين من سلاحه كاتم الصوت، كل منهما وجدت طريقها إلى ساق فانزلق على أرضية الحمام لتختلط دماؤه مع الماء وتصبغ بلاطاته البيضاء بلون الدماء الحمراء. وأسند ظهره على الجدار يحاول أن يقف ولكنه فشل فسأله بتأوه:

- ولكن لماذا؟

- إنه ثأر قديم بيني وبينك. أتذكر تلك العائلة الصغيرة التي دخلت بيتهم ذات يوم لتقضي على كل من به دون شفقه أو رحمة؟

ابتسم بألم وعنجهية معهودة عنه، وربما عرف أنه ميت لا محالة فلم يكن هناك وداع للاستعطاف:

- أي عائلة؟ لقد قتلت الكثير..

- تلك العائلة التي تحدثت عنها في كتابك ورحت تفتخر بصنيعك اللا آدمي. هؤلاء الأبرياء الذين لم يكن لهم حول ولا قوة وقمت بقتلهم جميعًا.

- ولو أنني لا أتذكر ولا أريد أن أتذكر. جميع من قتلتهم قمت بقتلهم من صميم عملي وبناء على أوامر محددة. لم أقتلهم بدافع سرقة أو لأني قاتل مهووس مثلًا. كلها مهام وكلت إلى من جيش بلادي.

- ولكن من بين تلك المهام التي حرصت أن تنفذها بجدارة، لم تحاول ولو لمرة أن تسأل نفسك ما الجدوى من قتل طفل صغير لا ذنب له أو امرأة بريئة لا حول لها ولا قوة؟

بصوت يئن من الألم الذي بدأ يشعر به:

- لا. لم أسأل، فهذا ليس من شأني وعلى أي حال لم يكن وجودهم يشكل فرقًا في حياتي.

غلت الدماء في عروق إياد عند سماعه "لم يكن وجودهم يشكل فرقًا في حياتي".

فصوب إياد طلقه باتجاه ذراعه جعلته يصرخ من الألم ثم أخرى في كف يده.

- إن كنت تريد أن تقتلني فهيا عجل بذلك.

- ليس قبل أن أذيقك العذاب وأجعل كل عضو بك يتألم. يئن ويتوجع تلك الساق التي صفعت بها الباب يومها وتلك اليد التي صوبت بها رصاصك إليهم لتحيلهم جميعًا إلى جثث هامدة.

- وهل انتقامك مني بهذا الشكل سيعيدهم للحياة مرة أخرى؟

- أتعلم منذ متى وأنا أنتظر تلك اللحظة؟ وبأي شيء ضحيت من أجلها؟ وما الذي أصبحت عليه بسببك؟ لقد دمرت حياتي للوصول لهذه اللحظة. فدعني إذن أستمتع بها.

ثم طلقة اخترقت عينه.

- وها هي العين التي طالما تأملت وراقبت بها ضحيتك لتجيد قنصيها.

تحولت الأرضية لبركة من الدماء وأخذت تزحف لخارج المكان.

- أتعلم كريس لقد خربت بيتي في هذا الجزء الصغير من العالم، وإذا خرب بيتك فمؤكد سوف يلاحقك الخراب دومًا وأينما حللت ومنذ ذلك الحين وأنا يلاحقني الخراب.

كان يكفي هذا القدر من المتعة ولكنه لم يكن كافيًا للألم. كان يريده أن يبقى متالمًا هكذا، ولكن الوقت يمر وربما لاحظت أحد غياب كريس أو دخل أحدهم ليتفقد المكان.

- أتعلم لا أريد أن أخلصك من عذابك، ولكن ينبغي أن أفعل. الوداع كريس إلى جهنم التي سيكون طريقك إليها مفروشًا بالورود.

ثم صوب رصاصة بين عينيه وأخرى في قبله وترك المكان وخرج بخطوات ثابتة تمامًا كالتي دخل بها. وفي أول سلة للمهملات صادفها بطريقه ألقى بسلاحه الذي اشتراه خصيصًا لهذه المهمة، ولم ينسَ أن ينظفه جيدًا حتى يمحو أي أثر لبصماته عليه.

توجه للمطار مباشرة فليس هناك سوى ساعات قليلة باقية على موعد طائرته. ولكن ما هذا الشعور الغريب بالفراغ الذي انتابه؟ أصبح أكثر خفة وكأن روحه المثقلة أخيرًا خف حملها بعدما تخلص من هم العمر.

ذهب به ذلك الإحساس للمقطع في الكتاب عندما وصف خالد الحالة التي كان عليها بعدما تخلص من الرجل الذي قتل عائلته.

وظل يحدث نفسه:

- أى قدر هذا الذي تطابق مع قدر رجل سبقني للحياة بأكثر من أربعة قرون، ومع ذلك كنت أشعر كما لو أنني أراه أمامي تمامًا. كما لو أننا جمعتنا طاولة واحدة وثرثرنا يومها كثيرًا حول فنجانين من القهوة. كما لو أننا تناولنا طعامنا معًا. تقاسمنا رغيفنا وسمينا باسم الله قبلها وحمدناه على نعمته بعدها. لا لم يكن خالد مجرد شخص سبقني إلى العالم بأربعة من القرون، إنه روح كانت تحيط بي وتوجهني فمن دلني على كتابه لأقرأه وأنا الذي أبغض القراءة، ولماذا وضع القدر ذلك الكتاب مسبقًا في يد أبي ليشتريه من أحد الأسواق التي تبيع الكتب القديم؟ ومن جعل الدكتور نعمان يجمعه مع الأوراق المهمة في ذلك اليوم من مسكن أهلي دون كل الأشياء؟ نعم كل الطرق كانت تقوده لي وكانت تقودني إليه. كلا لم يكن الأمر يتعلق بالماضي.. إنها حياة خارج حدود الزمن. حياة كنت أنتزعها صفحة بعد صفحة لأمنحها بعضًا من الهواء والضوء.

هذه الصفحات من الكتاب كانت بمثابة إشارات كما لو أنك تقف لتراقب نافذة مضاءة لمدة طويلة، خلف النافذة تبدو الغرفة خالية، ولكن من حين لآخر من خلف الستار يظهر خيال لشخص ما يمر مسرعًا فينتنابك مزيج ما بين الغياب والحضور.

أنهى إجراءات سفره وذهب إلى صالة الانتظار، طلب لنفسه فنجانًا من الإسبرسو وتساءل:

- إلى أي حد جاءت المهمة التي انتظرتها طويلًا وخططت لها كثيرًا ميسرة وبسيطة! كل الأبواب كانت تفضي إليه وكل الأحداث اتحدت معي عليه.

تذكر وقتها مونيكا عندما يأتيها خبر قتله، أي مشاعر وقتها ستنتابها؟ الحزن على موت زوجها أم الشعور بالسعادة، لأن أحدهم قد خلصها منه؟ أو ليست في ذلك اللقاء وهي تتحدث عنه تبدلت ملامحها وتوشح صوتها بالحزن وهي تخبره: بعدما رجع من حرب العراق وكأنهم استبدلوا به شخصًا اخر .

- الآن مونيكا فلتسعدي فلم يعد هناك آخر كما لم يعد هناك هو!

أعلنت الإذاعة الداخلية قيام الرحلة المتجهة إلى باريس فقام مسرعًا ليلحق بها. حلقت الطائرة في الجو، تنفس الصعداء وشعر بالراحة. نظر من زجاج النافذة، كانت السماء ممتلئة بغيوم تحتشد كتلال قطنية. دخل في غفوة سريعة وهو الذي لم يتعود يومًا أن يغفو في طائرة. في هذه الدقائق القليلة راوده حلم بعائلته محلقة في السماء وتطل وجوههم من بين الغيم ويلوحون له ولم يعرف أن كان ما رآه حلمًا أم حقيقة. بالنسبة له طوال تلك السنوات وعلى مدى عمره لم يكن هناك حاضر أو ماض، كان الكل يتداخل معًا كما لو أنه يريد التقاط رموز جهاز مورس يبعث بها مراسل من مكان قصي تأتي إليه مشوشة، وعلى أي حال كان يجب أن يجلس ليفك شفرتها.

تناول وجبته بشهية مفتوحة وامتدت يده للكتاب فأخرجه من الحقيبة وبدأ من حيث انتهى في المرة الماضية..

***

الفصل الرابع عشر

في الليل غنت النساء وعلت زغاريدهن وانطلقت أصوات الرجال بالمواويل الأندلسية، امتدت مائدة العشاء تحمل المأكولات الشهية وبعد العشاء عقد الشيخ قراني على عائشة وفقًا لسنة الله وروسوله، ثم بعدها ذهبنا للكنسية مع مجموعة من الأهل والجيران لنعقد زواجنا هناك كما يفعل الموريسكيون وحتى لا نكون مدعاة للشك.

أخيرًا أصبحت عائشة زوجتي وبات في استطاعتي أن أغلق علينا الباب، جلسنا على طرف الفراش كل منا في مقابل الآخر. كانت عيناها تارة تومضان ببريق الفرح وفى أخرى تغيمهما الدموع. شعرها يتدلي بدلال على جسدها الصغير. ضممتها لي بحنان وعنف، ترقرقت الدموع من عينيها، ونزلت ساخنة فلسعت وجنتي، سألتها:

- لم تبكين؟

أخذت تزيح دموعها بأطراف أصابعها وبصوت يكاد يسمع:

- إنها دموع الفرح، كثيرًا ما سمعت عنها، ولكن لم أصادفها يومًا، فلم تمتلئ عيناي إلا بدموع الحزن والألم. تمنيت كثيرًا أن تكون لي حتى بعدما جاء خبر قتلك، كنت على يقين أنك حي ترزق وسوف تأتي.

عصفت بي كلماتها وزجت بي في عالمين من العشق والرغبة شددتها أكثر لي وأخذت أربت على جسدها بحنان وحب، أريد أن أعوضها عن كل ما عانته من ألم وحزن وأمنحها من الفرح والأمان ما يكفيها سنوات عمرها كله. كان جسمها لينًا وناعمًا تحت يدي الخشنتين القويتين تأوهت فخف ثقلي عليها خشيت أن أحطم عظامها.

وللمرة الأولى أنعس بعمق وأستفيظ قبل الظهر بقليل على طرقات أمها على الباب وهي تقدم لنا صحنًا نحاسيًا كبيرًا من الكسكس المرشوش بالسكر والمحلى بالزبيب، وكأن الحياة قد خلعت حدادها، للمرة الأولى أشعر بطعم الفرح الحقيقي. تضمني عائشة فأشعر بحنان أمي، وتخلع لي نعلي آخر اليوم، وتقوم بشطف قدمي المتعبة بالماء الدافئ فأشعر بعطف أختي، وحول الطاولة المستديرة كنا نلتف في العشاء ونتحدث عن أخبار يومنا، تحكي زوجة عمي عن نفاد كعكها وخبزها في أقل من ساعة هذا الصباح، ويقص خالد عن إصبعه التي جرحت أثناء دقه المسمار في كعب حذاء هذا القشتالي المتغطرس الذي كان يراقبه وهو يعمل، ووقتها كانت تذهب بي تلك الحكايات لسنوات طويلة مضت عندما كنا نجتمع أنا وأسرتي حول مائدة الغداء وكل منا يقص ما حدث له في يومه.

السعادة، إنها ذلك العصفور المعلق على الشجرة لا تستطيع الإمساك به ولا تستطيع أن تعلم متى سوف يحط عليها، ها هو قرر أخيرًا أن يغادر الشجرة ولن يحط عليها مرة أخرى. بعد شهور قليلة مرت بطعم السعادة صدر أمر الترحيل لكل من لا يملك تصريحًا بالإقامة لترتدي الحياة وشاحها الاسود مجددًا ولكن هذه المرة كانت قد قررت ألا تخلعه.

حاولت بشتى الطرق أن أستخرج تصريحًا لي ولعائشة ولكنني فشلت، لم يكن حالي أفضل من حال الآلاف ممن اضطروا للرحيل، لم أكن أعمل خبازًا حتى لا يشملنى القرار، ولا صلة لي بقشتالي ذي مكانة أو من النبلاء حتى يتوسط لي باستخدام التصريح بعدم الرحيل فكان لا بد منه.

قبل الرحيل بعدة أيام خرج الأهالي الذين شملهم القرار إلى السوق لعرض ما زاد على حملهم مهما كانت قيمته وأصالته فازدحمت السوق بصناديق الأجداد، مشكاوات وقناديل نحاسية، أرائك وخزائن خشبية، سلال وقدور وأوان حتى القمح والزيت والطحين. تحولت الساحة لذاكرة الأجيال المتوارثة معروضة للبيع بسعر بخس، لم يكن هنالك وقت النقاش في ثمن أو انتظار زبون آخر ليدفع أكثر، الكل يريد أن يتخلص من هذه الأشياء ليس طمعًا في أموال أو ليتخلص من عبء الذاكرة ولكن ليخف حمله حتى يجد له مكانًا على السفينة التي ستذهب به إلى حيث لا يعلم.

المنشور المعلق في كل مكان يشمل الآتي: "على الراحلين أن يأخذوا من المتاع ما يستطعون حمله، وعلى الجميع أن يلتزموا بأماكنهم حتى يحين دورهم، ومن يقاوم أو يعترض يعاقب بالموت" ولكن هل كان بعد ذلك موت؟ أليس ذلك هو الموت بعينيه؟ أن تجبر على ترك كل شيء خلفك وتمضي من موطنك بلا متاع وبلا ذكريات وبلا عودة؟

أخذتني قدماي من شارع لآخر ومن زقاق لآخر، أودع كل إنش في المدينة التي لم يكن لي سواها وطن. ذهبت للشارع الكبير ثم عرجت على الساحة التي بها الجامع الكبير الذي كان أبي شيخه وخطبيه، والآن قد تحول لكاتدرائية، وعلى يسار المسجد مدرسة كانت في وقت سابق تعج بأطفال أهل المدينة، اليوم أصبحت مهجورة وخاوية على عروشها أفضى بي الزقاق الضيق لباب الرملة وتذكَّرت وقتها مشهد الكتب وهي تحرق بفنائه وتتصاعد منها الأدخنة، وترسم أشكالًا من الأحرف والكلمات وتذهب لتعانق السماء. سرت بعد ذلك بمحاذاة نهر حدرة أسفل الحمراء وتوقفت عند مسجد المرابطين الذي تحول هو الآخر لكنسية، ومنه لحي البيازين، أعرج في طرقاته المتعرجة وأزقته الملتوية الضيقة، أزور بيتنا ألقي نظرة وداع أخيرة عليه، وتفر دمعة حامية من عيني وأنا أتساءل: ترى من سيسكنه بعدنا سيعلم القدر الحزين للعائلة التي سكنته يومًا؟

أخيرًا هأنذا أمام قصر الحمراء الذي يقع في مقابلة حي البيازين كل منهما يقف ندًّا للآخر. الحاكم والمحكوم، السلطة والشعب. واليوم لم تعد هناك سلطة ولم يعد هناك شعب. وجدت نفسي أمام دار عائشة الحرة والدة الملك عبد الله الذي لولاه لما كان هذا حالنا، ولم تكن دارها أفضل حالًا من الدور في المدينة مظلمة وخربة بعد أن هجرها الأهل والخلان، جلست عند ضفة نهر شنيل بجواره حديقة صغيرة نصب فيها تمثال للملك عبد الله أيام حكمه، ذهبت لأقف أمامه مباشرة وأسأله:

- ما شعورك الآن وأهل غرناطة يطردون منها؟ ما نفع طمعك وطموحك اللذين قاداك للخضوع لشروط ملك وملكة إسبانيا على أن تمنحها غرناطة في سبيل أن تبقى في الحكم؟ وأي حكم ذلك الذي بقيت فيه؟ كم بطل ضحى بحياته في سبيل فتح الأندلس؟ وكم بطل ضحى بحياته بعد فتحها في حروب طويلة للحفاظ عليها! وهكذا أنت بكل بساطة تقف أمامهما تغطي دموعك وجهك وتسلم لهما مفتاح الحمراء وتسلم لهما معه ملك أجدادك بحضارة السنين الطويلة، سلمت لهم كل

شيء: ماضينا ومستقبلنا ولم يعد هناك حاضر. "وكأنك يا طارق يا أبو زيد ما غزيت" ها نحن أبناء البلد نلفظ منه وكأننا لم نأت من رحمه يومًا. أولادنا وأحفادنا سيظلون يتغزلون في مدينة يحكي أجدادهم لهم عنها ولم يروها يومًا! فهنيئًا لك اللون الأسود الذي سطرت به اسمك وحياتك في صفحة التاريخ.

في طريق العودة كنت أشاهد البيوت التي يستعد أصحابها للرحيل وقد أطفئت أنوارها ونزعت أسلاك أفراحها وتكوم أثاثها وما زاد عنها على عتبات أبوابها. غدًا أو بعد غد تؤول ملكيتها لنبيل أو إقطاعي.

نعم سوف يسكن هذه البيوت أناس آخرون بملامح مختلفة ولغة مختلفة وأيضًا طقوسهم ستكون مختلفة ولكن هل سيفلحون أن يلغوا ذاكرتها ويزيلوا عنها روائح من سكنوها يومًا؟ أن يمنعوا صدى ضحكاتهم وثرثرة أطيافهم في أنحاء البيت ؟ بالتأكيد لا. لينتظروا إذن وسيرون أن كل هذا كاف ليشيع الحزن والألم في المكان .

جلست زوجة عمي مع النسوة من الأهل والجيران في فناء الدار تنتحبن وتندبن، قالت زوجة عمي بصوت مبحوح:

- لن أرحل، سأظل هنا. لم أبرح يومًا هذه المدينة، لم أذهب ولم أجيء وإن غادرتها كيف لي أن أبعد عن قبور ورفات من أحببت؟

رددت أخرى:

- نعم سنبقى. ما الذي يمكنهم أن يفعلوه بنا؟ القتل، ليقتلونا لعل الموت يخلصنا من عذابنا.

أجابت أخرى:

- سيقودوننا إلى المحرقة بحجة أننا خرقنا منشورًا ملكيًا.

عائشة كساها الحزن صمتًا فلم تعد تتحدث. ظهرت عليها بوادر الحمل وتحرك الجنين في أحشائها، وبدلا من تجهيز ملابس الطفل الجديدة كانت تجمع ملابسنا وتضعها في الصرر وتحكم ربطها. بدلًا من الاستعداد لحياة قادمة كانت تعد نفسها للرحيل.

زوجة عمي زادها القرار حزنًا على حزن تجلس في الحديقة تحت شجرة الزيتون، وتتمنى لو بإمكانها حملها معها، لم تكن مجرد شجرة، إنها وضعت بذرتها منذ زواجها وها هو جذرها يشهد بنحت أسماء الأبناء والأحفاد، تواريخ ميلادهم وزواجهم، ذاكرة كاملة يحملها جذر شجرة الزيتون العجوز، ترى من سكن البيت يومًا هل ستستوقفه هذه الأسماء أو تلك التواريخ؟ جمعت بعضًا من الثرى والحصى ووضعته في كيس من الخيش وحملته معها وعندما سألتها عائشة:

- أين أمتعتك أمي؟

أشارت على الكيس وقالت:

- هذا هو كل ما أريده ليكون معي، هذا ما كان يمكله يومًا آبائي وأجدادي.

تطلعت عائشة في استغراب للكيس فأجابتها:

- إنه ثري غرناطة.

كنت أتمنى لو صحت فيها:

- "كان" ثرى غرناطة. أفيقي يا امرأة نحن الآن نخرج مطرودين من أرضنا. أي ثرى هذا الذي تقولين إنك تملكينه وترتدين أن تحمليه معك!

غادرنا غرناطة في يوم شتائي قارس البرودة وريح تعصف بنا يمنة ويسرة. تجمعنا في قافلة كبيرة أطلق عليها قافلة الراحلين، كنا جمعًا غفيرًا من سكان غرناطة نمشي في حراسة مشددة يطوقنا جنود مسلحون يحيطوننا بخيولهم حتى وصلنا لشمال الحي. يعم الجميع ذهول الصمت وكأننا في موكب للموت بخطى بطيئة نمشي وكأننا نجر ساقًا خلف الأخرى. حتى وصلنا لبوابة فحص اللوز إنها البوابة التي سنخرج منها بلا رجعة و قتها تعالى الصياح ونشيج الجميع فها هي غرناطة أصبحت وراءنا، وكل ما عشناه فيها أصبح ماضيًا وذكرى، تركناها مرغمين لنذهب إلى حيث لا ندري ،عدد من كبار السن من الأهالي رفضوا الخروج، البعض منهم تشبث بالبوابة أو تكوم أرضًا فاحتشد حوله الجنود يجلدونه بالسوط منهم من امتثل لأوامر الجنود وخرج ومنهم من رفض فأشعلوا فيه النيران.

وصلنا للميناء بعد رحلة شاقة متعبة، وهناك كان الموظفون يجلسون على طاولات خشبية طويلة وأمامهم دفاترهم الكبيرة يدونون فيها أسماء الراحلين، كنت أريد أن أسألهم: وما قيمة ذلك فنحن راحلون بلا رجعة؟

وقفنا في طوابير طويلة مكتظة بالرجال والنساء والأطفال والشيوخ، من يظهر عليه الوهن، ومن يظهر عليه الملل ومن يظهر عليه الأسى، والكل يحمل صرره معه. زوجة عمي فقط هي التي كانت تقف خالية من أي شيء سوى الكيس الذي به الثرى ومفتاح البيت الذي وضعته في خيط متين وعلقته في رقبتها ولم نستطع أن نسألها: لماذا فعلت ذلك؟

ليس هنالك من عودة وكلنا متأكد من ذلك. ولكن تركناها تحيا بأوهامها. وبعد وقت طويل وإجراءات روتينية منهكة، أزالوا السور الخشبي وسمحوا لنا بالمضي باتجاه شواطئ الرحيل. بحر عالي الأمواج ومكتظ بالسفن التي سوف تحملنا لمدن أخرى. تطلق السفن بوقها الحزين وتخرج سحابة الدخان الأسود من مداخنها وكأنها لم تكن تخرج إلا من اشتعال القلب الحزين، تحوم طيور النورس فوق السفن تضرب جناحيها بقوة مودعة الجميع ويعلو صياحها وقشعريرة في الروح تسري. نظرت إلى عائشة، بدت أشد نحولًا وكبر بطنها أكثر، وللمرة الأولى منذ أن تزوجتها أجدها وقد عقدت جدائلها مجددًا وعقدت معها في كل خصلة أفراحها التي لم تكتمل. مرت الليالي على ظهر السفينة طويلة وباردة، وبالرغم من الأغطية الصوفية التي كنا نتدثر بها فإنها لم تستطع أن تزيل رجفة الجسد وبرودة تسري في الأوصال وثمة من رقد مكانه ولم يقم مرة أخرى. سألتني يومها زوجة عمي التي تمكنت منها حمى شديدة:

- خالد هل تعرف المدينة التي أخبرونا أننا سنذهب إليها؟

- إنها أحد بلاد المغرب تسمي مكناس، يقولون: إنها بلد جميل به شيء من غرناطة.

هزت رأسها بقوة نافية:

- لا ليس هناك بمثل جمال غرناطة تأكد من ذلك.

في تلك الليلة اشتد المرض على تلك المرأة الحنون التي احتضنتني صغيرًا وكانت لي كأمي التي فقدتها مبكرًا. ربتني بين بناتها ولم تكن تفرق في المعاملة بيننا وكانت دائمة القول: لم أنجب صبيًا ولكن الله أكرمني بك.

ظلت تهذي طوال الليل وتردد أسماء أناس رحلوا منذ زمن "سليم- زينب- فاطمة- جود" كنت أعلم فاطمة فهي أمي وجود أبي وبقية الأسماء لم أكن سمعت بها قبلًا. جلست نائلة بجوارها تقرأ آيات من القرآن بينما تكومت عائشة على حزنها وغيمت عيناها بالدمع، وفي الصباح أسلمت المرأة روحها، فعلمت أن أرواح من سبقوها بالرحيل جاءت لترحب بها في عالمهم. اجتمعت النسوة وجلبن الماء النظيف وغسلنها وكفنها بشال من الكشمير الأبيض ثم لم يكن أمامنا سوى أن نقذفها في الماء، رفضت عائشة وبكت بكاء مريرًا، أخبرتها النسوة أن الطريق طويل أمامنا ومؤكد سيتعفن جسدها، وإكرام الميت دفنه وليس هناك تراب لندفنها تحته ولا حل أمامنا سوى قذفها في الماء.

حملتها إحدى النساء وهي ملتفة بشالها الأبيض من الكشمير وقبل أن تقذفها بالبحر صاحت عائشة: انتظري، ثم اقترب منها وطبعت تلك القبلة التي نسرقها من فوق جبين الموت الشاحب وهمست: الوداع أمي.

ثم أخفت وجهها بيدها وعند صوت ارتطام الجسد بالماء أخذت في الصياح عاليًا، صياح مبحوح يصل صداه للمدى البعيد عبر البحر. غاصت المرأة في أعماق البحر هي ومفتاحها الذي ظل معلقًا في رقبتها كما طلبت أن يدفن معها وسيبقى كما هو لن يفتح باب بيت يومًا بينما جسدها حتمًا ستفتته المياه...

خيم الحزن على الجميع. كان من بين ميت وميت هناك آخر، أطفال وشيوخ، ورجال ونساء، لم يفرق الموت بين كبير وصغير، رجل أو امرأة، من عصفت به أحزانه ولم يستطع أن يصمد كثيرًا، ومن لم يستطيع جسده الضعيف أن يتحمل البرد ومشقة السفر. كان حزن عائشة كبيرًا حاولت أن أخففه عنها وأضمها إلي وأخبرها أن الموت قادم لا محالة وأن تلك القبلة التي سرقتها من على وجه أمها مثل حياتنا التي نسرقها من على وجه الدنيا، بينما الموت فهو عناق يدوم للأبد.. كنت أعلم تمامًا أن حزنها على قذف جسد أمها بالبحر يفوق حزنها على رحيلها.

- هي التي كانت تحرص على زيارة قبور موتاها لتضع فوقها سعف النخيل وتطلب الرحمة لهم طيلة حياتها. رفات أهلها في موتهم أكثر أهمية بالنسبة لها من أجسادهم في حياتهم! إذن لماذا بخل عليها القدر أن تدفن بمحاذاة أمها وعلى مقربة من زوجها أو حتى في تلك الأراضي الجديدة

التي نحن ذاهبون إليها ليتسنى لنا أن نزور قبرها ونضع فوقه سعف النخيل؟ ألم يستطع ملك الموت أن يعجل أو يؤجل قبض روحها ولو قليلًا ليمنحنا فرصة دفنها؟

لم ملك إجابة لها فالتزمت الصمت واكتفيت بالتربيت على كتفيها. بعد رحيل أمها بأيام قليلة وضعت وهي بشهرها السابع، حزنها الشديد عجل بذلك، نزفت قبلها بيوم فتفضلت امرأة محنكة في المسائل النسائية بالكشف عليها وأخبرتها أنه بعد ساعات قليلة سوف تنجب، وفي ليلة كان الهلال كحلية فضية تضيء ظلمة أيامنا أنجبت صبية كالقمر، أطلقنا عليها اسم "عائشة" وللمرة الأولى منذ قرار الترحيل أجد عائشة رسمت الابتسامة على وجهها، عندما لفت نائلة الطفلة بشالها الصوفي وأعطتها لها لتضمها إليها.

وكأنه كان مقدرًا لهذا المكان الذي لا عنوان له ولا استقرار أن يشهد الموت والحياة، الميلاد والرحيل، هنا على متن سفينة تسير بنا في عرض البحر زهقت أرواح ومنحت أرواح أخرى الميلاد. اغرورقت العيون بالدموع على راحلين وانبسطت الأسارير على قادمين وما بين المجيء والرحيل قدر علينا أن نحياه بأحزانه وأفراحه.

وقفت واضعًا يدي على سور السفينة، أنظر هناك للمدى البعيد سماء تعانق البحر والشمس غارقة في حزنها تودع سماءها وهأنذا على مشارف الأربعين، رجل بلا اسم ولا عنوان بلا زاد وبلا عمل في سفينة بعرض البحر، لا أعلم إلى أي الطرق سأسير، وما الذي ينتظرني هناك على تلك الضفة من النهر، كل ما أعلمه أني غرناطي من تلك المدينة البعيدة الجميلة، تلك المدينة التي شهدت أحداثًا جسامًا، ولكنها ستظل باقية بالرغم من كل شيء، وستظل عالقة بها روائحنا وأفراحنا وأحزاننا إلى يوم الدين، وسيظل ثرى أرضها الذي حملناه معنا هو أغلى ما نملك وهو كل ما نملك.

بعد عشرين عامًا أو يزيد علمت أنه لم يبق من العمر الكثير، وأني في طريقي للرحيل الأخير، فجلست أكتب على ضوء شمعة ترتجف كل ما مر بي، اتفقت مع حفيدتي عائشة، هكذا قررنا أن يظل اسم عائشة خالدًا من حفيد لآخر ومن زمن لآخر. عائشة إنه اسم المرأة التي سكنت القلب يومًا والتي عاهدت أحفادي من بعدي أن يحرصوا على تخليد اسمها فمن ينجب منهم ابنة فليطلق عليها عائشة، وكانت حفديتي عائشة تملك الذكاء والفطنة وأكثر شبهًا لجدتها، ولكأنها هي بعيونها الواسعة بلون حبة اللوز تتزاحم حولها الرموش، ودهشة الأطفال في نظرتها وجدائل طويلة شقراء وفم كثمرة الكرز. زوجتي الحبيبة عائشة سبقتني بالرحيل اختطفها الموت مبكرًا، حزنها عجل به، ظلت تتمناه في كل وقت وأوان، وكأنها تستدعيه للمجيء. بالرغم من جمال المدينة الجديدة التي سكنا فيها، وبفضل الله قمنا بترتيب أمورنا سريعًا، حصلت على عمل وبيت إلا أن الحنين كان يدفعها لموطنها الأصلي، عاشت محتشدة بالذكريات، لم تستطع أن تتأقلم مع عالمها الجديد، فكانت لا تلبس إلا عباءتها الأندلسية ولا تحكي إلا بكلامها ولا تسمع إلا موشحاتها، حتى طعامها لم تصنع غيره، لذلك لم نستغرب أنها في أثناء رحيلها كانت تنادي على غرناطة.

سلمت لها المخطوطة التي دونتها في دفتر أسود وأخبرتها أن تحتفظ بها وتقوم بنشرها فهو دليل دامغ على حياة وجدت يومًا. ***

أغلق إياد الكتاب وكأنه أغلق معه باب الزمن. إلى أي حد جاءت كلمات ذلك الرجل موجعة؟ موجعة لحد يجعل رجلًا يبعد عنه بقرون مضت أن يبكي تأثرًا وحزنًا عليه؟ كيف استطاع أن يصحبه معه إلى عالمه وتتغلغل تلك الأسطر لداخله كلما فتح الكتاب كان حفيف رياح ماضية تعبث بأوراق الكتاب وتنقله معها لهناك. ولكن على أى شيء تبكي يا أنت؟ أعلى قدر كتب علينا نحن الراحلين دومًا عن أنفسنا. المغتربين عن أرواحنا. نحن الذين تدك بلادهم فوق رءوسهم بحجج واهية. ما حدث في الأندلس منذ مئات السنين لم يتوقف يومًا إنه يتكرر بشكل دوري، ربما هذه الحروب قد تبدل اسمها بدلًا من الحروب الصليبية لأسماء أخرى أشد رقيًا وتمشيًا مع العصر. ما حدث في العراق ويحدث في فلسطين وأفغانستان وبورما والدول الإفريقية، أليس تمامًا هو الذي حدث في الأندلس؟ إنها الطريقة ذاتها لم تختلف كثيرا. أصبح من غير اللائق أن يستعملوا كلمة غزوة أو احتلال فسعوا للبحث عن أسماء أخرى أكثر ملاءمة وحداثة.

تذكر هذا الخبر الذي نشر بجريدة ذات يوم أن إسبانيا فتحت ملفا في التحقيق في قضية الموريسكيين وقد عرض في البرلمان الإسباني مشروع قانون ينص على رد الاعتبار لهم، لم يتوقف كثيرًا أمام هذا الخبر ولكن الآن ابتسم بسخرية وهو يكرر "رد الاعتبار" ولكن عن أي شيء تحديدًا سترد لهم اعتبارهم عن التنصير القسري أم عن الطرد الجماعي والقتل والغرق والحرق والسخرة والتنكيل والاغتصاب؟ هل ستعوضهم عن ماضيهم الذي ذهب وعن أرضهم التي سرقت أم عن حياتهم التي نهبت؟

ولكن بالرغم من كل شيء ما زالت الأندلس تعج بذكريات أهلها من العرب كل إنش فيها يحمل تاريخهم، روائحهم، ملامحهم. في الأزقة الضيقة المغلفة بوجوم كئيب يمكنك لو أنصت جيدًا أن تسمع ثرثرات، مواويل، ودموع من سكنوها، وجوه تتناهى إليك على حين غرة، وجوه كانت هنا يومًا حتى الفلامنكو تلك الرقصة التي من المفترض أن تصنع الفرح لمن يشاهدها، وفي الحقيقة هي لا تسرب سوى الحزن، لأنها رقصة وضع إيقاعها وخطواتها الفلاحون الذين صودرت أرضيهم، وهذه الراقصة التي تظهر بملامح جادة وبحركات عصبية تتماوج على نغم قيثارة هي تحكي لك عن حادث مقتل جدها واسترقاق أمها وعذاب أبيها في السجن، كل ضربة لحذائها على الأرض هي حكاية عن شجرة الليمون التي كانت لها وعن البيت الذي كان لها وعن كل هذه الأرض التي كانت يومًا لها، لذلك راقصة الفلامنكو وهي تؤدي رقصتها لا تتطلع بوجه أحد ، بل هي تحدق في ذلك الضوء الخافت المتسلل من نوافذ الماضي المشرعة ، تترقب فارسًا يأتي على صهوة جواده الأبيض ليعيدها معه عبر التاريخ للأندلس.

فجأة وكأنه تذكر شيئًا فعاود قراءة الجزء الأخير عدة مرات "وبعد أن كتبتها سلمتها لحفيدتي عائشة فهكذا قررنا أن يظل اسم عائشة خالدًا دهرًا من حفيد لآخر ومن زمن لآخر، عائشة، إنه اسم المرأة التي سكنت القلب يومًا والتي عاهدت أحفادي من بعدي أن يحرصوا على تخليد اسمها فمن ينجب منهم ابنة فليطلق عليها عائشة".

تذكر يومها عندما أخبرته عن اسمها في أول لقاء لهما أن اسم عائشة تتوارثه الأجيال. كلما أنجبت إحداهن فتاة تطلق عليها عائشة وعائشة هذه عندما تنجب تطلق على ابنتها عائشة وهكذا. ثم ضحكت ملء شدقيها:

"جدتي أخبرتني أن هذا الاسم كما لو أنه قدر لا يمكن الفكاك منه كلما أنجبت إحدى بنات العائلة جاء المولود الأول لها أنثى وبنفس راضية تسميها أمها عائشة، كأنه ميثاق أو عهد لا تستطيع إحداهن أن تخالفه حتى أصبح من المعتاد أول ما تحمل العروس جنينها نطلق عليها مزاحًا، أم عائشة ولم يخب الظن أبدًا".

فابتسم يومها ومازحها:

- ستكونين أجمل "أم عائشة".

بمجرد أن أنهى إجراءات الوصول قام بالاتصال بها وسألها :

- أخبرتني سابقًا أن جذورك تمتد للأندلس فهل هذا صحيح؟

فاجأها سؤاله:

- نعم صحيح. سمعت أن احد جدي الاكبر نزح من غرناطة عندما قاموا بطرد العرب منها ولكن لماذا؟

- فقط مجرد سؤال .

وفى ذلك الصباح كان يجلس في بهو الفندق الباريسي وهو يتناول قهوته ويتصفح جريدة لوفيجارو. وجد هذا الخبر في إحدي الصفحات "قتل كريس كايل القناص الأمريكي المشهور بالفهد الرمادي، عثر على جثته في غرفه تبديل الملابس بمعسكر الإعداد للحرب الذي كان يديره، وترجح الشرطة أن القتل كان بهدف الانتقام للطريقة الوحشية التي نفذها القاتل في جريمته، وتواصل الشرطة بحثها عن مرتكب الجريمة الذي اختفى نازعًا أي أثر خلفه".

أغلق الجريدة ووضعها في جيب معطفه وظل يتريض وهو يفكر بأنها دومًا ستكون نفس الأحداث ونفس الأخبار ونفس الثرثرة الفارغة كما أنها ستكون نفس المدن ونفس الطرقات ونفس الأشخاص في كل الأحوال وعلى مر الزمن لن يتبدل شيء.

نبذة عن الكاتبة

رشا عدلي محمد

روائية – باحثة في تاريخ الفن

دبلومة عليا في تاريخ الفن التشكيلي اكاديمية لايم للفنون الجميلة

عضو في رابطة مؤرخي الفن الدولية بانجلترا

صدر لها رواية صخب الصمت 2010 – كتاب القاهرة المدينة الذكريات 2012- رواية الحياة ليست دائمًا وردية 201- رواية الوشم 2014 – رواية نساء حائرات 2014

للتواصل مع المؤلفة

Rasha-adly@hotmail.com

/https://www.facebook.com/gallery.art.n.history

تمت بحمد الله

القاهرة في 15-7-2014

* الأبيات الشعرية في مقدمة الفصل الأول من قصيدة في رثاء الأندلس للشاعر الأندلسي أبو البقاء الرُّندي

* جميع المعلومات التاريخية صحيحة وموثقة

* الأبطال وأحداث الرواية من خيال الكاتب

أحدث إصدارات

الأستاذة

رشا عدلي

- القاهرة المدينة.. الذكريات.
- الحياة ليست دائمًا وردية.
- الوشم.
- شواطئ الرحيل.

دار نهضة مصر للنشر

رواية

شوَاطئُ الرحيل

تسير الرواية في خطّي سرد متوازيين ومرتبطين بإحكام؛ فمن باريس يتلقى إياد توجيهات بالقتل والقنص المباشر لشخصيات لا يعرفها حيث يخوض مغامرات القنص بدم بارد انتقامًا لعائلته التي تم اغتيالها في العراق بسبب عمل والده في مشروع الطاقة النووية، ومن ناحية أخرى، هناك خالد الذي يعاصر مأساة طرد العرب من غرناطة.

يرتبط الخطان عبر توصل إياد إلى الكتيب الذي يحكي فيه خالد قصته، ويرتكز الارتباط على مسألة طرح الانتقام كمحور أساسي.

حين يتوصل إياد إلى شخص القناص الأميركي الذي أباد عائلته أمام عينيه وهو طفل في العراق، فيعاهد نفسه أن تكون مهمة قتله هي آخر المهمات.

كل هذا في إطار مشوق مرتبط بقصة حب لعائشة المغربية التي ترجع أصولها إلى الأندلس.

دار نهضة مصر للنشر

للطلب والاستفسار اتصل على
16766
www.nahdetmisr.com
our page/nahdet misr group

6 221133 350815